فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

434

تشرين الثاني 2022

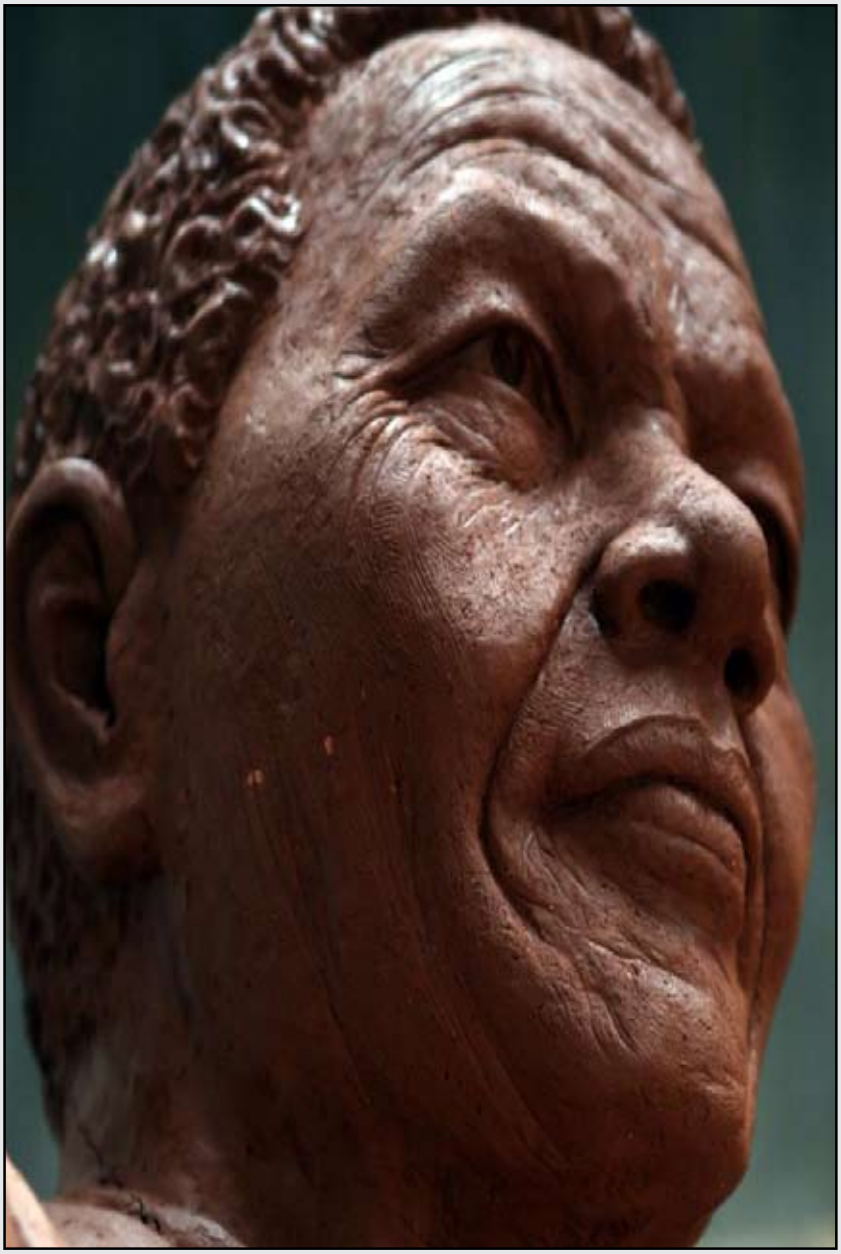

مقالات
جاسم محمد حافظ الساعدي
إبراهيم إسماعيل
ماجد لفته العبيدي
حسام الدين فياض
هاشم نعمة

نصوص قديمة
محمد ابراهيم نقد

نصوص مترجمة
داريو رودريغيز ماشادو

حوارات
حوار مع ماهر الشريف

أدب وفن
حسب الله يحيى
مؤيد عليوي
نجاة تميم
صالح الصحن
ناجح المعموري
شكيب كاظم
علي حسن الفواز
حسن العاني
عامر الطيّب
فاضل ثامر
شريف هاشم الزاملي
جيورجي جوسبودينوف

التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل جـــــواد الزيدي
رضـــــا الظاهر علي إبـراهيـــم
كـــــاوة محمود مظهر محمد صالح
هـــــادي عزيـــز علي

العدد: 434
تشرين الثاني: 2022

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري
هـــاشـم نعمـة
سوران قحطـان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: hassab1944@yahoo.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- الإصلاح الزراعي أحد أسس التنمية المستدامة..... جاسم محمد حافظ الساعدي
17- طرق الري الحديثة وأهميتها في ظروف العراق الراهنة .....إبراهيم إسماعيل
27- الماركسية والعولمة الرأسمالية.....ماجد لفته العبيدي
37- نظرية نقد المجتمع الاستهلاكي عند جان بودريار ..... حسام الدين فياض
47- قراءة في كتاب "لماذا فشلت الليبرالية" .....هاشم نعمة

نصوص قديمة

56- كسر الحلقة الشريرة .....محمد ابراهيم نقد

نصوص مترجمة

66- ماذا يعني ان تكون يساريا اليوم؟ لـ الدكتور داريو رودريغيز ماشادو.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

82- (الثقافة الجديدة) تحاور الدكتور ماهر الشريف.....اجرى الحوار: سوران قحطان

أدب وفن

96- الشبيبة والقراءة! .....حسب الله يحيى
97- اسئلة الفلسفة واشكالية النظرية النقدية الأدبية العربية الحديثة ..... مؤيد عليوي
103- مفهوم الصمت واشكالية الجنوسة في النقد الثقافي .....نجاة تميم
109- الايحاء في السينما: اشتغال ذهني سابق في منظومة المعنى .....صالح الصحن
113- اسطورة السكن في المنابت .....ناجح المعموري
119- (الدار الكبيرة) لمحمد ديب رواية فكرية تاريخية.....شكيب كاظم
123- حسن العاني ..سرديات التخيّل وأوهام الشخصية.....علي حسن الفواز
127- (قصة) مدونات رجل الثلج.....حسن العاني
132- نصوص.....عامر الطيّب
136- رحيل محمد علي شمس الدين: طائر الجنوب الذي رحل..... فاضل ثامر
141- فلاح رحيم.. القراءة الاجتماعية لرواية "حبات الرمل ... حبات المطر".....شريف هاشم الزاملي
147- وإستحال كل شيء الى قمر لـ جيورجي جوسبودينوف.....ترجمة جودت جالي

لوحتا غلافي العدد : نحت للفنان أحمد البحراني

كلمة العدد

انتفاضة تشرين 2019 في ذكراها الثالثة
تشاؤم الإرادة أم تفاؤل العقل؟

قبل ايام حلت الذكرى الثالثة لانتفاضة تشرين 2019 المجيدة. ذات مرة قال لينين: " قد تمرّ عقود لا يقع فيها شيء يذكر، وقد تأتي أسابيع تقع فيها عقود". والواقع أنه في خلال تلك الايام وتحديدا منذ انطلاق شرارة الاحتجاجات في الاول من اكتوبر 2019 في بغداد وامتد لهيبها الى محافظات الوسط والجنوب، انقلبت الاوضاع رأساً على عقب وانفتح الفضاء السياسي مجددا على آفاق جديدة تشي بالكثير الواعد. فقد شهدت الحركة الاحتجاجية والحراك الواسع الجديد تحولا مهما ولحظة فريدة في تاريخ البلاد بعد 2003 لترتقي الى مستوى انتفاضة شعبية حقيقية، كما اتخذ هذا التحول والحراك المجتمعي مسارات متعرجة واشكالا مختلفة. وهكذا أعادت الجماهير المنتفضة المعاني إلى الحقل السياسي، محولة النشاطات الاحتجاجية إلى قوة كبيرة قادرة على هزّ النظام المحاصصي - الطوائفي وإجباره على الاقرار بأحقية مطالب الجماهير الغاضبة رغم مناوراته ومحاولاته في تشويه الحركة الاحتجاجية والتشويش عليها بهدف تبرير موجات القمع التي مورست ضد نشطائها وناشطاتها والجماهير المحتجة عموما. ورغم كل القمع و محاولات التشويه والضغوطات والملاحقات التي تعرض له نشطاؤها وناشطاتها، فإن الاحتجاجات لم تتلعثم، بل امتلكت بلاغتها في التعبير عن غضبها وبلورت شعاراتها ومطالبها العادلة في: تفكيك النظام المحاصصي –الطوائفي ورحيل الحكومة ورئيسها وتحسين الخدمات ومكافحة البطالة وتوفير مناصب عمل جديدة، والقضاء على الفساد واستعادة الاموال المنهوبة، وتحقيق العدالة الاجتماعية.. والكرامة .... الخ، التي انتهكها النظام المحاصصي/ الطوائفي. واليوم، وبعد هذه السنوات الثلاث العجاف تبقى رايات الانتفاضة مشرعة والشعارات التي رفعتها ماثلة وهدف التغيير يتصدرها باعتباره الاداة الوحيدة لتفكيك النظام المحاصصي وتحقيق المشروع الوطني-المدني- الديمقراطي.

بعد سنوات ثلاث عجاف تتيح متابعة المسارات الكبرى التي اتخذتها انتفاضة تشرين بلورة اهم خلاصاتها الكبرى كدروس مفيدة للعمل اللاحق:

- الخلاصة الاولى: لقد اثبتت انتفاضة تشرين وما قبلها من انتفاضات جدوى القاعدة السوسيولوجية القائلة: " ان كل نظام مهما كانت صلابته مهدد بالتلاشي"، لأنه وبكل بساطة "يتوفر على كم محدود من الطاقة التي يقوم بصرفها للحفاظ على توازنه".

وهكذا كلما ازداد تصلب النسق وادار ظهره للحراك المجتمعي من دون حل المشاكل الفعلية، كلما تضاعفت سرعة انحداره نحو التلاشي. فالأنساق (النظم) المغلقة محكوم عليها بالتلاشي.

- الخلاصة الثانية: اعادة الاعتبار لمفهوم الثورة والانتفاضة باعتبارها ليس عملا فوقيا، انقلابيا، بل من صناعة الجماهير الطامحة للحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية.

كانت المواجهة مع عناصر النموذج المستند على التحالف البيروقراطي/ الكومبرادوري/ الطفيلي/

الرأسمالي التابع، في ظل التداخل العضوي الوثيق بين قوى الثروة وقوى السلطة، بين العصابات النهابة - "المافيات" - وبين "جهاز الدولة" على المستويات العليا والوسيطة.

- الخلاصة الثالثة: جدلية العلاقة بين الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية وفشل محاولات الفصل بينهما او تغليب احداهما على الأخرى.

- الخلاصة الرابعة: إن الوعي بضرورة التغيير ليس وليد الصدفة، وإنما هو نتاج عملية تطور تراكمي متواصل، يتولد من خلال المعاناة والشعور بالغبن وضرورة إزالته.

- الخلاصة الخامسة: القدرة على دمج الاجتماعي بالديموقراطي في مطالب الشعوب وخصوصا الشباب منهم. فقد بيّن مسار الاحداث حساسية المتظاهرين من البطالة وعداءهم للنظام الاقتصادي المهيمن، مربوطة بحساسيتهم بأهمية العدالة الاجتماعية والكرامة والحريات الفردية والجماعية.

وبيّن مسار الاحداث كذلك ان هناك علاقة وثيقة بين الخبز والحرية، فعلى الرغم من تقديم حكومة عادل عبد المهدي حزما من الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية، فإنّ انتفاضة الجماهير لم تتوقف. فقد رأى الشباب والمهنيون والطلبة وغيرهم من المنتفضين أنّ لقمة العيش مربوطة بحرية الصحافة، ورفع القيود عن الإنترنت، وحرية التعبير ... الخ.

- الخلاصة السادسة: تتمثل في اللحظة المهمة التي ينبغي تسجيلها هنا وهي الانتقال من التعبيرات الصامتة لدى الشباب او اللامبالاة بالشأن العام والانصراف عن السياسة، كما كان يزعم الكثيرون، ليتحول الى قاطرات محركة لعمليات الحراك الاجتماعي والانتفاضة الشعبية ليواجهون بصدور عارية عسف السلطة وعنفها السافر.

- الخلاصة السابعة: ان الإذلال السياسي والإذلال الاجتماعي كانا سببين رئيسيين للانتفاضة، هذا طبعا إضافة لأسباب عديدة أخرى.

اليوم، وبعد ثلاث سنوات يمكن القول ان الطريق التي ما زال يسلكها المنتفضون نحو استعادة الحرية والكرامة ستكون طويلة وشاقّة. فهي تمر في طور انتقالي لا احد يعرف مدته... كما ان آفاقها مفتوحة على كل الاحتمالات...

ان احتجاجات أكتوبر 2019 التي ارتقت الى انتفاضة شعبية عارمة بكل معنى الكلمة شكلت تطورا نوعيا ولحظة فريدة في تاريخ الحركة الاحتجاجية في العراق، فلا يجوز أضاعتها في دهاليز مناورات المتحاصصين او الاستحواذ على مخرجاتها من اي طرف كان عدا من صنعوها من الجماهير الثائرة، لذا لا يجوز السماح تحت أي ظرف كان إعادة انتاج النظام المحاصصي - الطوائفي بـ "طبعة جديدة".

كانت انتفاضة تشرين 2019 إعلانا شعبيا عن رفض وقطيعة مع نهج المحاصصة ومنظومة حكمها ووصول العملية السياسية إلى طريق مسدود، ما يطرح ضرورة التغيير إلى الدولة المدنية الديمقراطية العصرية القائمة على المواطنة والهوية الوطنية الجامعة. علما ان الانسداد السياسي الراهن يعتبر مظهرا من مظاهر تعمق أزمة النظام السياسي، القائم على نهج المحاصصة الطائفية والإثنية، التي أوصلت البلاد إلى ما هي عليه الآن من أزمة بنيوية شاملة ومركبة وفساد عميم. ويمكن القول أن انكشاف واقعة سرقة الثلاثة مليار دولار من أمانات الضرائب تكشف بوضوح لا مرد له أن الفساد لم يعد صفة عارضة من صفات نظام المحاصصة، بل هو الجوهر المعلن، والذي لا يمكن التستر عليه من قبل هذا النظام.

في ظل هذه الأوضاع لا بد من مواصلة بذل الجهود من اجل توحيد عمل سائر القوى والحركات السياسية التي وضعت تغيير نهج حكم المحاصصة وإقامة الدولة المدنية الديمقراطية ضمن أولويات برامجها. وهذه تشمل طيفا واسعا من الأحزاب، التاريخية والجديدة التي نشأت من رحم انتفاضة تشرين، والحركات السياسية والحراكات الاحتجاجية والشخصيات السياسية والاجتماعية المؤثرة، إضافة إلى الاتحادات والجمعيات والنقابات العمالية والمهنية.

المجد كل المجد لانتفاضة تشرين المجيدة!

مقـــــالات

الإصلاح الزراعي
أحد أسس التنمية المستدامة

د. جاسم محمد حافظ الساعدي

مقدمــة

يتجلى جوهر الإصلاح الزراعي، في مجموعة من التدابير والإجراءات القانونية الهادفة الى تنظيم ملكية الارض، وذلك لتأمين الإستخدام الافضل للأراضي الزراعية، وتوفير شروط إدارة كفوءة للعملية الإنتاجية، ومعالجة التأثيرات السلبية لغياب القوانين واللوائح الناظمة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية العادلة في الريف، حيث للزراعة دور أساسي في تلبية حاجات الناس المتنامية، من سلع، كمّا ونوعا، فضلا عن كونها الحجر الأساس لتحديات التنمية وميدانها الأرحب، والسبيل لتحقيق الأمن الغذائي، ذلك الذي بات جزءا مهماً من منظومة الأمن الوطني الشامل، لاسيما في عالم يعتبر الدول العاجزة عن توفير الغذاء لرعاياها او عدم تسهيل الوصول اليه، دولا منتهكة لحقوق الإنسان الأساسية.

وقد شغل موضوع الإصلاح الزراعي، كل المهتمين بمستقبل البلاد والطامحين الى تحقيق تنمية مستدامة فيها، والباحثين عن سبل الإستفادة من التجارب الانسانية، خاصة التي وضعت القطاع الزراعي في بلدانها في المكان المناسب، فلعب دوره المتميز في زيادة ونمو الدخل القومي

وتراكم رأس المال وتنشيط الأسواق المحلية، وذلك عبر توفير مستلزمات إدارة الانتاج الزراعي الحديث القائم على أساس التخصص والتركيز سواءً في إطار مشاريع التكامل الإفقي، أي داخل قطاع إنتاجي محدد، أو في إطار التكامل العمودي، أي بين مشاريع القطاعات الإنتاجية المختلفة.

وبدل أن يحظى هذا القطاع الحيوي في بلادنا بالإهتمام المرتجى، ظل رهيناً للسياسات الاقتصادية والاجتماعية الخاطئة وغير الموضوعية ولتقلباتها المفاجئة، والتي انعكست سلباً على نموه وتحسين مؤشراته ودوره، منذ ان أدخل النظام الدكتاتوري البائد، العراق في حروب عبثية لعقود ثلاثة، وحتى يومنا هذا، الذي أحال فيه المتنفذون البلاد الى

سوق مفتوحة على مصراعيها للإستيراد، وذلك بعد أن تم تعطيل العملية الإنتاجية في أهم قطاعات الاقتصاد الوطني الرئيسية، الزراعة والصناعة.

هذا ولا بد لنا أن نشير الى أن مساحة الاراضي الصالحة للزراعة في العراق لا تتجاوز 11 مليون هكتار من مجموع مساحته الكلية البالغة زهاء 44 مليون هكتار، وإن ما يستثمر من هذه الأراضي اليوم لا يتجاوز 4 ملايين هكتار فقط. كما أن هذه المساحة مهددة بالتناقص بأرقام مخيفة تصل الى 50 في المائة [1]، بسبب خسارة العراق التدريجية لثروته المائية في دجلة والفرات، جراء مصادرة تركيا وإيران لما يقارب 60 في المائة من المياه المتدفقة الى نهري دجلة والفرات. علماً أن العراق يمتلك مياهاً جوفية، تقّدر المتجددة منها بحوالي 730 مليار متر مكعب، وشبه المتجددة بحوالي 5 مليار متر مكعب. ولعل من نافل القول الإشارة الى ما يسببه هذا الأمر الخطير من قلق شديد لدى العراقيين على مستقبل بلادهم وحياتهم.

ملكية الأرض في العراق

عمدت سلطات المستعمر البريطاني الى تسجيل الأراضي الزراعية الخاصة بكل عشيرة عراقية باسم شيخ العشيرة، وخلقت بذلك طبقة من الإقطاعيين، تمثل القاعدة الإجتماعية للنظام الملكي الذي أنشأته. وأدى هذا الإجراء الى حرمان مئات الآلاف من الفلاحين المعدمين من الأرض. وبهذا الصدد تقول الكاتبة وارنر "إن تسوية حقوق الأراضي في العراق، كانت في الواقع طريقة لنزع ملكية الأرض من الزراع الشاغلين لها وإسباغها على رؤساء العشائر كملاك أراضي كبار" [2]. ويشير الباحث حنا بطاطو الى النمو الكبير لتأثير هؤلاء الإقطاعيين في سياسة البلاد، حيث زاد تمثيلهم في البرلمان الملكي من 19 في المائة عام 1929 الى 40 في المائة عام 1958 [3].

ويّعد قانون تسوية حقوق الأراضي رقم 50 لعام 1932 وقانون اللزمة رقم 51 في نفس السنة، أكثر الإجراءات التي إتخذها النظام الملكي لتعزيز مكانة الإقطاعيين، حيث حقق القانونان إعترافاً رسمياً بانتزاع الأراضي من العشيرة ومن جيرانها الضعفاء ومن الدولة ومنحها ملكية خاصة وصرفة للاقطاعيين وبالمجان. وقد وصلت هذه الأراضي الى 2.5 مليون هكتار بصيغة ممنوحة باللزمة و2.75 مليون هكتار بصيغة الطابو [4]. وهكذا لم يبق أمام الفلاحين المعدمين سوى خيار من خيارين، إما القبول بالأمر الواقع ومواصلة العمل لدى الشيخ الإقطاعي بأصعب ظروف الحياة شقاءً وجوعاً وقهراً، حيث وصل معدل ما يحصل عليه في الشهر 50 كغم من القمح، أو الهرب الى المدن والبحث فيها عن حياة أفضل. وتشير الإحصائيات الى وصول عدد صرائف هؤلاء المهاجرين الى 16450 صريفة في أطراف بغداد عام 1956.

قانون الإصلاح الزراعي رقم (30) لعام 1958

بعد سقوط الملكية في 14 تموز 1958 واقامة الجمهورية العراقية، شرعت الحكومة بإنصاف الفقراء في الريف

العراقي، أولئك الذين كانت تتحكم في مصائرهم فئة صغيرة من الإقطاعيين، لا تتجاوز 2 في المائة من السكان، عبر استحواذها على 68 في المائة من المساحة الكلية لمجموع الاراضي. كما شرعت حكومة الجمهورية بالعمل على وضع الريف على طريق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، عبر جملة من السياسات والاجراءات المنصفة، والتي كان من أبرزها قانون رقم (30) للاصلاح الزراعي، الصادر في 30 ايلول 1958، والذي يّعد رغم اهميته التاريخية، قاصراً عن تلبية المزاج الثوري للمجتمع العراقي وتطلعاته في تحقيق طموح الفلاحين في تصفية علاقات الانتاج الاقطاعية وشبه الاقطاعية في الريف وتأمين الحياة الحرة والعيش الكريم لسكانه، إضافة الى عدم إتساقه مع رؤية إستراتيجية في هذا الميدان.

لقد حدد القانون أقصى مساحة من الاراضي الزراعية، يسمح لأحد بإمتلاكها، بألف دونم إذا كانت تسقى سيحاً وبألفي دونم إذا كانت تسقى بمياه الأمطار، مع السماح للمشمولين بالقانون إختيار أراضي هذا الحد، الأمر الذي سمح للإقطاعيين وكبار مالكي الارض، السيطرة على 60 في المائة من الاراضي الخصبة والقريبة من مصادر المياه [5]. كما قرر تقديم تعويضات سخية لهم مقابل الإستيلاء على ما اغتصبوه، مما يفوق الحد الأقصى المسموح به في القانون. وأبقى القانون ملكية مضخات المياة وأنظمة الري لأصحاب الأرض، مما وفّر للإقطاعيين اداة قوية للتضييق على الفلاحين الواقعة اراضيهم بعيداً عن مصادر المياه. وألزم القانون الفلاحين، الذين وزعت عليهم الحكومة 30 دونماً لكل فلاح بعقود تأجير، دفع بدل سنوي عن تلك الاراضي الموزعة عليهم، ولمدة عشرين عاماً.

لقد عبّرت تلك الاجراءات، عن الطبيعة الطبقية لنظام الحكم الجمهوري، وتناقض المصالح الطبقية بين اركانه، إضافة الى التأثير السلبي للقوى الرجعية والبرجوازية، والتي تمكنت من إفراغ القانون من بعده الجذري، معيقة تحقيق إصلاح زراعي، يخلق بيئة ملائمة لرفع وتائر الانتاج وتحسين معيشة الفلاحين.

قانون الإصلاح الزراعي رقم (117) لعام 1970

عاد البعث الى السلطة على اثر انقلاب عسكري في 17 تموز 1968، حاملاً في جعبته خطة مراوغة لمحو ما علق في ذاكرة العراقيين من اوجاع وجراح، منذ إنقلابه الاسود في 8 شباط 1963. فبادر الى اطلاق سراح السجناء السياسيين، الذين كان هو من أودعهم في السجون والمعتقلات، كما قام بتأميم النفط، مستثمراً قانون رقم (80) لسنة 1961، الذي اصدرته حكومة 14 تموز، والذي حرر معظم الثروة النفطية من براثن الشركات الغربية، وأصدر قانوناً جديداً للإصلاح الزراعي برقم 117 في العام 1970، مدعيّاً رغبته في تجاوز نقاط الضعف التي إعترت قانون رقم 30. وشرع النظام في تنشيط الحركة التعاونية وإنشاء مزارع الدولة، التي استوعبت خريجي المعاهد والجامعات الزراعية. كما الغى حق الاقطاعيين في التعويض وفي اختيار الارض التي تبقى لهم، وقلّل

من مساحاتها، وفق مقاييس تعتمد الموقع ودرجة الخصوبة ومدى توفر مصادر المياه وغيرها.

وأصدر النظام قانوناً برقم (90) لسنة 1975، خاص بالإصلاح الزراعي في إقليم كردستان، والذي قضى بتوزيع الاراضي المملوكة للإقطاعيين وكبار المالكين على الفلاحين العاملين فيها، والزامهم بانشاء جمعيات تعاونية زراعية عليها. ويعّد القانون الذي لم يشمل جميع المناطق الزراعية في العراق، قانوناً جيداً وذا أبعاد تؤشر رؤية جدية لإصلاح زراعي جذري.

وقد استقبل المواطنون هذه الإجراءات بآمال كبيرة، سرعان ما خابت حيث لم يجر الاهتمام بصغار المزارعين وتحولت الجمعيات الفلاحية والتعاونيات الزراعية الى منظمات ملحقة بالحزب الحاكم وأجهزته الأمنية، مما أفرغها من محتواها الحقيقي. وبعد أن زج النظام البلاد بحرب عبثية مع إيران، وجنّد كل القوى العاملة في القطاع الزراعي وأرسلها الى جبهات القتال، معطّلاً العملية الإنتاجية، قام بإصدار قانون رقم 35 لعام 1983، والذي حُلّت بموجبه التعاونيات الزراعية ومزارع الدولة ووزعت اراضيها على عائلة رأس النظام والمقربين منه من قيادات الحزب وكبار الضباط.

من كل ما تقدم، يتضح لنا بأن جميع المحاولات التي إستهدفت تطبيق إصلاح زراعي حقيقي، لم يكتب لها النجاح ولم تتمكن من تلبية مصالح الفلاحين، وذلك لغياب البيئة السياسية المستقرة، وللخلل في توازن القوى بين الرجعية من جهة وبين القوى الوطنية التقدمية، المؤمنة بضرورة ارساء اسس بناء دولة عصرية حديثة مستقلة من جهة أخرى. ولهذا غابت أو غيّبت الرؤية الإستراتيجية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، مما أبقى البلاد أسيرة سياسات الفوضى الخلاقة، تلك التي أرادتها الإمبريالية سبيلاً للهيمنة على العراق وإستنزاف ثرواته الطبيعية وطاقاته وتعطيل دوره الحيوي في منطقة الشرق الاوسط.

أي إصلاح زراعي نريد؟

يعّد التدهور الذي يعيشه العراق اليوم، شكلاً من أشكال الكوارث التاريخية. وليس أبلغ على ذلك من ملاحظة المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية الدالة عليه، كوصول 32 في المائة من السكان الى ما دون مستوى خط الفقر وإنتشار الأمية الأبجدية لتشمل عشرة ملايين مواطن (بعد أن كانت منظمة الثقافة والعلوم التابعة للامم المتحدة (اليونسكو) قد إحتفلت بالقضاء على الأمية في البلاد عام 1975)، فيما تنهش الأمية الثقافية أعداداً أكبر من ذلك. كما بلغت نسبة القوى العاملة من غير النشيطين اقتصاديا 60.5 في المائة، نسبة الذكور فيهم 13.6 في المائة والإناث 86.6 في المائة، أي بمعنى أن 12 مليون إمرأة تعيش خارج سوق العمل حالياً [6].

ويعتبر سكان الريف العراقي، البالغ عددهم 11 مليونا و790 ألف نسمة (30 في المائة من مجموع السكان)، من اكثر المتضررين مما تعيشه البلاد، حيث 13.2 في المائة من رجاله وأكثر من 40 في المائة من نسائه من العاطلين عن العمل، وحيث

يعاني تهميشاً مريعاً في الخدمات التعليمية والصحية وغيرها، وحيث يتدهور إنتاجه الزراعي ليصل الى 4.8 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي لعام 2020 حسب الجهاز المركزي للإحصاء [7]، وحيث تشتد المنافسة بين إنتاجه الضئيل في السوق و السلع المستوردة من الخارج في إطار الباب المفتوح أمام الإستيراد، فيما تشح المياه ويتقلص الدعم الحكومي للفلاحين في ظل هذا الجفاف وإرتفاع تكاليف الإنتاج، بسبب الأزمة العالمية وجراء التغيير المفاجئ لسعر صرف الدولار[8]، إضافة الى إرتفاع معدلات الهجرة من الريف الى المدينة، والتي أدت الى خراب الزراعة من جهة وزيادة أعداد العاطلين وإنتشار العشوائيات في المدينة من جهة أخرى، حيث ظهرت مجددا نماذج من "مدن الصفيح" التي ستفضي أيضا الى إعادة إنتاج الفقر والتهميش بمديات جديدة بكل ما يحمله ذلك من مخاطر اجتماعية على السلم الأهلي. وتشير بعض التقديرات إلى ان نصف عدد فلاحي العراق دفعتهم الظروف الصعبة إلى ترك الزراعة في السنوات الماضية واللجوء الى الهجرة أو الى ممارسة مهن ونشاطات اخرى [9].

إن هذه الأزمة البنيوية تحتم العمل الجاد للخروج من دوائر التخلف هذه، والانطلاق نحو صياغة أنظمة زراعية جذرية تعيد تنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في الريف، وخاصة في ما يتعلق بتنظيم الحيازات وانماط الانتاج الاجتماعي، أنظمة تحافظ على كل ما كان إيجابياً في قوانين الإصلاح الزراعي الصادرة منذ تأسيس الجمهورية العراقية.

ولعلي لا أغالي في القول بأن حل المسألة الزراعية، هو أكبر التحديات التي واجهت وتواجه الادارات الحكومية المتعاقبة، وهي مفتاح من مفاتيح الخروج من الكارثة الشاملة. ويمكن بهذا الصدد الإشارة الى المقترحات التالية:

أولاً. اعتماد نمط الاقتصاد المختلط الذي سيمنح القطاع الوطني الخاص وكذلك الحكومي فرصاً كبيرة، لتبادل الطاقة فيما بينهما ولتكامل نشاطاتهما، استجابة الى معطيات الواقع الموضوعي لبلادنا، كدولة نامية، اقتصادا بديلا عن الاقتصاد الريعي الذي خلق مجتمعا هشا تدنت فيه القيم الثقافية والانسانية، خاصة وان العراق قد سبق له وجرب الاقتصاد المختلط في اطار الاقتصاد الموجه، وحقق نسبة 60 % من القيمة المضافة في مجال انتاج المواد الغذائية عام 1989م.

ثانياً. تغيير النظام الداخلي لوزارة الزراعة، الذي حصر وظائفها في الخدمات الإرشادية واجراء البحوث وتنظيم القروض الزراعية، تماشيا مع سياسات تصفية الحركة التعاونية ومزارع الدولة ولضمان خدمة مصالح الطبقة الاقطاعية والبرجوازية الطفيلية العائدة الى الريف. لقد جمّد هذا النظام الداخلي دور الوزارة في المشاركة والإشراف وتوجيه الانتاج الزراعي، علماً بان الإرشاد والبحوث وتنظيم القروض تعّد من صلب وظائف الوزارة ايضاً، تلك الوظائف التي تشكل مجتمعة الاساس الموضوعي لادارة وتحسين الانتاج في القطاع الزراعي العراقي.

ثالثاً. توطيد التنسيق والعمل المشترك

على اساس الوحدة العضوية بين كافة الوزارات والهيئات والمنظمات الساندة للقطاع الزراعي، وإدراك اهمية استيعاب القوانين الموضوعية للتطور الاقتصادي والاجتماعي المتسق وعلاقات التاثير المتبادل فيما بين هذه الهيئات، لتجاوز ما نحن عليه من تدنٍ في إدارة الموارد المادية والبشرية الهائلة في بلادنا.

رابعاً. إشاعة اساليب الزراعة الحديثة القائمة على التخصص، والتركيز وفق مبادئ التكامل الافقي بين مشاريع القطاع الزراعي، المعبّر عنها بالحركات التعاونية الزراعية الإنتاجية او الخدمية المختلفة (شريطة التعامل مع الجمعية الزراعية كإتحاد طوعي لفلاحين أحرار، وليس كما الزمهم النظام الداخلي أيام حكم الدكتاتورية (الدفاع عن الحزب والثورة) تمهيدا لاقامة مشاريع التكامل العمودي بين قطاعي الزراعة والصناعة والتي تجلت حسب حجم المشاريع المتكاملة في صور مختلفة.

خامساً. دعم إنشاء وتطوير المزارع والمصانع التحويلية والتي تدخل في ميدان تحقيق الأمن الغذائي كمزارع تربية الأسماك والحيوانات ومصانع تعليب اللحوم والأسماك، ومزارع المحاصيل الزيتية ومصانع إنتاج الزيوت والأعلاف، وبساتين النخيل ومشاريع تعليب وتصنيع التمور، ومزارع الأشجار سريعة النمو ومصانع عجينة الورق، ومزارع النباتات الطبية ومعامل الأدوية، ومزارع الزيتون ومصانع الزيوت والتعليب والأعلاف والأسمدة، وحقول حيوانات الحليب ومعامل الألبان.

سادساً. دعم إنشاء وتطوير المعامل الساندة للإنتاج الزراعي ومنها مصانع منظومات الري بالرش والتنقيط، ومضخات الري ومعدات الحراثة والحصاد والباذرات والجني ورش المبيدات والتسميد، ومصانع الأسمدة العضوية من المخلفات الزراعية والحيوانية، ومصانع الأغطية البلاستيكية والزجاجية والمواد الخاصة بالتغليف والتعبئة، وإنتاج المكائن الخاصة بالطحن ومعجون الطماطة والغزل والنسيج وغيرها.

التكامل الصناعي - الزراعي

يعّرف التكامل الصناعي الزراعي على انه مفهوم تنظيمي، يتصف بالوحدة والتطور الواعي المنهجي لوسائل الانتاج الصناعي وطرق الانتاج الزراعي، ضمن كيان اقتصادي موحد. وهو بهذا يشمل مفهومين هما تكامل الانتاج الزراعي والانتاج الصناعي من جهة وتكامل العمل الزراعي والعمل الصناعي من جهة مكملة. ولهذا تعتبر مشاريع التكامل الصناعي - الزراعي، أرقى شكل من أشكال إدارة الانتاج الزراعي، لأنها تحقق الاستغلال الامثل للقوى العاملة في كل من الاقسام الزراعية والصناعية، وفي فترات متصلة من العام، وتزيد من تراكم رأس المال، وتدخل التقنية الحديثة للريف فتقلص الفوارق بينه وبين المدينة، وتنظم التوزيع السكاني والانتاجي. كما تحقق هذه المشاريع تلبية مناسبة لحاجات المجتمع من انتاج الغذاء وتقليل الخسائر الطبيعية فيه وتنمية فعالية الانتاج الاجتماعي عبر التركيز والتخصص، وتحسين مداخيل المنتجين الزراعيين.

ويجري تصنيف اشكال التكامل الصناعي الزراعي على اساس حجم الهيكل التنظيمي للمشاريع:

1. المشاريع الصناعية ـ الزراعية

ويفهم منها بأنها شكل لتنظيم الانتاج والادارة في إطار مزرعة واحدة تضمن الوحدة التنظيمية والاقتصادية والتقنية والجغرافية لانتاج المحاصيل الزراعية وتصنيعها وحفظها (الشكل رقم 1).

2. المجمعات الصناعية ـ الزراعية

يعتبر هذا الشكل اكثر تعقيدا من سابقه، حيث في ظله يجري إتحاد مجموعة متقاربة من الفروع الزراعية والصناعية التي تربط بينهما بقوة عوامل جغرافية وفنية وإقتصادية وتنظيمية متينة. وتشكل المحاصيل الزراعية فيه مواد اولية للصناعة التحويلية، وياتي نتيجة لإتحاد إثنين أو ثلاثة من المزارع ذات الفروع الإنتاجية الضخمة مع عدة مشاريع لفروع الصناعة التحويلية الملائمة (الشكل رقم 2).

3. الاتحادات الصناعية ـ الزراعية

يعتبر اعقد أشكال تنظيم وإدارة الانتاج، الذي في ظله، وعلى أساس التخصص العلمي وتعاون عدة مشاريع صناعية وزراعية ونظم مشاريع اخرى، يتكون جهاز إداري موحد (تحت قيادة كفوءة) يضمن التطابق العضوي للانتاج الصناعي والزراعي ونشاطات المشاريع المساعدة الداخلة في الاتحاد. وقد تحتفظ المشاريع الداخلة في الاتحاد بوجهها القانوني واستقلالها الانتاجي والمالي وتبني علاقاتها على اساس نظام استغلال اقتصادي كامل (الشكل رقم 3).

خاتمة

تجدر الإشارة الى أن إخراج القطاع الزراعي مما هو فيه من ركود يقتضي حماية الانتاج الزراعي من إغراق الأسواق بالسلع المستوردة، وأن يخصص للزراعة من الميزانية العامة بين 10 الى 15 في المائة (المخصص الأن لا يتجاوز 1.5 في المائة)، الى جانب العمل على مكافحة التصحر وتحسين خصوبة التربة ومساعدة الفلاحين على استخدام وسائل الري الحديثة، واعادة تأهيل وتطوير البنى التحتية للقطاع الزراعي، وإعادة هيكلة وزارة الزراعة بما يرشق هيكلها الاداري ويطهرها من الفساد. فضلا عن العمل الجاد على الغاء الفوارق بين المدينة والريف لاستقطاب آلاف الشباب العاطل عن العمل بعد تأهيلهم عبر معاهد فنية خاصة.

وأخيراً، لا بد من الإشارة الى وهم يسعى البعض لنشره من أن إقتصاد السوق لا يسمح بتدخل الدولة في الإنتاج الزراعي. فمن المعروف أن آليات السوق لوحدها لا تؤدي الى التخصيص الأمثل للموارد، مما قد يؤدي الى نمو اقتصادي غير متوازن اقليميا وقطاعياً. كما أن عقوداً من الحكم الشمولي والحروب والحصار الدولي، ثم الحرب الطائفية وغياب الأمان وكارثة الإرهاب والصراع للقضاء عليه، قد خلق أوضاعاً قاسية للفلاحين وللمستثمرين في الزراعة، وعطّل دورهم في النشاط الاقتصادي الوطني. ولهذا لابد من تدخل الدولة، ففي الولايات المتحدة مثلاً، وهي الدولة الرأسمالية الأولى في العالم، تم دعم الانتاج الزراعي من قبل الدولة بخمسين مليار دولار سنوياً، لمنع هجرة رأس المال من الزراعة الى الصناعة.

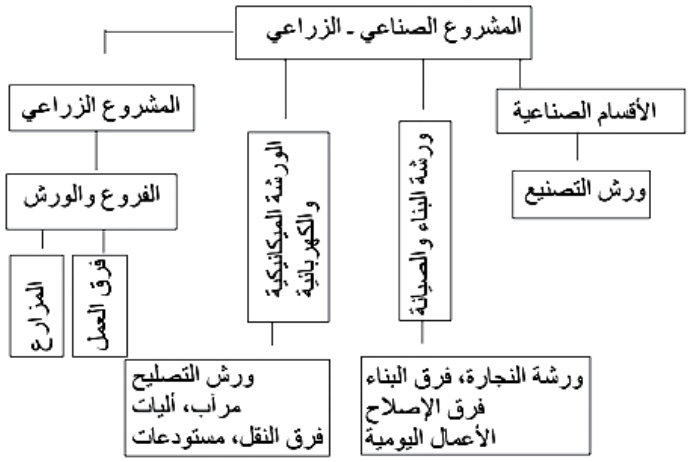

(الشكل رقم 1) مخطط الهيكل التنظيمي النموذجي للمشاريع الصناعية - الزراعية

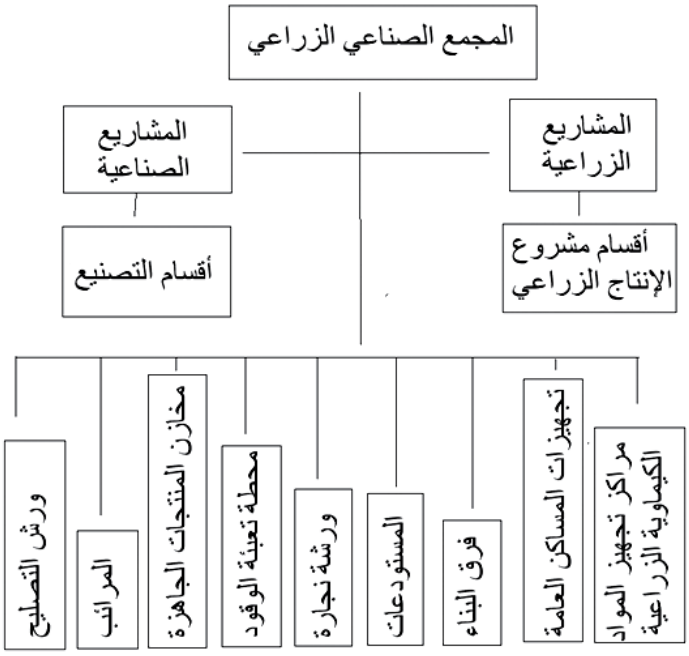

(الشكل رقم 2) الهيكل التنظيمي النموذجي للمجمع الصناعي- الزراعي

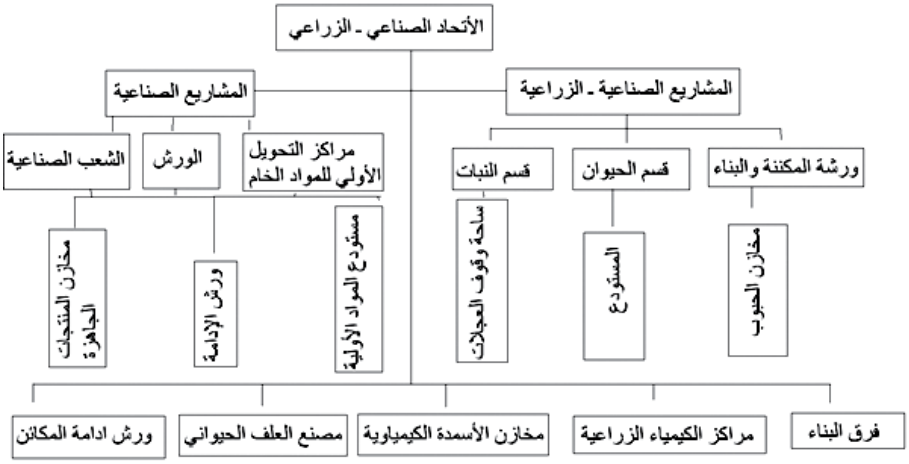

(الشكل رقم 3) الهيكل التنظيمي النموذجي للاتحاد الصناعي - الزراعي

الهوامش

1. تصريح للمدير العام للغابات ومكافحة التصحر، تموز 2022.
2. حميد العاني، أضواء على العملية الزراعية في العراق، بغداد 2015.
3. حنا بطاطو، الشيخ والفلاح في العراق، ترجمة صادق طريخم وسلمان الهلالي، بغداد، دار سطور، 2018.
4. المصدر نفسه.
5. عبد الرزاق زبير، محاضرات في الإصلاح الزراعي.
6. التقرير السنوي للجهاز المركزي للإحصاء ـ المكتب الإعلامي لوزارة التخطيط تموز 2022.
7. التقرير السنوي للجهاز المركزي للإحصاء 2020.
8. تصريح وكيل وزير الزراعة، أب 2022.
9. التقرير السياسي للمؤتمر الوطني الحادي عشر للحزب الشيوعي العراقي 2021.

طرق الري الحديثة
وأهميتها في ظروف العراق الراهنة

د. إبراهيم إسماعيل

مقدمــة

الماء هو أثمن مورد على وجه الأرض وهو أيضا أكبر مكوّن لمعظم الكائنات الحية، التي تعتمد عليه من أجل بقائها. وتمتص النباتات كمية كبيرة من الماء من التربة أو من الهواء عبر أجزائها الخضرية، لكي تتمكن من إنجاز العمليات الفسيولوجية والكيميائية الحيوية، اللازمة لنموها وتطورها ولإنتاج الثمار. وبديهي أن يكون للماء أهمية أساسية في ضمان الأمن الغذائي للبشرية، حيث تستهلك الزراعة 70 في المائة من إمدادات المياه العذبة في العالم و 95 في المائة من جميع عمليات سحب المياه الجوفية، خاصة في البلدان النامية. ويتم إنتاج 40 في المائة من السعرات الحرارية، والتي توفر الغذاء الى 3.4 مليار إنسان، من الأراضي المروية، فيما يمكن توفير الغذاء لمليار ونصف المليار من البشر، إذا ما حول 35 في المائة من الأراضي الديميّة الى مزارع مروية [1].

وبسبب تغير المناخ والنقص المتواصل في توفر المياه العذبة، إشتدت المنافسة على الموارد المائية المتاحة، لاسيما مع نمو سكان العالم (سيزدادون بنسبة 60 في المائة العام 2050) [2]، والذي يسبب طلباً متزايداً على الغذاء مما ستصبح زراعة أي أرض صالحة للزراعة على هذا الكوكب، وداخل حدود أي بلاد، أمراً ضرورياً، لا لإنتاج الغذاء لسكانها فقط بل وللبشرية جمعاء. وقد أجبر تفاقم المشكلة عالمياً على تسارع في البحث عن حلول وإبتكار تقنيات حديثة تساعد في إستثمار كل قطرة ماء في زيادة إنتاج المحاصيل إلى أقصى حد ممكن، وتقليل فقد المياه، وتحسين كفاءة إستخدامها، فتم دمج تقنيات الري الموفرة للمياه وإعتماد زراعة محاصيل صديقة للبيئة والمزج بين عمليات زراعية مختلفة كالري والتسميد

ومكافحة الأدغال [3]. ولتحقيق المزيد من النجاح في المستقبل، تتصاعد أهمية وجود سياسة إروائية علمية ومناسبة، تتبناها الحكومات، وإستثمارات كبيرة في مجال البحث العلمي والإبتكار التقني.

الأمن المائي في العراق

قامت الأمم المتحدة بتصنيف العراق كأحد البلدان الخمسة الأولى الأكثر تأثراً بتغير المناخ في جميع أنحاء العالم، وأشارت الى تزايد فقدانه للأراضي الصالحة للزراعة بسبب التملح وقلة هطول الأمطار وموجات الحر الطويلة والعواصف الترابية.

ومع ما يتميز به الإنتاج الزراعي في البلاد من ظروف معقدة، منها وجود مناخ حار وجاف صيفاً مع انخفاض هطول الأمطار شتاءً وربيعاً، وتربة رسوبية ذات خصوبة منخفضة، وارتفاع في معدلات تملح التربة، وتناقص مياه الرافدين الأساسيين بسبب تقليص الإطلاقات من دول المنبع، وغياب إسترتيجية توفير الأصناف المناسبة من البذور، القادرة على التكيف مع ظروف التربة والمناخ، وارتفاع معدلات الإصابة بأمراض الحيوان والآفات الزراعية، تشتد الحاجة الى حلول جذرية سريعة، تضمن الأمن الغذائي للعراقيين، خاصة مع وصول درجات الحرارة في الصيف إلى أكثر من 50 درجة مئوية في بعض مناطق البلاد، والإعتماد على الري في نطاق واسع لتحقيق إنتاج زراعي مناسب.

وتشتد الأهمية أيضاً بسبب فقد العراق مؤخراً لـ 90 في المائة من المياه التي كانت تتدفق اليه من ايران وحوالي 70 في المائة من المياه التي كانت تتدفق اليه من تركيا، ما خلق أزمة شديدة بالإمدادات المائية وترك تأثيرات سلبية قاسية على الإنتاجين الزراعي والحيواني، لاسيما حين ترافق هذا الحصار المائي مع جفاف استثنائي تعيشه البلاد هذا العام.

فبعد أن كانت حصة العراق من نهر دجلة تصل الى 20.5 مليار متر مكعب ومن نهر الفرات 30 مليار متر مكعب عام 1933، بلغت في العام الفائت 9.7 و 9.5 مليار متر مكعب فقط، ومن النهرين على التوالي [4] وقد دفع هذا الأمر الخطير بالبنك الدولي الى التحذير من أن الموارد المائية ستصل إلى 20 بالمائة من احتياجات العراق بحلول عام 2050 في حال استمر الوضع على ما هو عليه. وأشار البنك الى أن ذلك سيعني حرمان ثلث الأراضي المروية حاليا من حصتها المائية وتراجع الناتج المحلي بنسبة 4 بالمائة، إضافة الى تراجع الطلب على العمالة بنسبة لا تقل عن 12 بالمئة في الأنشطة الزراعية، وهجرة سبعة ملايين شخص، من العمل في الزراعة [5]. كما حذرت وزارة الموارد المائية العراقية، في تقرير صادم، أصدرته في ديسمبر 2021، من أن استمرار فقدان المياه من نهري دجلة والفرات، اللذين يشكلان العمود الفقري لإمدادات المياه العذبة، يمكن أن يحّول البلاد إلى أرض بلا أنهار بحلول عام 2040 [6].

الري والأمن المائي

الري هو تزويد التربة إصطناعياً بالماء لتلبية الحاجة المائية للمحاصيل، وذلك من أجل زيادة الإنتاج إلى أقصى حد. وعلى الرغم من التقدم التكنولوجي، واستخدام أنواع البذور الأكثر مقاومة للحرارة، والأصناف المعّدلة وراثيًا، فلا يزال الري، بكل أشكاله، وفي الوقت المناسب لإنجازه، العامل الأكثر أهمية في تحديد الإنتاجية الزراعية [7]. ولهذا يجب أن يتحقق الأمن المائي، كي تكون المياه متاحة بانتظام لنمو المحاصيل بشكل مطرد، ولإعادة نمو الغطاء النباتي للتربة والحماية من الصقيع في الشتاء، والحد من نمو الأدغال والتقليل من إنجراف وتعرية التربة.

وللري أنظمة متعددة، منها نوعان رئيسيان، يعتمدان على القوة الدافعة للنظام سواء كانت عبر قوة الجاذبية أم عبر قوة الضغط. ومهما كانت طريقة الري المتبعة، فإن الغرض منها يجب أن يضمن تحقيق إدارة أفضل للمياه وعائداً أعلى. وفي ما يأتي ملخص مكثف لطرق الري التقليدية والحديثة [8].

1. الري السطحي أو بقوة الجاذبية

يعتبر هذا النوع من الري، تقليدياً وقديماً جداً، حيث يعتمد على قدرة الماء على التحرك في جداول وقنوات صغيرة، فيتقدم في البداية ليغمر الحقل كله ثم يبدأ بالتسلل الى التربة، قبل أن يركد ليتسرب الى عمق الأرض، فيما يتبخر قسم منه بسبب حرارة الهواء وحركته. ولا يتطلب هذا النوع رأسمالاً كبيراً، لأنه يعمل بطاقة الجاذبية، كما يسهل التحكم به ولا يتطلب خبرة فنية عالية. وتسبب هذه الطريقة، وهي الأكثر إتباعاً في العراق، هدراً كبيراً في المياه، من خلال الترشيح العميق والجريان السطحي والتسلل، وتخريبا تدريجيا للتربة، التي تظل خاضعة لظروف لا هوائية، وزيادة في معدلات التبخر وبالتالي حدوث التملح. كما تؤثر هذه الطريقة سلباً على نمو النبات وتطوره بسبب تدني نسبة الأوكسجين في التربة.

2. الري بالضغط

يعتمد نظام الري هذا على تزويد النبات بالماء بقوة الضغط، حيث يجري استخدام التقنيات في تحديد الكمية المناسبة للمياه وأحياناً العناصر الغذائية التي يحتاجها النبات في نموه، وذلك على ضوء معرفة نوع النبات ونوع التربة وخصائص الحقل وأدنى تكلفة ممكنة مع أعلى معدل تشغيل. ومن أمثلة نظام الري بالضغط، نذكر ما يأتي:

1.2. نظام الري بالتنقيط

وهو نظام ري فعال يستخدم في زراعة المحاصيل وأشجار البستنة بكفاءة عالية. ويتم في هذا النظام توفير المياه مباشرة إلى التربة المحيطة بمنطقة الجذر، من خلال أنابيب التنقيط الموضوعة على سطح التربة، إذا كان التنقيط سطحياً، أو تحت التربة بعمق سينتمترات محدودة، إذا كان التنقيط تحت السطح. وبالمقارنة

مع طرق الري التقليدية، يمكن لنظام الري بالتنقيط زيادة كفاءة المياه للمزارع بنسبة تصل إلى 70 في المائة وتقليل تكاليف الطاقة الى النصف. وتتمثل قدرة هذا النظام على توفير المياه بترطيب جزء محدد من التربة (يصل الى 15 في المائة كحد أدنى و60 في المائة كحد أعلى)، وبالتالي لا يكون هناك جريان سطحي أو ترشيح أو تبخر كبير يسبب الهدر في الماء وتملح الأراضي [9].

لقد أدت كفاءة الري بالتنقيط ومزاياه من زيادة في الإنتاج وتحسين للنوعية ومنع للهدر في المياه، الى زيادة شعبيته بين مزارعي العالم، وخاصة في المناطق القاحلة وشبه القاحلة، التي تفتقد المياه العذبة. كما تم تطوير الري بالتنقيط بحيث أصبح ممكناً إستخدامه للتسميد فيما يطلق عليه التسميد بالتنقيط (Fert-gation) [10]. وأظهرت دراسة أجراها معهد فالنسيا الإسباني للبحوث الزراعية بأن إستخدام نصف كمية المياه، في نظام الري بالتنقيط ذي التدفق المنخفض أو المنخفض جداً، قد حقق مستويات اعلى في الإنتاج الزراعي، حين تم الري والتسميد في نظام واحد. كما وثقت العديد من الدراسات بأن التسميد بالتنقيط زاد من كفاءة استخدام السماد بنسبة 25 في المائة، وقلل نسبة إستخدام النيتروجين والبوتاسيوم بمعدل 20 في المائة، ورفع من معدل إمتصاص السماد غير العضوي الصلب من 10- 40 في المائة الى 90 في المائة [11].

وتعد فعالية وكفاءة نظام الري بالتنقيط عاملاً مهماً في نجاحه، حيث تنظم فوهات التنقيط، عددها ونسبة التدفق منها والضغط فيها، على ضوء نوع التربة والمياه وحاجة المحصول ووقت الري. وتؤدي المياه العكرة سواءً بسبب تركيبها الفيزياوي (جزيئات الرمل) أو البيولوجي (البكتيريا) أو الكيميائي (الأسمدة غير العضوية والأملاح) إلى انسداد الفوهات، مما يؤثر سلباً على إنتاجية الحقل. ولهذا ينبغي العمل على معالجة المياه وجعلها أقل تعكراً قبل ضخها في النظام. ويمكن سقي أي محصول بالري بالتنقيط، لكن هذا النظام أكثر انتشاراً في حقول الخضروات وبساتين الفاكهة.

ويمكن هنا أن نذكر العديد من إيجابيات نظام الري بالتنقيط، والذي يشكل أحد حلول مشكلة الجفاف في العراق. فهو أكثر أنظمة الري كفاءة في استخدام المياه، ووسيلة للتوفير في استخدام الأسمدة والمبيدات، وتقليل الأمراض الفطرية التي يسببها تعرض الأجزاء الخضرية للماء، ويفيد النمو على المدى القصير في ظروف الجفاف. كما يتميز النظام بمرونة عالية في التصميم بحيث يمكن تقليصه أو توسيعه حسب الحاجة. ومن المهم أيضاً الإشارة الى أنه نظام مكلف ويتطلب عمالة كبيرة نسبياً لإدارته وإدامته. هذا ويخضع نظام الري بالتنقيط لتطوير متواصل، كانت آخر أشكاله الري بالتنقيط ذي المعدل المتغير، حيث يتحكم الذكاء الاصطناعي بوقت ومكان تغيير

كمية المياه المستخدمة، إعتماداً على ظروف الرطوبة والمناخ وحاجة النبات الأنية للماء.

2.2. نظام الري بالرش

يشمل الري بالرش سقي النباتات من خلال عملية تحاكي هطول الأمطار الطبيعي، حيث يتم رش الماء في الهواء من خلال سلسلة من الأنابيب لتشكيل قطرات قبل أن تهبط فوق الأوراق والأجزاء الخضرية الأخرى. ويتم رش الماء من خلال رشاشات أو قاذفات ضغط عالي. وهناك أنواع مختلفة من أنظمة الري بالرش، كنظام المحور المركزي ونظام المسدس المطري ونظام الأنابيب المثقبة ونظام الرأس الدوار. ويتكون كل نظام منها من وحدة ضخ وخط رئيسي وآخر جانبي ومرشات.

ويعد الري بالرش نظاماً قابلاً للتكيّف مع معظم أنواع الترب، ولكنه مفضل للتربة الرملية ذات القدرة المنخفضة على الاحتفاظ بالمياه. ويسمح هذا النظام بالاستخدام الفعال للمياه ويقلل من العمالة الإضافية اللازمة لاستخدام الأسمدة ومبيدات الآفات والأعشاب، ويعتبر أكثر كفاءة في ري النباتات ذات التركيز العالي لكل وحدة مساحة من الأرض مثل الحبوب والخضراوات. ويمكن أن يستمر لفترة أطول من الري بالتنقيط. ومن عيوبه التكلفة الأولية العالية، وتكلفة الطاقة المستخدمة وتأثره بالرياح وتسببه بشيء من التبخر، على عكس الري بالتنقيط [12].

3.2. ري النسيج النموذجي تحت السطح

يحتوي هذا النظام على طبقة أساسية غير منفذة (عادة ما تكون مصنوعة من البولي إيثيلين)، وخط بالتنقيط يمتد على طول تلك الطبقة، وطبقة من التكسية الأرضية أعلى خط التنقيط، وطبقة ضيقة غير منفذة أعلى التكسية الأرضية. وتخلق الطبقة غير المنفذة منسوباً مائياً إصطناعياً فعالاً. ومن مزايا هذا النظام عدم التأثر بالطقس والرياح، وتوفير المياه بنسبة 50 الى 70 في المائة قياساً بأنظمة السقي العلوية، وإنخفاض تكاليف الطاقة، وتقليل التبخر، ومنع نمو الأدغال بسبب عدم وجود ماء على سطح التربة.

نظام تقييم الري

وهو طريقة لتحديد كفاءة وفعالية استخدام المياه، وتأثيرها على نمو وإنتاجية وجودة المحاصيل. وقد شمل هذا التقييم، في الآونة الأخيرة، إستخدام الإنسان الآلي وأجهزة التحكم الذكية والاستشعار عن بعد وأجهزة تقدير رطوبة التربة، مع الأخذ بالإعتبار أن فعالية هذه التقنيات تعتمد على تصميم نظام الري.

وتستخدم أنظمة الري الذكية أجهزة لقياس ظروف التربة في أوقات محددة، عبر الأقمار الصناعية أو مستشعرات مجسات التربة، والتي يتم دمجها بعد ذلك مع تحليل البيانات وتوقعات الطقس لتنظيم كمية المياه التي يتم ايصالها للمحاصيل. وعموماً، تتيح هذه التقنية التحكم الكامل في جرعات المياه وتوفير نظرة ثاقبة

على الحالة الصحية للمحاصيل، بحيث تقلل من 30 الى 50 في المائة من الحاجة للمياه وتزيد الغلة بنسبة الضعف الى ثلاثة أضعاف مقارنة بالحقول التي لا تحتوي على أنظمة الري الذكية. ويجب عند تصميم أنظمة الري، حساب النقاط التالية:

• **مصدر المياه**

مصدر المياه هو عامل حاسم في تصميم نظام ري فعال، وهناك ثلاثة مصادر رئيسية للمياه وهي المياه الجوفية والمياه السطحية ومياه الأمطار. كما يمكن جمع مياه الأمطار من الغلاف الجوي واستخدامها في الري.

• **الخصائص الميدانية**

وتشمل خصائص الحقل مثل حجم الحقل والتضاريس وأنواع التربة، وهي عوامل محددة في اختيار نظام الري وتصميمه ونوع المحصول ونمط الزراعة. وفيما يحدد حجم الحقل وتضاريس الأرض كمية الضغط المطلوب إستخدامها لإرواء الحقل، تشمل خصائص التربة قدرتها على الاحتفاظ بالمياه، والتي تعتمد على تركيبها ونسجتها ومحتواها العضوي.

• **جدولة الري**

تختلف النباتات في إحتياجاتها المائية في مراحل نموها المختلفة، ولهذا يجب أن تتم جدولة للري مناسبة لذلك. وتعتمد الجدولة على قياس رطوبة التربة ومستويات التبخر (من التربة ومن النبات نفسه) وتحديد حاجة النبات للماء في كل مرحلة من مراحل نموه، على ضوء المتغيرات المورفولوجية والفسيولوجية الحاصلة فيه (كتجعد الأوراق وتوقف النمو وسقوط الأزهار وتعثر عقد الثمار وتغيير صبغة الكلوروفيل) [13].

• **تغطية التربة**

تتم تغطية التربة لتحسين ظروفها (كالمحتوى العضوي والميكروبي) والمحافظة على رطوبتها وتقليل درجة حرارتها، وكذلك لحماية الجذور وتقليل إستخدام مياه الري، ومكافحة الأدغال وبعض الآفات الحشرية. وتستخدم في التغطية مواد عديدة كنشارة الخشب وقلف الأشجار وقش الأرز والتبن ونفايات قصب السكر وبعض المواد البلاستيكية [14].

أبرز النصائح للتقليل من إستخدام المياه في العراق

1. إعتماد الرى بالتنقيط

تقوم أنظمة الري بالتنقيط بتوصيل المياه مباشرة إلى جذور النبات، مما يقلل التبخر الذي يحدث مع أنظمة الري بالرش. ويمكن استخدام الموقتات لجدولة الري أثناء أوقات اليوم التي تشهد معدلات أدنى للحرارة، مما يقلل من فقد الماء، حيث يوفر الري بالتنقيط المثبت بشكل صحيح ما يصل إلى 80 في المائة من المياه أكثر من الري التقليدي، كما يساهم في زيادة غلة المحاصيل.

2. التقاط المياه وتخزينها

يمكن أن تعتمد المزارع الصغيرة على المياه الجوفية، أو إقامة برك خاصة محمية من أشعة الشمس لتجميع وتخزين مياه الأمطار على مدار السنة.

3. جدولة الري

الإدارة الذكية للمياه لا تتعلق فقط بكيفية توصيل المياه، ولكن أيضاً، في تجنب نقص الري أو الإفراط في ري المحصول، أي في تحديد أوقات الري وكمية المياه الواجب إستخدامها وعدد الريات. ولهذا على المزارعين ودوائر الإرشاد الزراعي مراقبة توقعات الطقس بعناية، وقياس رطوبة التربة والنباتات وبالتالي تكييف جدول الري الخاص بهم مع الظروف السائدة. كما يمكن الري ليلاً للتقليل من التبخر أثناء السقي مما يسمح للمياه بالتسرب إلى التربة وتجديد منسوب المياه الجوفية.

4. زراعة المحاصيل التي تتحمل الجفاف

تعد زراعة المحاصيل المناسبة لمناخ المنطقة طريقة أخرى يستثمر المزارعون فيها كل قطرة ماء في إنتاج محصول أكثر. وعادة تكون المحاصيل المستوطنة الأكثر تحملاً للجفاف وشحة المياه. كما أن هناك لكل نوع نبات عشرات وأحياناً مئات الأصناف التي تم تطوير خصائصها الجينية بغية تقليل احتياجاتها من المياه، ويمكن أن نضرب أمثلة على ذلك في الزيتون والخيار والفاصوليا البيضاء والأوراش.

5. الزراعة ديماً

لا يقوم المزارع هنا بالري، بل يعتمد على ما تجود به السماء وعلى رطوبة التربة بشكل أساسي. ولضمان ذلك لا بد من معرفة ظروف الطقس في منطقة الإنتاج المحددة، عبر متابعتها لعشر سنوات مثلاً، وإتباع طرق حراثة خاصة ومتابعة المناخ المحلي دورياً. وعموما لا تحقق هذه الزراعة ذات الغلة التي تحققها الأراضي المروية.

6. الرعي

رعي المزارع بعد الحصاد عبر نقل الماشية بين الحقول، يساعد في إعادة نمو الغطاء النباتي، وزيادة امتصاص الحقول للمياه والتقليل من جريانها، مما يجعلها أكثر مقاومة للجفاف، ويزيد المواد العضوية في التربة.

7. السماد والنشارة

من المعروف أن السماد والمواد العضوية المتحللة المستخدمة كسماد، تزيد خصوبة التربة وتحسن من تركيبها ونسجتها وبالتالي قدرتها على الاحتفاظ بالمياه. تستخدم بعض المزارع في الدول المتقدمة مواداً لتغطية التربة، كما ذكرنا سابقاً، وذلك للحفاظ على الرطوبة وتقليل نمو الأدغال المستهلكة للماء وتقليل التبخر، علماً بأن هذه المواد ستتحلل تدريجياً وتتحول الى سماد، يواصل تحسين قدرة التربة على الاحتفاظ بالمياه.

8. الغطاء الخضري

تقوم بعض المزارع بإنبات غطاء خضري في جميع المساحات الخالية من المحصول. وتستخدم عادة النباتات التي لا تحتاج الى مياه والقادرة على تثبيت النتروجين في التربة. وقد وجدت دراسة أمريكية

عام 2012 بأن هذه المزارع تحقق زيادة في الإنتاج تصل الى 11 - 14 في المائة خلال سنوات الجفاف. وفيما تساعد هذه الطريقة على زيادة خصوبة التربة ومحتواها من المواد العضوية، تمنع تآكلها والضغط عليها وبالتالي تُحسن من قدرتها على الاحتفاظ بالمياه [15].

9. الزراعة العضوية

أكدت دراسة أجراها معهد رودال في الولايات المتحدة، واستمرت لثلاثين سنة، على أن الزراعة العضوية قد زادت في سنوات الجفاف من منتوج الذرة بنسبة 30 في المائة قياساً بالزراعة التقليدية. كما تم تقليل تسمم المياه الجوفية بسبب إستخدام المبيدات الكيمياوية، وحسّنت من قدرة التربة على الاحتفاظ بالرطوبة، بسبب كونها تربة صحية غنية بالمواد العضوية والأحياء الدقيقة، تعمل كحاوية إسفنجية للماء. علماً بأن ذات التجربة قد بينت بأن منسوب المياه الجوفية في المنطقة قد زاد بمعدل 20 في المائة.

استخدام الذكاء الاصطناعي AI

في العقود التي سبقت اختراع تقنية الذكاء الإصطناعي في الري، إعتاد المزارعون على الاعتماد إلى حد كبير على خبرتهم لتقدير الظروف والاحتياجات المائية للمحاصيل. الا أن الذكاء الإصطناعي مكّن الشركات من إنتاج نظام ري رقمي، حيث يمكن للمزارعين، وإعتماداً على عدد كبير من أجهزة الاستشعار التي تراقب المحصول، معرفة كمية المياه اللازمة للري.

تقوم هذه الأجهزة بمراقبة مستويات الرطوبة وأشعة الشمس وسرعة الرياح بالإضافة إلى كمية المياه التي يتم ضخها في الحقل. كما تستخدم أجهزة حديثة لقياس كمية النتح (الماء المتبخر من الجزء الخضري من النبات)، وبالتالي التعرف على مستوى الضمأ الذي يعاني منه المحصول في ذلك اليوم، بمعنى مستوى التوتر (stress) في النبات [16].

ورغم أن تقنيات الري اعتمادا على الذكاء الاصطناعي تكون مكلفة أحياناً، فإن زيادة الإنتاج الذي تحققه والتصرف العلمي بكميات المياه (لاسيما في ظروف التغيير المناخي والجفاف) والتحسن الكبير في الجودة، تحقق زيادة كبيرة في المردود المالي مما يمكن معه تغطية الفرق في التكاليف قياساً بالري التقليدي [17].

في إسبانيا وفرنسا وتركيا، بدأت الأقمار الصناعية والطائرات بدون طيار (UAV) في مساعدة المزارعين على زيادة وتنظيم إنتاجية حقولهم، وذلك كجزء من تقنية الذكاء الإصطناعي، والتي يمكنها أن تتنبأ بكمية الإنتاج النهائي وموعد القطاف الحصاد، وتساعد المزارعين على تحديد خطط التسويق والحفظ والتخزين، مما يحّسن من مداخيلهم ويقلل معدلات التلف في المحصول.

خاتمة

لقد إختفت الفاكهة العراقية منذ فترة طويلة من على موائد العوائل، بسبب ما تشهده أشهر الصيف، وهو فترة إنتاج معظم أصنافها، من موجات حر شديدة وجفاف، في ظل الإبقاء على طرق الري التقليدية، وحلت محلها الفاكهة المستوردة، التي يعرف كل العراقيين الفرق بين نوعيتها ونوعية فاكهتهم التي وأدها الضمأ. إن إنقاذ الزراعة العراقية وتحقيق اكتفاء ذاتي كامل أو شبه كامل يستوجب وجود استثمارات كبيرة للارتقاء بأنظمة الري إلى مستوى نافع، مع إيلاء اهتمام خاص لنوعية المزروعات، ولإتباع أساليب الزراعة الحديثة.

إن الأوضاع الخطرة التي يعيشها العراق على صعيد الأمن الغذائي والمائي، والتي حذرت منها إستراتيجية موارد المياه والأراضي التي اعتمدتها وزارة الري العراقية عام 2015 [18]، تتطلب وضع إستراتيجية عاجلة، لا لانتزاع حقوق البلد من المياه من دول المنبع وحسب الشرائع الدولية، بل وأيضاً تغيير وتحديث أنظمة الري وتقليص الهدر الحاصل في المياه، فهناك أنظمة ري تتبع في البلاد منذ عصر السومريين، أدت الى زيادة تملح التربة، ما أخرج 300 ألف هكتار من الأراضي الزراعية من الإنتاج [19]. كما أدت الى تحول نصف اراضي العراق الى ظروف المناخ شبه الصحراوية حيث تتأثر 60 مليون دونم سنوياً بالرياح والرمال المتحركة [20] وحيث يتقلص الغطاء النباتي وتتحطم الطبقة الغذائية للتربة والواقعة على عمق 30 سم من السطح.

ولهذا بات ضرورياً للغاية، تبنى إستراتيجية مبنية على دراسات توضح مستوى النتح التبخر Evapotranspiration (ET)، والحرارة على ضوء تغير المناخ عالمياً، وتحدد الحاجة من مياه الري (Irrigation water requirement، IWR)، وتوازن المياه في حوض نهري دجلة والفرات على ضوء المتغيرات المناخية (كارتفاع حرارة الأرض العراقية بمعدلات سريعة تقارب 1.5 درجة مئوية)، والتي زادت من معدلات التبخر لتتجاوز 8 مليار متر مكعب من المياه سنوياً. كما لابد من تطوير الريف وتدريب المزارعين على طرق الري الحديثة واستخدام طرق الزراعة العصرية ووضع سياسات زراعية مستقرة وتطوير البحث العلمي والإستفادة من نتائجه.

الهوامش

1. Lorenzo Rosa، 2022. Adapting agriculture to climate change via sustainable irrigation: biophysical potentials and feedbacks. Environ. Res. Lett. 17. 063008.
2. Busschaert، L.، de Roos، Sh.، Thiery، W.، Raes، D. and De Lannoy، G. 2022. Net irrigation requirement under different climate scenarios using AquaCrop over Europé. Hydrol. Earth Syst. Sci. 26. pp. 3731–3752.
3. https://agri.com.sa/blog/5-irrigation-solutions-for-industrial-farming-in-hot-climates/
4. www.mirs.co

5. تقرير للبنك الدولي صادر في 25 نوفمبر 2021.
6. تصريح وزير الموارد المائية مهدي الحمداني، ديسمبر 2021.
7. Tuong، TP.، Bouman، BAM.، Mortimer، M. 2005. More rice، less water - integrated approaches for increasing water productivity in irrigated rice-based systems in Asia. Plant Production Science. 8(3) pp.231-241. DOI: 10.1626/pps.8.231
8. Bouwman، BAM.، Hengsdijk، H.، Hardy، B.، Bindraban، PS.، Tuong، TP.، Ladha، JK.2002. Water-wise rice production. Philippines: International Rice Research Institute; 2002. pp. 356
9. Fanish، SA.، Muthukrishnan، P.، Santhi، P. 2011. Effect drip fertigation on field crops. Agricultural Review. 32(1) pp.14-25
10. Tahir، I.، Johansson، E. and Olsson، M. 2008. Improving the Productivity، Quality، and Storability of 'Katja' Apple by Better Orchard Management Procedures. HortScince 43(3)،725–729.
11. Singh، AK. And Singh، RB. 1999. Effect of mulches on nutrient uptake of Albiziaprocer-aand subsequent nutrient enrichment of coal mine overburden. Journal of Tropical Science. 11.345-355
12. https://agri.com.sa/blog/5-irrigation-solutions-for-industrial-farming-in-hot-climates/
13. Tahir، I. and Gusstavson، K-E. 2010. Improving Quality and Storability of Apples by a Combination of Aluminum Reflective Mulch، Summer Pruning and Controlled Nitrogen Fertilization، Acta Hort. 877.
14. Tahir، H.، Svenson، S. and Hansson، D. 2015. Floor Management Systems in an Organic Apple Orchard Affect Fruit Quality and Storage Life. HortScince 50(2). pp.1–8.
15. http://driptips.visual-impact.net/10-ways-to-save-water/
16. https://cuesa.org/article/10-ways-farmers-are-saving-water.
17. Dukes MD. Water conservation potential of landscape irrigation smart controllers. Transactions of the ASABE. 2012;55(2):563-569.
18. Talaviya، T.، DharaShah، Patel، N.، Yagnik، Y. and MananShah. 2020. Implementation of artificial intelligence in agriculture for optimisation of irrigation and application of pesticides and herbicides. Artificial Intelligence in Agriculture، V.4، 58-73.
19. حسن الجنابي 2015. الموارد المائية في العراق، المشكلات والحلول. ورقة دراسية موجزة.
20. المنظمة العربية للتنمية الزراعية. توثيق السياسات الزراعية في عقد السبعينات في العراق بغداد كانون الثاني ص 4111.

الماركسية والعولمة الرأسمالية

ماجد لفته العبيدي

ماجد لفتة العبيدي من مواليد مدينة الناصرية، العراق، دبلوم في العلوم السياسية - أكاديمية العلوم السياسية في جمهورية بلغاريا. كاتب وصحفي له العديد من الكتابات في الصحف والمجلات العراقية والعربية والمواقع الإلكترونية.

تعتبر موضوعة العولمة واحدة من اهم المواضيع في الوقت الراهن لما لها من أهمية بالغة بحكم تأثيراتها السياسية والاجتماعية الاقتصادية والثقافية والبيئية. ولغرض الاحاطة بالموضوعة لابد من تفكيكها وتوزيعها على عدة محاور بغية البحث والتقصي والتوصل إلى تصورات واستنتاجات والخروج بأحكام ولا بد من الاشارة الى ان هذه الموضوعة ما زالت محط نقاش وبحث ودراسة من قبل العديد من المفكرين والباحثين. ومن اهم محاور هذه الدراسة هي:

أولا: مفهوم وتاريخ العولمة

يرجع العديد من الباحثين فكرة العولمة او الكوكبة إلى الفيلسوف الالماني أيمانويل كانت في القرن الثامن عشر (1724 - 1804) والذي تحدث اول مرة عن فكرة المواطنة الحرة العالمية التي تبنى على أساس مجتمع بشري يسهم في ضبط الدولة وتمردها ويجمعهم في اطر اخلاقية كونية موحدة. وجاءت هذه الافكار كبديل لواقع سيطرة الثقافة الدينية للكنسية الكاثوليكية العتيقة، والسعي إلى تجاوز سيطرتها عالميا عبر الانفتاح على أديان وثقافات الشعوب الاخرى.

وكانت هذه الافكار هي الاساس الذي اعتمده سان سيمون (1760 - 1825) في تصوراته اللاحقة حول عقلنة الصراع الدائر بين الطبقة العاملة وحلفائها من جانب والبرجوازية وحلفائها من الجانب الاخر وتنظيم المجتمع عبر إنشاء حكومة عالم المستقبل، وقد أدت التحولات الاقتصادية الاجتماعية إلى احتدام الصراع الطبقي في ظل الرأسمالية الصناعية الناشئة، وتعتبر افكار سان سيمون امتدادا طبيعيا لأفكار وثقافة عصر الانوار لجان جاك روسو صاحب كتاب العقد الاجتماعي (1712 - 1788) ودورسان بيير والتي اعتبرت الصيرورة التاريخية لتطور المجتمع

البشري عبارة عن تطور ارتقائي من البربرية مرورا بالبداوة وانتهاء بالحضارة لجميع شعوب العالم.

مثلت تلك الافكار والآراء وفقا لتسلسلها التاريخي واختلاف ظروفها الزمكانية اساسا لتصورات كارل ماركس وأوغست كونت في القرن التاسع عشر، على الرغم من اختلافهما الفكري الشاسع، فماركس طرح الاممية البروليتارية كأساس للتعاضد والتضامن بين الطبقة العاملة وحلفائها في الصراع الدائر بين العمل ورأس المال على الصعيد العالمي والذي ينتهي بانتصار الثورة العالمية للبروليتارية التي تؤدي إلى اضمحلال الدولة القومية وبناء المجتمع الشيوعي.

اما اوغست كونت فبنى أفكاره على أساس الفلسفة الوضعية الداعية إلى ثقافة جديدة لتأسيس عالم جديد مبني على الوئام والتعاقد والعلم لكل الاديان والقوميات من مختلف شعوب العالم. وهي دعوة أخلاقية طوباوية ليس لها اساس في واقع الصراع القائم بالمجتمعات. وفي المحصلة النهائية ساهمت هذه الدعوات الاخلاقية بالتأسيس لأفكار الليبرالية والليبرالية الجديدة التي شكلت الحاضنة الفكرية للعولمة ولم تخرج العولمة عن اخلاقية النظام الرأسمالي التقليدية من خلال ممارساتها الوحشية اللاأخلاقية واستغلالها واضطهادها واستلابها وإملاقها للأفراد والمجتمعات والشعوب في ارجاء المعمورة، بل جاءت استمرارا لها وفاقتها بالكثير من الممارسات الوحشية. يتفق بعض الباحثين - على اختلاف افكارهم - على تعريف العولمة على انها نظام اقتصادي عالمي جديد يقوم على أيديولوجية ومفاهيم الليبرالية الجديدة، وهي في حالة صيرورة كأي ظاهرة اجتماعية لا تسير في خط مستقيم. ويصف الدكتور اسماعيل صبري عبدالله الكوكبة (العولمة) هي (التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك، دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو انتماء الى وطن محدد أو دولة معينة دون حاجة الى إجراءات حكومية)[1].

ويقول الباحث العراقي فالح عبد الجبار (ترسخ مفهوم العولمة في حقل الاقتصاد والعلاقات الدولية، ليخرج بعدها، منذ منتصف الثمانينات، إلى حقول العلوم الانسانية الاخرى (وبخاصة علم الاجتماع) التي تعيد الان تفحّص مواقعها) [2].

ويرى المفكر د. صادق جلال العظم ان العولمة هي نقطة الانتقال العالمية من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والتجارة والتداول إلى عالمية دائرة الانتاج وإعادة الانتاج ذاتها. وكذلك ادخلت تنظيمات جديدة في البحث العلمي ودخله وريع الابتكارات ودخلها من العائدات.

ويذهب العديد من الباحثين الماركسيين إلى توصيف العولمة باعتبارها كل العمليات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تجري خارج اطار تحكم الدولة البرجوازية القومية، وفي تصوري ان العولمة كظاهرة اجتماعية لا يمكن قراءتها خارج اطار تطور التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية أو بمعزل عنها، وقد تجاوزت العولمة الرأسمالية بممارستها الوحشية الاحلام الطوباوية للمفكرين البرجوازيين إيمانويل كانت، اوغست كونت.

ان هذا القراءة لتأثير العولمة على وظائف الدولة القومية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ستكون مدخلا للانتقال للبحث عن التأثيرات والإشكاليات التي تسببها سياسة العولمة للدولة القومية (الدولة الوطنية) حيث أصبح العديد من الدول عبارة عن دول فاشلة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

ثانيا: الدولة القومية واتجاهات العولمة

تتحكم الدولة منذ نشوئها في رقعة جغرافية محدودة لتنظم العلاقات الاجتماعية في مجتمع محدد، وقد نشأت الدولة القومية (الوطنية) في رحم مرحلة الرأسمالية وتطورت ايضا مع تطور الرأسمالية والتي مرت بثلاث مراحل حسب ما يذهب إليه الدكتور إسماعيل صبري عبدالله: الاولى: الرأسمالية التجارية - تميزت هذه المرحلة بالاكتشافات الجغرافية للبحث عن الموارد الاولية الطبيعية وكسر احتكار الإمبراطورية العثمانية للأسواق وساهمت هذه المرحلة في تحقيق التراكم الاولي لرأس المال من خلال نهب ثروات الشعوب والقارات المكتشفة وعلى التوازي مع تراكم رأس المال ظهر تراكم معرفي ابتدأ بالثورة الثقافية في عصر النهضة، الذي شمل جميع ميادين المعرفة وكان في مقدمتها الاصلاح الديني والذي غيّر مفاهيم وقيم الكنيسة حول الرأسمال، حيث جرى تمجيد الادخار، ورفع قيمة العمل، والنظر الى الثروة على أنها نعمة الخالق.

أما المرحلة الثانية: الرأسمالية الصناعية الناشئة - وهي الانتقال الى الالة البخارية وتعاظم التراكم الاولي للرأسمال والذي ساهم في الثورة الصناعية والبحث عن الاسواق لتصريف البضائع والحصول على المواد الاولية، والذي دشن فيه عصر الاستعمار والسيطرة على الاسواق العالمية بالقوة لبيع الفائض من الانتاج الصناعي والحصول على المواد الخام الاولية وقوة العمل الرخيصة وتتميز هذه المرحلة في تعاظم واشتداد الصراعات الاجتماعية وتعمق التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الذي ادى إلى قيام العديد من الثورات الاجتماعية.

المرحلة الثالثة: مرحلة الامبريالية ويؤكد أسماعيل صبري عبدالله ان المفكر جون هوبسون اول من كتب عنها في عام 1913 [3]، وتناولها لينين في كتابه "الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية" والذي كتبه في ظروفه الزمكانية والذي لم تصمد أحكامه حيث استطاعت الرأسمالية عبر التكيف الهيكلي ان تتجاوز أزماتها الدورية، واستطاعت الشركات الاحتكارية بحماية الدولة وتدخلها بالسيطرة على الثروات المادية والبشرية للشعوب، وتميزت هذه المرحلة في إشعال الحروب الاقليمية والعالمية للسيطرة على الاسواق وتقاسم النفوذ بين الدول الرأسمالية وفق امكانيتها ودورها، وتميزت هذه المرحلة ايضا بالتنافس بين الشركات الاحتكارية والدولة الرأسمالية ومركزة رأس المال المالي بيد الاحتكارات متعددة الجنسيات ومؤسساتها المصرفية والمالية، وعبر تراكم راس المال الصناعي والمصرفي الذي ولد رأس المال التمويلي والذي كانت حاضنته جهاز الدولة الرأسمالية

ليتجاوزها ويتمرد عليها ويصبح قوة هائلة في الاسواق المالية ومنافسا قويا للدولة وهذه العملية ساهمت في التأسيس لما أطلق عليه من بعض الباحثين والمفكرين المرحلة الرابعة من التطور الرأسمالي العالمي والتي يختلف العديد من الباحثين حول تسميتها منهم من يطلق عليها مرحلة الرأسمالية المعولمة والبعض الاخر يطلق عليها الرأسمالية ما بعد الامبريالية، فعلى سبيل المثال لا الحصر على شدة المنافسة بين الشركات المتعددة الجنسيات والدولة الرأسمالية في عام 1992 ضارب جورج سوروس ضد الجنيه الاسترليني البريطاني ليكسب ما يزيد على مليار دولار في غضون اسبوع، ولم يستطع البنك المركزي البريطاني توفير مصادر مالية لمواجهة هذه المضاربة. وفي عام 1999 امتلك 1 % من العائلات الامريكية الغنية 48 % من أجمالي الثروة في الولايات المتحدة الامريكية، ويتحكم في الاقتصاد العالمي ما يقارب 500 شركة متعددة الجنسيات، منها 428 شركة مقرها في الدول السبع الرأسمالية الكبار، يوجد 153 شركة في الولايات المتحدة الامريكية و 100 شركة في الاتحاد الاوربي و141 شركة في اليابان [4].

خلاصة القول إن العولمة هي سياسة السوق الحر المفتوح المبنية على وحشية التنافس. وقد حطمت هذه السياسة الدولة الكينزية وفتحت باب المنافسة غير المتوازنة على مصراعيه وتجاوزت حدود سيطرة الدولة الرأسمالية. ويصف الكاتب عبد الحي زلوم العولمة بقوة التدمير الشامل (ان العالم اليوم يمتلك وسائل تدمير ذات قوة هائلة توازي القوة النووية تتمثل في القوة الرعناء للأموال التي تستطيع ان تأتي بدمار شامل مماثل وسريع) [5].

ولتأكيد على ماذهب اليه السيد عبد الحي يحيى زلوم يمكن ان نذكر ازمة سوق المناخ في الخليج، وأزمة الاسواق المالية في جنوب شرق اسيا (النمور الورقية) وازمة المكسيك وغيرها من الازمات العالمية التي حطمت القدرة الاقتصادية للدول وحملتها مديونية لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي تقدر بمئات مليارات الدولارات الامريكية.

ويرى المفكر سمير امين أن لا مستقبل للعولمة وأن محاولة إخضاع النظام الاجتماعي محليا وعالميا لمقتضيات قوانين السوق، إنما هو مشروع وهمي لن يخلق نظاما عالميا جديدا، بل فوضى متفاقمة فقط، بيد أن السلطات الحاكمة لا تنشغل الا بهموم إدارة هذه الازمة، لا بالبحث عن حلها.

ان العولمة غيّرت اسس النظام السياسي الحقوقي العالمي، والذي كان يعتمد على حقوق الدولة القومية وسيادتها على ثرواتها المادية والبشرية وإدارة اقتصاديتها من قبل نخبها الحاكمة، لتصبح سيطرة ادارة الشركات ما فوق القومية والمتعددة الجنسية عبر اذرعها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية هي المسيطرة على الثروات الوطنية والقومية للشعوب من خلال المضاربات المالية وسرعة حركة انتقال رؤوس الاموال في الاسواق العالمية التي تجاوزت سيادة واستقلال الدول.

ثالثا: مفهوم السيادة والاستقلال في ظل العولمة

لقد نشأ مفهوم السيادة في العصر الحديث مع نشوء و قيام الدولة القومية التي نشأت على أنقاض النظام الإقطاعي، وقد أدى ضعف السلطة البابوية إلى إبراز فكرة السيادة وإعطائها مفهوما جديدا ، حيث تعد السيادة من الاركان الأساسية التي بني عليها القانون الدولي المعاصر، وقد لقي مفهوم السيادة اهتماما من فقهاء القانون والباحثين والمهتمين في علم الاجتماع والسياسة على حد سواء ، وكان اول المهتمين بهذا المفهوم هو المفكر الفرنسي جان بودان سنة 1576م والذي تناوله في كتبه الستة عن الجمهورية ، وقد كانت فكرة السيادة موجودة بمستوياتها المختلفة منذ ظهور التجمعات البشرية الأولى، وجرى العمل بها من خلال علاقة المواطن بالسلطة وحصر السلطات وامتدادها على الرقعة الجغرافية المحدد دون تحديد ذلك بقوانين وجرى تقييد تلك العلاقات بالقوانين الطبيعية و والأديان والشرائع السماوية التي اعطت لرجل الدين والكنيسة السلطة المطلقة والسيادة المطلقة والتي جمعها الحاكم والملك في ما بعد في سلطة مطلقة واحدة.

ادى التطور الاقتصادي الاجتماعي في اوربا بداية القرن السادس عشر الى القضاء على بقايا النظام الاقطاعي والتأسيس لنظام رأسمالي جديد كانت السيادة ميزته الاساسية والتي شكلت جزءا من شخصية الدولة القومية. وأخذت فكرة السيادة المطلقة للحاكم والملك في الزوال لتحل محلها افكار المفكر جان بودان حول السيادة المقيدة التي تناولها في كتبه الستة حول الجمهورية، ان الانتقال من سلطة السيادة المطلقة الى السيادة المقيدة لم يغير من مفهوم السيادة باعتبارها السلطة العليا التي تسمو على الأفراد وتعلو على القانون.

وفي القرن الثامن عشر طور المفكر جان جاك روسو مفهوم السيادة في كتابه المعروف "العقد الاجتماعي"، واطلق عليها تسمية الإرادة العامة للشعب، وساهم في فك ارتباط السيادة السابق بالمفهوم الديني واللاهوتي ليتحول الى الارتباط بالمفهوم الاجتماعي المرتبط بالعلاقة بين الطبقات الاجتماعية؛ حيث يصف المفكر جان جاك روسو في كتابه العقد الاجتماعي السيادة قائلا (إن العقد الاجتماعي يعطي المجتمع السياسي سلطة مطلقة على كل أعضائه وهذه السلطة المطلقة التي تتولاها إرادة عامة تحمل اسم السيادة، والسيادة التي ليست سوى ممارسة الإرادة العامة لا يمكن أبدا التصرف فيها، وصاحب السيادة الذي هو كائن جماعي لا يمكن لأحد أن يمثله أو ينوب عنه سوى نفسه).

وكانت مواقف ماركس وأنجلز من أحداث عام 1848 في النمسا والمجر وكذلك مواقفهما المعروفة من المشكلة الايرلندية والحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على المكسيك واستيلائها على مقاطعات غنية وضمها إلى أراضيها، والموقف من الاحتلال الإنكليزي للهند ومن ثم موقفهما من استعمار الجزائر ومصر، كل هذه المواقف المؤيدة لحق تقرير المصير وسيادة الشعوب لا تخفى على المتابع والدارس لتاريخ الفكر السياسي الاشتراكي .

وقد جرى تأكيد موقفهما أيضا في البيان

الصادر عن الكونفرنس العالمي للأحزاب والنقابات الاشتراكية العمالية المنعقد في لندن عام 1896 من الاقرار بالحق الكامل لجميع الأمم في تقرير مصيرها، وإن حق تقرير المصير من وجهة نظر ماركس وأنجلز، يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار عملية التطور التاريخي للمجتمعات المعنية.

وعلى ضوء التصورات الماركسية حول تقرير المصير والاستقلال وضع البلاشفة في برنامجهم الحزبي للمؤتمر الثاني عام 1903 فقرة حول حق الأمم في تقرير مصيرها، منطلقين من دراسة خصوصيات التركيبة القومية لروسيا القيصرية ومساندة حقوق القوميات المضطهدة في روسيا في عهد الامبراطورية القيصرية. وكتب لينين حول حق الأمم في تقرير مصيرها (أننا لنعترف في روسيا المستقبلية، لجميع الامم بالحق في تقرير مصيرها بحرية لأننا لا نرى في الحرية القومية إلا مظهرا من مظاهر الحريات المدنية بوجه عام) [6].

وقد جرت نقاشات عاصفة حول حق تقرير المصير والانفصال للشعوب المضطهدة الواقعة تحت نير الاستعمار والاحتلال بين الاشتراكيين الديمقراطيين الروس والبولنديين بقيادة روزا لوكسمبورغ والنمساويين الذين طرحوا مفهوم الاستقلال الذاتي القومي الثقافي مقابل اطروحات لينين حول حق الامم في تقرير مصيرها.

وخلال القرون الثلاثة الماضية جرت تغييرات هامة على مفهوم السيادة بتأثيرات سياسة العولمة التي أدت الى تغيير مفهومي سيادة الدولة الداخلية والخارجية التي تضمنتها المعاهدات والمواثيق والقوانين الدولية، وأصبح التدخل العسكري المباشر والاحتلال والغزو هو السمة العامة في النظام الدولي حيث جرى التدخل في العراق والصومال وهايتي ويوغوسلافيا ورواندا وليبيريا، وأفغانستان 1996 - 1999م والسودان 1996م، ثم كوسوفو وتيمور الشرقية في 1999 والبوسنة والهرسك. وما أعقب ذلك من قرارات الأمم المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد الاوربي من تدخلات وحصار تحت شعارات حقوق الانسان والتدخل الانساني وتغير الانظمة السياسية بواسطة القوة العسكرية والعدوان على سيادة واستقلال الدول المستقلة تحت حجة الحفاظ على الامن والسلم الدوليين.

وقد أدت هذه السياسات العدوانية للامبريالية المعولمة الى انتهاك سيادة الشعوب واستقلالها، وتدويل السيادة وهدم أركانها وتغير مفاهيمها المتعارف عليها بالمجتمع الدولي، ألا وهي الاعتراف المتبادل بين الدول بسيادتها الداخلية والخارجية وفق معاهدة صلح وستفاليا 1648 وساهم ذلك ايضا في إحداث اضطراب في النظام العالمي وسيادة ثقافة الهيمنة والإلغاء والاستلاب.

رابعا: العولمة والثقافة

الهوية الثقافية الوطنية في ظل العولمة:

تحاول ماكينة الدعاية الاعلامية المعولمة إظهار العولمة الثقافية باعتبارها عملية طبيعية للتطور الانساني وصيرورته التاريخية. وهي عبارة عن انتقالة من الثقافة الوطنية والقومية الضيقة الافق إلى طور أعلى هو الثقافة العالمية الواسعة والشمولية.

لكن الواقع أثبت ان العولمة الثقافية

من خلال الممارسة العملية تشكل عملية فرض سيطرة الثقافة الغربية الاستهلاكية على الصعيد العالمي ومحاربة الثقافة الوطنية والقومية وإفراغها من محتواها الاصيل، واستثمار التطور التكنولوجي والعلمي الهائل لخلق ثقافة مصطنعة تروج الأفكار الليبرالية الجديدة وتدافع من مصالح الشركات متعددة الجنسيات.

ويقول المفكر المغربي عبد الإله بلقزيز حول إشكالية العولمة (أي العولمة الثقافية) انها فعل اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات، أنها رديف الاختراق الذي يجري بالعنف المسلح، فيهدد سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها العولمة [7].

ويرى المفكر المغربي الراحل محمد عابد الجابري ان العولمة (إلى جانب أنها تعكس مظهرا أساسيا من مظاهر التطور الحضاري الذي يشهده عصرنا، هي أيضا ايديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته) [8].

لقد أدت ثقافة العولمة إلى تراجع ثقافة الكتابة على مستوى الانتاج والتبادل مقابل شيوع ثقافة الصورة، حيث تلعب الصورة اليوم دورا مهما في التأثير على الجمهور والرأي العام، وهي عابرة للحواجز الوطنية والإقليمية ومحطمة الحواجز اللغوية، حيث ساد ما قبل العولمة، النظام السمعي - البصري والذي لعب دور العامل الحاسم في التأثير على الوعي الجمعي. وتتسابق الشركات المتعددة الجنسيات اليوم في تقديم صورة خادعة للوعي البشري مع التراجع المريع لمستوى القراءة وتداول الكتاب ومستوى التعليم والاكتفاء بالثقافة السطحية المتداولة في وسائل التواصل الاجتماعي عبر شبكة الانترنيت. كما ساهمت الصورة بالهجوم على القراءة ما أدى إلى انحسار مساحة المعرفة وجغرافية التكوين الثقافي مع تعاظم معايير وقيم النفعية والفردانية والأنانية والنزوع الغرائزي المجرد من الانسانية.

لقد أصبحت الثقافة في ظل العولمة، مجرد سلعة تخضع لقوانين السوق بعد ان كانت منتجا اجتماعيا خارج اطار عملية العرض والطلب، وتحولت الثقافة في ظل العولمة إلى مجرد سلعة فردانية نفعية وأنانية وأضفت الشرعية على الاستلاب والاغتراب.

خامسا: اتجاهات تجديد الماركسية في ظل العولمة

ينظر العديد من الماركسيين إلى العولمة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تشكل جزءا من التطور التاريخي للتشكيلة الاجتماعية الاقتصادية الرأسمالية، وتتحكم بها قوانين السوق الرأسمالية السائدة بكل تفاصيلها من العرض والطلب والتبادل والتوزيع. ولكن العولمة اعادت هيكلة الانتاج والتوزيع والتبادل وفق التطور الهائل لتكنولوجيا عالم الاتصالات والأتمتة والصناعات الالكترونية. وتجاوزت الاسواق القومية إلى الاسواق العالمية عبر سرعة حركة رؤوس الاموال وسيطرة الشركات المتعددة الجنسيات والعابرة للقارات على مفاصل الاقتصاد العالمي وحركة رؤوس امواله.

وأدت العولمة (بطبعتها الرأسمالية) الى تعميق الازمة البنيوية للنظام الرأسمالي العالمي وساهمت في المزيد من الاضطهاد

للأقليات القومية والعرقية وتعاظم في ظلها الاستغلال والاستلاب والاغتراب. وعرضت دولة (الرفاه الاجتماعي) الى التآكل والانهيار عبر الهجوم على المكتسبات التي حققتها الطبقة العاملة وحلفاؤها، وساهمت في تشريع قوانين مجحفة أدت إلى زيادة البطالة والفقر وتراجع برامج التنمية والصحة والخدمات وتصاعد معدلات الجريمة المنظمة والاتجار بالجنس والبشر.

ولمواجهة الاثار السلبية للعولمة تعاظمت الحركات الاجتماعية الاحتجاجية وطرحت الاحزاب اليسارية ومنظمات المجتمع المدني والقوى الديمقراطية العديد من التساؤلات المتعقلة في اتجاهات سياسة العولمة وإمكانية التصدي لها. ودفع العديد من الباحثين الماركسيين والتقدميين إلى البحث عن اجابات حول الاسئلة الحارقة المتعلقة بطبيعة الصراع الطبقي الدائر في ظل العولمة وطبيعة تقسيم العمل والبنية الطبقية للمجتمعات والتغيرات الطبقية الناجمة عن الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئة للعولمة، وكيفية التعامل مع قوانين الديالكتيك في ظل العولمة وهل ما زال قانون وحدة صراع الاضداد قائما في ظل العولمة وغيرها من الاسئلة التي وضعت امام الباحثين لدراستها والبحث فيها للتوصل إلى مقاربات تساهم في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية، فذهب البعض للبحث في الكتابات الكلاسيكية للماركسية ليعثر في البيان الشيوعي على توصيف ماركس المبكر للعولمة في البيان (وجاء اكتشاف امريكا والطريق البحري حول افريقيا ليفتح أمام البرجوازية الصاعدة ميدانا جديدا للنشاط. فإن أسواق الهند الشرقية والصين، واستعمار أمريكا، والتبادل مع المستعمرات، وازدياد كمية وسائل التبادل والبضائع على العموم، كل هذه الامور دفعت التجارة والملاحة والصناعة دفعة لا سابق لقوتها.... الا أن الاسواق تتسع وتتعاظم أكثر فأكثر، وكان الطلب يزداد باستمرار باستطاعة المانيفاكتورة أن تلبيه، وآنذاك أحدث البخار والآلة ثورة في الصناعة) [9].

أما لينين فقد تناول في كتابه "الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية" التوسع الجغرافي للامبريالية وفتح الاسواق الجديدة عبر الحروب والتي شكلت الخطوات العملية للعولمة والتي وصفتها روزا لوكسمبورغ الحل المنقذ للتراكم الرأسمالي وهو الذهاب إلى الاقاليم الجغرافية البعيدة واستثمار التراكم في شراء المواد الاولية وقوة العمل. ولن تقف المعالجات الماركسية عند هذه الحدود، بل تناول كل من سمير أمين وأيمانويل فالرشتاين وأندريه غوتير ووالتر رودني افكارا جديدة حول التراكم الرأسمالي في ظل العولمة والعلاقة بين المركز والاطراف والشمال والجنوب.

ولكن يلاحظ ان هناك ضعفا في بعض الدراسات التي تناولت هذه الموضوعة بسبب عدم إعارة اهتمام كاف للمكان وللبعد الجغرافي وتأثيرات عامل الزمن في التطور الاقتصادي الاجتماعي للبلدان المختلفة، وتأثير ذلك على وحدة القوى المناهضة للعولمة الوحشية.

ولمعالجة هذا القصور طرح كل من ريموند ولياس وديفيد هارفي نظرية الجغرافية وتأثيرها في صياغة نظرية جديدة

حول نضال الطبقة العاملة والاشتراكية وأهمية المكان وخصوصية الجغرافيا بشكلها العام والخاص السياسي والثقافي. ويرى أصحاب هذه النظرية أن حركة رأس المال المالي وانتقاله السريع وهجرته وراء الايدي العاملة الرخيصة والضرائب القليلة والفوائد العالية من بلد إلى آخر يساهم في شق وحدة صفوف الطبقة العاملة وحلفائها ويؤثر تأثيرا بالغا على التضامن الاممي بين الشغيلة والكادحين.

ولابد من الاشارة إلى ان العولمة بسلبياتها وايجابياتها لا يمكنها تعطيل القوانين الاجتماعية المنظمة للصراع الطبقي والتي تشكل قوانين الديالكتيك جوهرها الاساس والتي ترى ان الصراع الطبقي هو المحرك الاساس للصراع الاجتماعي، وان جوهر الصراع بين العمل ورأس المال وان التناقض الحاد بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج سوف يؤدي إلى الثورة الاجتماعية التي سوف تطيح بأسلوب الانتاج وتستبدله بأسلوب ارقى منه.

سادسا: أهم الاستنتاجات

1 - وضعَ اقتصاد السوق الحر وفق نظرية آدم سمث حاجات ومتطلبات الافراد المشتركين في المقام الأول، والان توضع العولمة حاجات ومتطلبات ومصالح الافراد مالكي الشركات متعددة الجنسيات في المقام الاول.

2 - ما زال الصراع بين العمل ورأس المال هو القوة المحركة للصراع الطبقي الاجتماعي في جميع البلدان، ولكن بدرجات متفاوتة، بل اصبح الصراع الطبقي في البلدان الطرفية صراعا مركبا ومعقدا.

3 - لا توجد حدود وطنية لحركة رأس المال والتبادل والمنافسة والمضاربة في الاسواق العالمية.

4 - اصبح التقسيم الدولي للعمل هو السائد بدل التقسيم القومي (ولم يعد الصراع الطبقي محصورا برقعة جغرافية محددة بل تجاوز المكان واختصر العامل الزمني، ليصبح الصراع بين الرأسمال المعولم والقوى المنتجة على الصعيد العالمي، مثل الصراع بين الشمال والجنوب، والمركز والأطراف).

5 - هناك فرق جذري بين العالمية الداعية إلى الانفتاح على الآخر والعولمة الداعية إلى الغاء الاخر.

6 - ساهمت العولمة في احداث تغيير فارق في بنية الطبقة العاملة وظهرت فئات في داخلها، العمال ذوو الياقات البيضاء وذوو الياقات الزرقاء والعمال الزراعيون.. الخ.

7 - أنشأت العولمة تناقضا حادا بين طبيعة الدولة الرأسمالية الديمقراطية المنتخبة صاحبة الشرعية الدستورية وحامية السيادة والاستقلال الوطني وسيطرة ادارات الشركات المتعددة الجنسيات وحكومتها الالكترونية العالمية عبر مؤسساتها الدولية (صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية).

8 - ينظر بعض الباحثين الماركسيين والتقدميين الى العولمة كظاهرة اقتصادية اجتماعية ثقافية فقدت الدولة الرأسمالية السيطرة عليها، وخلقت تعارضا بين الطابع الديمقراطي التمثيلي لمؤسسات الدولة وطابع السيطرة الادارية للشركات المتعددة الجنسية وما فوق القومية التي تمتلك أدوات

تنفيذية أممية قادرة على تجاوز سلطة الدولة ومؤسساتها وفرض ارادتها بفعل قوة ونفوذ رأس المال المالي العالمي وحركته وتدفقه في الاسواق المالية العالمية.

9 - ساهمت العولمة الثقافية في توسع النزعة الاستهلاكية والأنانية والانعزال والترويج لصراع الحضارات وعدم الاعتراف بالآخر، ولكن هذه لا تعني في ظل الثورة المعلوماتية الهائلة أنها لم تؤد إلى تلاقي الثقافات بفعل مواجهة الشعوب لهذه الهجمة الكبيرة والاستفادة من المنجزات العلمية الهائلة والثورة في ميدان الاتصال لصالح نشر الثقافة والتنوير والقيم الانسانية وتجاوز البعد المكاني للثقافة واختصار العامل الزمني للوصول إلى ابعد نقطة على سطح المعمورة.

10 - ساهمت العولمة في تأجيج وإشعال الحروب الطائفية والاهلية والإقليمية للسيطرة على المواد الأولية والأسواق والتحكم في التبادل والتوزيع على الصعيد العالمي، وما يجري اليوم من حرب بين روسيا وأوكرانيا ناتج طبيعي للصراع الامبريالي في ظل العولمة الرامي إلى تقاسم النفوذ وتعدد الاقطاب.

11 - أدت العولمة إلى تعميق اللامساواة بين الشعوب وتعاظم الفقر والبطالة والتفاوت الشاسع في مستوى الدخل بين المركز والأطراف.

أخيرا، لابد من الإشارة إلى أن العولمة تعتبر ظاهرة معقدة وشائكة تتطلب العمل المتواصل على تفكيكها ومتابعة آثارها وتمظهرها ووضع الدراسات والبحوث حول جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والبيئية والإنسانية.

الهوامش:

1. منير الحمش، العولمة ليس الخيار الوحيد، ط 1، الاهالي للطبع والنشر والتوزيع، دمشق 1998، ص21.
2. فالح عبد الجبار، ما بعد ماركس؟ ط 1، دار الفارابي، بيروت، 2010، ص 120.
3. الحمش، ص 23.
4. المصدر نفسه، ص 25 - 26.
5. عبد الحي يحيى زلوم، نُذر العولمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت، 1999، ص16.
6. جورج طرابيشي، لينين نصوص حول المسألة القومية، ط 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1972، ص 19.
7. الحمش، ص41.
8. المصدر نفسه، ص 45.
9. كارل ماركس فريدريك انجلس، مختارات، المجلد الثاني، دار التقدم للطباعة والنشر، موسكو، 1989، ص 67 - 68.

نظرية نقد المجتمع الاستهلاكي عند جان بودريار

د. حسام الدين فياض
الأستاذ المساعد في النظرية الاجتماعية المعاصرة
قسم علم الاجتماع كلية الآداب في جامعة ماردين - حلب سابقاً

"أنا أستهلك إذن أنا موجود... المستهلك أصبح شخصية اجتماعية تمثل التطلعات الشرهة العمياء والوهمية، إذ تحول البحث الفردي المحموم عن اللذة إلى عائق أمام كل انشغال بالشأن العام"[1].

لا تستغني الحياة الواعية عن الممارسة النقدية، ولا يشك أحد في ضرورة النقد للواقع السائد في نظم المعرفة والقيم والاجتماع، وأنماط الفكر والفعل والسلوك، إذ إن إحياء الحس النقدي معناه إحياء الحس بالحرية والاستنارة، وضرورة التغيير والتقدم والحوار المستمر. وعلى الرغم من تعدد مفاهيم النقد* وتنوع أساليب تطبيقه وميادينه، فهو في تصوره البسيط المباشر يتضمن مناهج المراجعة والتقييم للأفكار والوقائع والأفعال التي تنطلق من معايير معينة، كما يستهدف الكشف عن تعارض تلك الأفكار والوقائع والأفعال مع هذه المعايير التي أصابها العجز والفساد، بُغية العمل على "رفعها" وتجاوزها [2].

انطلاقاً من جوهر الممارسة النقدية [3] سنحاول تقديم قراءة سوسيولوجية - نقدية لأبعاد المجتمع الاستهلاكي وممارسته

الثقافية، وهذا يحتم علينا بالضرورة قبل الخوض في استعراض موقف جان بودريار ** النقدي توضيح مجموعة من المفاهيم التي تشكل المدخل الأساسي لفهم نظرية المجتمع الاستهلاكي عند بودريار، وهي كالآتي:

الثقافة الاستهلاكية

يعتبر مفهوم الاستهلاك consumption concept من أعقد المفاهيم في العلوم الاجتماعية، لأن الاستهلاك عملية جماعية لها جوانبها الاجتماعية المهمة. إن أغلب ما يستهلكه الفرد هو الاستهلاك. (أي المبالغة في القيام بفعل الاستهلاك) ولذلك عُرف الاستهلاك

بوصفه العملية التي يتم من خلالها تدمير المنفعة الاقتصادية للسلعة باستعمالها استعمالاً [4] كاملاً. بذلك يعد مفهوم الاستهلاك من الظواهر الاجتماعية العامة في مختلف المجتمعات، كما أنه لا يقتصر على مجرد إشباع الحاجات والمتطلبات الإنسانية فقط، بل إنه يتضمن مجموعة من الوظائف تختلف باختلاف الثقافات بعامة والثقافات الفرعية بخاصة، إذ يوجد في داخل كل مجتمع مجموعة من الثقافات الفرعية، التي يتم تحديدها طبقاً لمعايير مختلفة. فعلى أساس المعايير الاقتصادية والاجتماعية ينقسم أفراد المجتمع ويتم تصنيفهم إلى طبقات (عليا، وسطى، دنيا) وعلى أساس النوع، (ذكور وإناث) وعلى ساس المنطقة الجغرافية إلى سكان (المدن، القرى، الأحياء، العشوائيات، المقابر، المدن الجديدة... إلخ)، وعلى أساس السن، إذ يتوزعون إلى (أطفال ومراهقين، وشباب، ومسنين) وعلى أساس إيديولوجي، تتحدد اتجاهاتهم (ليبرالي، اشتراكي، راديكالي... إلخ).. إلى غير ذلك من المعايير الأخرى [5].

تشير ثقافة الاستهلاك إلى تلك الجوانب الثقافية المصاحبة لعملية الاستهلاك بوصفها مجمل المعاني والصور والرموز التي تصاحب عملية الاستهلاك، فالأفراد يستهلكون بجانب استهلاكهم للسلع المادية، الصور والمعاني والرموز المرتبطة بها، كما أنهم يتخذونها رموزاً يتخاطبون بها خطاباً صامتاً في الحياة اليومية [6].

لا يوجد إجماع على التاريخ الذي بدأت فيه ثقافة الاستهلاك، فقد ذهب نيل ماكندريك ورفاقه عام 1982 إلى أن ثقافة الاستهلاك بدأت في القرن الثامن عشر في إنجلترا لتسويق الأزياء مع التغيير في الذوق العام، وبحسب هؤلاء المؤرخين فإن الميل الجديد لأسلوب حياة مختلف رفع الطلب على الملابس التي كانت تنتج بكميات ضخمة جراء الابتكارات التقنية في صناعة الغزل والنسيج، والطفرة في التسويق والتي استفادت من تقنيات الطباعة في الإعلان على نطاق واسع. بينما ذهب مؤرخ آخر، وهو روزاليند وليامز 1982، إلى أن ثورة الاستهلاك بدأت في أواخر القرن التاسع عشر بفرنسا، عندما حولت الجهود الحثيثة لتجار التجزئة باريس إلى محطة للاستهلاك الجماهيري، من خلال إقامة المعارض في الفترة من 1889 إلى 1900م، ويرى أن هذه المعارض ساهمت بشكل كبير في تطوير المتاجر المختلفة وتنمية الثقافة الاستهلاكية [7].

وعلى العموم يشير مصطلح ثقافة الاستهلاك إلى ترابط الأنشطة الاقتصادية مع الممارسات الثقافية، وهذه الممارسات تتحدد بدقة في ضوء رأس المال وسيكولوجية الأفراد. ويستخدم مصطلح ثقافة الاستهلاك للتأكيد على أن عالم السلع يلعب دوراً أساسياً في فهم المجتمع المعاصر، حيث يؤكد التحليل السوسيولوجي لثقافة الاستهلاك على بعدين: الأول، البعد الثقافي للعملية الاقتصادية، ويقصد به عملية إضفاء معانٍ رمزية على السلع المادية واستخدامها كوسائط للتواصل أو التمايز الاجتماعي. أما الثاني، اقتصاديات السلع الثقافية، وهي فلسفة فاعلة ومؤثرة في مجال أنماط الحياة وأسلوب المعيشة لدى الجماعات والشرائح الاجتماعية في

مختلف المجتمعات والثقافات. كما أن مصطلح ثقافة الاستهلاك لا يشير لثقافة تحمل مظاهر ثقافات الشعوب التقليدية من قيم ومعتقدات وفنون وعادات، بل يشير بالدرجة الأولى إلى الجوانب الغريزية وإلى المظاهر والكماليات، حيث تتحدد قيمة الإنسان بمقدار ما يقتنيه من أشياء مادية أو مال، وتعمل الثقافة الاستهلاكية على تحويل جميع مظاهر الثقافة الإنسانية، وأبرزها الفنون إلى سلعة تجارية [8].

ويؤكد علماء الاجتماع أن ثقافة الاستهلاك أصبحت ظاهر عامة، وقاسماً مشتركاً بين كل المجتمعات، ومكوناً من مكونات كل ثقافة، وذلك نتيجة لما تمارسه المصادر المختلفة من تأثير على سلوك الأفراد، في اتجاه الميل نحو الاستهلاك، بل وجعل الاستهلاك هدفاً في ذاته. كما يؤكد علماء الاجتماع باستخدامهم مصطلح ثقافة الاستهلاك أن عولمة السلع والمبادئ التي تقوم عليها بنية العولمة تعد مدخلاً أساسياً، لفهم المجتمعات المعاصرة.

وتساهم وسائل الإعلام والإعلان وتكنولوجيا المعلومات المعاصرة بدور رئيسي في شيوع الثقافة الاستهلاكية بالمجتمعات الإنسانية حيث تعمل على الإشباع الغريزي والتأكيد عليه، مما يؤدي الى فتح الباب دون قيود لاستيراد الثقافة الاستهلاكية وحدها، ومن ثم قتل الإبداع وثقافة الإنتاج، وتراخي الجهد الإنتاجي للتنمية، ودفع المجتمع نحو الاستدانة لتغطية تيار الاستهلاك، كما يلعب الاستهلاك دوراً في إثارة حرمان الجماهير وزياد مخزون التوتر، ومن ثم الرفض والتمرد [9].

من خلال ما تقدم يمكننا تعريف الثقافة الاستهلاكية consumer culture بأنها "جميع أساليب الحياة ومعانيها ورموزها، وثقافة الاستهلاك هي تلك الجوانب الثقافية المصاحبة للعملية الاستهلاكية، أي أنها مجموعة المعاني والرموز والصور التي تصاحب العملية الاستهلاكية، والتي تضفي على هذه العملية معناها وتحقق دلالتها في الحياة اليومية" [10]. كما يمكننا القول بأنها "ذلك النشاط الذي يشبع به الإنسان حاجاته، وهو يتوقف على عدد من العناصر تتمثل في الدخل والحاجات والنزعات النفسية وعادات الأفراد، حيث يؤدي نمط الإنتاج في المجتمع الحديث إلى خلق حاجات جديد عن طريق الإعلان وتسهيلات الائتمان التي تعمل على زياد الاستهلاك حتى أطلق عليه المجتمع الاستهلاكي، وكان لهذه الظاهرة آثار بعيدة على الاقتصاد وعلى السلوك الاجتماعي... ويمكن عن طريق دالة الاستهلاك الوقوف على الكيفية التي يتمكن بها الأفراد ذوو الدخول المحدودة من تدبير أمور حياتهم وعلى درجات الميل للاستهلاك [11].

المجتمع الاستهلاكي

بدأ تداول مصطلح المجتمع الاستهلاكي في الاقتصاد منذ الثورة الصناعية وبالأخص بعد الحرب العالمية الثانية. وبالتالي فالمجتمع الاستهلاكي هو "المجتمع الذي يبني نظامه على الاستهلاك الهائل للسلع والخدمات. مع وصول الثورة الصناعية، كان لا بد من مواءمة فائض الإنتاج مع زيادة استهلاك المجتمعات. للقيام بذلك، على أساس نموذج رأسمالي، شجعت الدول على زيادة الاستهلاك، من أجل التخلص من كل ذلك

الإنتاج الذي أتى به التصنيع" [12]. بمعنى أكثر تحديداً المجتمع الاستهلاكي هو نوع المجتمع الذي يقوم فيه النظام الاقتصادي على الاستهلاك الشامل، وهو نوع المجتمع الذي تؤدي فيه الزيادة في الإنتاج إلى تكاثر المنتجات التي سيتم استهلاكها وبالتالي خلق احتياجات ورغبات جديدة. يستخدم مصطلح "المجتمع الاستهلاكي" للإشارة إلى مجتمع يتم فيه تشجيع المستهلكين على استهلاك السلع والخدمات بكثرة [13].

وفي وقتنا المعاصر لم يعد التناقض بين الدول إيديولوجياً بمعنى أدق بين دول رأسمالية وأخرى اشتراكية، وإنما أصبح التناقض الحقيقي المعلن بين دول فقيرة وأخرى غنية، ويعتبر النمو غاية ينبغي العمل على بلوغها، فنجد أنفسنا في مواجهة ظاهرة جديدة تتمثل بزيادة الإنتاج المستمرة، التي أطلق عليها جلبرت في كتابه The Affluent Society مجتمع الوفرة وأسماه مجتمع الاستهلاك. وفي مجتمع كهذا تعتبر زيادة الاستهلاك قيمة اجتماعية في حد ذاتها، فزيادة الاستهلاك في هذه المجتمعات تسهم في تشكيل العلاقات الاجتماعية والمعاني الاجتماعية على نحو لا يقل أصالة عن الإنتاج [14]. وتلعب وسائل الإعلام بمختلف أنماطها وأشكالها دوراً مركزياً في هذا المجتمع من خلال الدعاية والإعلانات وتكرارها والإصرار عليها والنفقات المذهلة التي تنفق عليها في المجتمعات الاستهلاكية لا يمكن أن يكون الغرض الوحيد منها إعلام جمهور المستهلكين بوجود السلعة ومزاياها، ولكن موجه في الحقيقة لخلق حاجات جديدة لدى جمهور المستهلكين الذي أشبع بالفعل كل الحاجات البيولوجية الضرورية، فالغاية هنا زيادة الاستهلاك التي تعتبر مطلباً ضرورياً بالنظر إلى زيادة الإنتاج والفائض منه [15].

ويمثل الشراء والاستهلاك أو الاستخدام نفسه جوهر عملية الاستهلاك في هذا المجتمع، لأن آلية السلوك الاستهلاكي تكشف عن الكيفية التي يتم من خلالها دمج الناس في إطارهم الاجتماعي، فالمنتجات ليست أكثر من موضوعات لأنظمة معينة من المعاني، بذلك يتشكل مفهوم الاستهلاك اجتماعياً، بحيث يطور الأفراد أنماطهم الاستهلاكية من خلال تنشئتهم الاجتماعية التي تستمد مشروعيتها من البُنى والقيم والمبادئ الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما. كما أن الأفراد لا يستهلكون عادةً بمعزل عن بعضهم البعض، بل يوجهون أنفسهم نحو ردود أفعال الآخرين - سواء أكانوا افتراضيين أم موجودين بالفعل - مما يجعل التوجه الاجتماعي للاستهلاك تجاه الآخرين مفهوماً. ويمكن للفرد نفسه استخدام المقارنة مع الآخرين للتحقق من مواقفه وإنجازاته وأنماطه السلوكية ومراقبة ما إذا كان سلوك المستهلك الخاص به يتكيف مع المعايير المطبقة في بيئته [16].

وفي النهاية يمكننا القول إن المجتمع الاستهلاكي عند بودريار هو من مظاهر التكنولوجيا المعاصرة، الذي بدأ في الدول المتقدمة الغنية كتطور طبيعي، نتيجة لارتفاع مستوى الدخل، بعد أن أشبع الناس حاجاتهم الأساسية، وقد ساعدت المؤسسات الرأسمالية على اقتناء الكماليات. وكان الاستهلاك عند بودريار بمثابة السمة الرئيسية للمجتمعات الغربية حيث إنه

الاستجابة العالمية التي ترتكز عليها المنظومة الثقافية بأكملها... كما يطرح بودريار مفهوم الاستهلاك على أنه أصبح وسيلة للتفرقة، وليس للترضية، الثقافية بأكملها وهو نتيجة طبيعية لتولي الهيئات والأفراد هذه المسألة حيث تلاشي العامل الحقيقي الواقعي واستعاض عنه بعوامل وهمية عن العامل الحقيقي [17].

بناءً على ما سبق قدم السوسيولوجي الفرنسي المعاصر بودريار نقداً لاذعاً لمفهوم المجتمع الاستهلاكي في عديد من مؤلفاته أهمها: مجتمع الاستهلاك 1970، ومرآة الإنتاج 1973، والتبادل الرمزي والموت 1976 وغيرها. وفي كتابه نظام الأشياء 1968 قدم بودريار وصفاً نقدياً لمنزل برجوازي نموذجي بأثاثه، ولا سيما المرايا والخشب والإنارة، ... إلخ. ليصل في نهاية الأمر إلى أن المجتمع سيطرت عليه أسطورة الاستهلاك المفرط إلى حد اقتناء ما ليست هناك حاجة إليه. وفي القسم الثاني من الكتاب حلل بودريار (النظام الاجتماعي – الإيديولوجي للاستهلاك وموضوعاته)، وهو يرى أن مواضيع الاستهلاك صارت اليوم أكثر تعقيداً من سلوك الناس المتعلق بها. فقيمة الأشياء لم تعد تتوقف على منفعتها، بل دخلت متغيرات أخرى إلى معادلة استهلاك الأشياء، وأصبحت هي المتحكّم الفعلي في فعل الشراء، فالسيارة التي يرغب الجميع في اقتنائها هي السيارة الأفخم والأجمل والأقوى، ولم يعد الأمر متوقفاً فقط على الوظيفة التقليدية للسيارة المتمثلة في كونها وسيلة انتقال لقد تغيرت طبيعة الأشياء، بحيث صار اقتناؤها منزوعاً من غائيته الأصلية ليدخل في مدار آخر مختلف، وقد انعكس ذلك على مضمون السلعة ذاتها وعلى سلوك المستهلك" [18].

أما في كتابه مجتمع الاستهلاك فقد قدم نقداً لاذعاً للمجتمع الغربي المعاصر، وبالأخص المجتمع الأمريكي الذي تحول من قيم الليبرالية إلى واقع يقوم على معايير استهلاكية تحكمه مؤسسات الدعاية والاتصال بمنطق يعمل على إلغاء الحياة الفعلية للأفراد، ليكون مجتمع الاستهلاك بذلك يعبر عن التطور الطبيعي لانحرافات الليبرالية. وفي هذا الصدد يقول بودريار "لا بد من القول من البداية، بوضوح أن الاستهلاك هو نمط علائقي فعال (ليس نمط علاقات بالأغراض وحسب بل بالجماعة وبالعالم). نمط فعالية مبرمجة ورد إجمالي يتأسس عليه كل نظامنا الثقافي" [19].

إنه السياق الاجتماعي العام الذي يندرج ضمنه تحليل بودريار، ففي عالم الاستهلاك والوفرة لم يعد أفراد المجتمع محاطين في نظره بعالم البشر أمثالنا إنما بعالم الأشياء، وبحكم الإصرار الذي تمارسه وسائل الإعلام والدعاية أصبحنا نخضع لمنطق الطاعة بسبب عنصر التكرار والتعود ففقدنا العلاقة بالآخر المثيل والمشابه إلى درجة أن هذه الأشياء التي تحكمها قيمة التبادل والتي تعد ثمرة الجهد الإنساني تعمر أكثر منا [20]. وفي هذا الصدد يقول بودريار: " نحن محاطون بأشياء تُنتج بكميات هائلة، ويبدو كأنه ليس لها فائدة جلية. إن قيمتها لا تُستمد من وظيفيتها بل من معناها الثقافي. ليصبح فعل الاستهلاك حدثاً اجتماعياً. إن الحشود الأكبر والأكثر تكرراً التي نراها هي متسوقو صباح السبت، ونقوم بمحاكاة سلوكهم لأن المحاكاة تعبر عن رغبتنا

بالانتماء إلى القطيع. ونحن لا نتصرف على نحو متفرد، بحرية وباستقلالية وبأصالة، بل نعبر عن رغبة الجميع في أننا يجب أن نتسوق. إنها الراحة المحببة لذهنية القطيع. بالمقابل لا نرى جمهور الأفراد المنفصلين الذين يجلسون في المنزل ولا يشترون. ان حقيقة أن الاستهلاك جلي هكذا هي ما يجعلنا نفكر أنه عادي، لكنه ليس هكذا " [21].

إن السلع التي تعكس الإفراط والإسراف وكما تعرض في واجهات المحلات تسيل لعاب المارة من الزبائن المحتملين، ولعل فيما تقدمه المجمعات العصرية أبرز دليل، ويعني بها المراكز التجارية الكبرى التي أصبحت تضاهي مدينة بكاملها من خلال ما تتضمنه من مرافق تقدم الضروريات والكماليات المادية والمعنوية منها. لتصبح عملية الاستهلاك في مثل هذه الأماكن تعكس ما يسميه بودريار زواج الرفاهية والجمال والفعالية، وهناك نكون في نظره في مقر أو بؤرة الاستهلاك كتنظيم عالم لما هو يومي ومألوف، مثل هذه المجتمعات ستتوسع إلى ما سيعرف لاحقاً بمدن المستقبل، وفي مثل هذه الأماكن تتجمع آلهة الاستهلاك [22]. وعليه فإن بودريار يؤكد على النزعة الاستهلاكية *** التي يتسم بها المجتمع المعاصر. كما يؤكد على خطرها في تغيير القيم وتأثيرها في مناحي الحياة كلها فيصف العالم المعاصر بعصر استهلاك الأغراض لقوله: "إننا نعيش في عصر الأغراض: أعني نعيش على إيقاعها وبمقتضى تعاقبها المتواصل، فنحن الذين نشهد ولادتها اليوم، ونشهد اكتمال موتها" [23].

هذا وتضع أعجوبة الاستهلاك كما يسميها بورديو جهازاً من الأشياء المخادعة والعلامات التي تشخّص السعادة أي تبشر بها، لتنظر بعد ذلك حصولها. إنه الإيمان بظاهرة الاستهلاك التي أصبحت ميراثاً للأجيال بحيث لم نعد نرث الخيرات فقط، إنما الحق الطبيعي في الوفرة والرخاء باعتباره نتيجة التقنية والتقدم، كما أن وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري لم تمنحنا الحقيقة إنما وهم الحقيقة وظلّها، وأصبحنا نعيش بمعزل عما يجري في العالم من أحداث، في ظل شعور زائف بالأمن، لننعزل بذلك عن كل نشاط سياسي واجتماعي وثقافي عبر ما يسميه بودريار براكسيس الاستهلاك، ومنه تكتسي الاحتياجات صبغة فتيل أشعله السوق لأنها ليست ضرورية أو حقيقية، وليصبح التبضع أو التسوق بذلك الأسلوب أو الشكل المعاصر في الحصول على السعادة، والنتيجة أنه تم اغتيال الواقع عبر إفراز واقع مضاد وإخفاء الصورة الحقيقية له عن طريق وسائل الميديا التي نجحت في تعبئة أذواق الأفراد بشكل تجاري عبر التحكم في أوقات فراغهم كما تقدم [24]. بذلك تبدلَ نمط حياة الإنسان المعاصر، حيث كانت المجتمعات القديمة تنتج أساطيرها لتؤمن التحكم بأفرادها، وتحقق توازناتها في الداخل، ومع الخارج، بينما الفرد المعاصر اليوم وفي المجتمع الاستهلاكي يتحول إلى أسطورة، ولهذا فهو ليس بحاجة إلى إنتاج الأساطير حسب ما يؤكد بودريار: "فكل الوظائف والحاجات قد وضعت واستعملت لأغراض الربح وحسب، بل أيضاً بالمعنى الأعمق، حيث تمسح كل شيء، أي تبرمج وتدوزن في خيالات، في علامات، في نماذج قابلة للاستهلاك " [25].

لقد أصبح مركز الاستهلاك هو الحياة اليومية التي تحولت فيها الممارسة من الشأن السياسي والاجتماعي لتصبح اهتماماً باليومي، وتختفي المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية لصالح المجال الخاص متمثلاً في العمل والأسرة وأوقات الفراغ، كما نجح الاستهلاك في أن يجعل الناس يشعرون بأمن زائف من خلال خلق كائن سلبي أي ذي سلبية تفتقر إلى الشعور بالذنب أو التقصير حينما تكون المخاطر والكوارث بعيدة عنها، وليصبح الفرد بذلك كائناً مطواعاً محايداً وهامشياً، ويترتب عن ذلك أن تصبح علاقته بما يجري من حوله علاقة فضول لا أكثر [26].

وهكذا أصبحت مراكز (مولات) التسوق إقطاعيات تدير ذاتها بذاتها وتمتلك قوانينها الخاصة وعملاتها الخاصة وثقافتها الخاصة ومناخها الخاص. إن كل ما تحتاج إليه هذه المولات كي تنفصل كلياً عن البلاد التي تقع فيها أن يكون لها أحياؤها الخاصة بالمستهلكين. ثم نحتاج إلى أن نضيف سلطات جوازات السفر على الحدود، حينها يصبح المول كياناً جيوسياسياً مميزاً. وعلى كوكب تتفوق فيه الشركات على الحكومات، هذا ليس بعيد المنال [27].

كما وينجم عن التبذير والإسراف في النفقات، والتي تعد من مميزات المجتمع الاستهلاكي الكثير من المخاطر والتهديدات التي تمس الإنسان والبيئة بسبب انتعاش الصناعة، وذلك من قبيل التلوث الناتج عن ثقب الأوزون وتلوث المياه والهواء، طبعاً بما يرافقه من توتر سيكولوجي واجتماعي يصيب الفرد والجماعة، وبذلك تدفع شريحة من المجتمع ممن يعجزون عن مواكبة التطور الحاصل والنموذج المفروض تكلفة استضعافهم، وفي مثل هذا الوضع تزداد الاستهلاكات غير الوظيفية فردية كانت أم جماعية بسرعة تفوق الاستهلاكات الوظيفية والاستعمالاتية، فيتطفل النظام على نفسه. مثل هذه الأذية والأضرار التي يفرزها النظام إنما هو في واقع الأمر يتغذى منها ليضمن استمراريته وبقاءه، لأنها بمثابة عوامل إيجابية للنمو تنعش الإنتاج والاستهلاك [28]. بذلك أدرك النظام بأن السكان بحاجة إلى أن يعبأوا باعتبارهم مستهلكين لا مجرد عمال ومنتجين، لأن الاستهلاك يضمن بقاء النظام واستنساخه، وتقديم نموذج جديد للتنشئة الاجتماعية والمشاركة الوهمية في المجتمع [29].

وفي تحليله لظاهرة التبذير يؤكد بودريار أنها أصبحت علامة على العيش والحياة، يتساوى في ذلك الفرد والجماعة، والتي تغير بمقتضاها مفهوم المنفعة وكذلك الحاجة، لتصبح الوفرة تدريجياً قيمة باعتبارها "الصورة الخلابة للمجتمع الاستهلاكي" [30]، إنه الإنفاق المبالغ فيه الذي تجسده شخصيات المشاهير السينمائية والرياضية وغيرها، والتي قامت مقام الشخصيات التاريخية الكبرى [31]. وهكذا يعمل الاستهلاك حسب بودريار على نشر القيم السلبية المتمثلة في التبذير والإسراف، حيث يعرف بودريار الاستهلاك من خلال القيم السلبية بقوله: "في الأفق يرتسم تعريف الاستهلاك بوصفه إتلافاً أي تبذير إنتاجي، وهو أفق معاكس لأفق الاقتصاد القائم على الضرورة، والتراكم والحساب، حيث يقدم النافل على الضروري، وحيث يسبق الإنفاق بقيمته التراكم والتملك،

وبالتالي فإن التبذير والإسراف من أهم معاني الاستهلاك، فقد يتطلب الاستهلاك تراكماً في الإنتاج من أجل التغلب على الندرة لتلبية الحاجات الاستهلاكية، وعندما تساعد الحاجات على تحقيق السعادة تصبح الأحلام والرغبات مرتبطة بالصور الثقافية الاستهلاكية المتمثلة في الإفراط والإسراف والتبذير والفوضى والعنف... وغيرها" [32].

يقدم الاستهلاك نفسه على أنه السياق العام الذي يقضي ويقلّص من مجال التمرد والفردية والتميز ليقع الفرد في فخ التماهي مع الجماعة ويكون جزءاً من القطيع، يمتثل لما يحدده المجتمع من مقاييس، وهو ما يظهر بجلاء في محاولته التّشبه بالمشاهير لينساق بذلك ضمن نمط يقرره المجتمع. إنه التنميط والقولبة. "بذلك يقوم الاستهلاك على فكرة التعميم وتوحيد كل الناس في قالب قيمي واحد وفق منظمة إيديولوجية تعمل على إكراه اجتماعي غير واعٍ هدفها فرض قيم وسلوكيات جديدة على الفرد وفق إكراه اجتماعي لا يعيه الفرد بل يذهب فقط إلى إشباع حاجاته وتحقيق رغباته وذلك باقتنائه للكماليات من أجل إشباع رغباته" [33].

وضمن الإطار نفسه يتوهم حصوله على المساواة التي ليست سوى مساواة شكلية أو صورية ووهمية، وبالتالي يقع في وهم السعادة التي تتأسس على الاستهلاك والتملك والرفاهية، ويكون الاستهلاك بذلك مؤسسة طبقات تفرض منطقاً للخلاص يقوم على الأشياء، وليقوم بذلك لا على منطق الإشباع إنما على منطق الإنتاج والتلاعب بالرموز الاجتماعية، ويصبح مسألة للتصنيف والمفاضلة ، والصفة المميزة له - للاستهلاك- هي طابعه اللامحدود. ليغدو الاستهلاك نفسه حسب بودريار كنظام يتيح الاندماج في الجماعة، ليكون منظومة من القيم الإيديولوجية ونظاماً للاتصال أو التواصل، وبنية للتبادل، فيفرض وكأنه واجب اجتماعي لا شعوري. إنه مجتمع يدرب أفراده ويمرنهم على الاستهلاك بل ويقوم بترويضهم اجتماعياً على ذلك [34].

نستنتج مما تقدم، أن ظاهرة الاستهلاك كما نشهدها اليوم أضحت مودة العصر، فمن يستهلك أكثر وأغلى هو الأعلى في الترابية الاجتماعية والتميز، خاصة في ظل تلاشي واختفاء الصفة الوظيفية والنفعية للأدوات لتصبح في العصر ما بعد الصناعي مجرد أجزاء موضوعاتية للعب والتسلية، ولعل في الطريقة التي يستخدم فيها أطفالنا أجهزة الحاسوب والهواتف النقالة أبرز مثال على ذلك. ومعنى هذا أن ظاهرة الاستهلاك باستفحالها قد نجحت في خلق ذهنية مستهترة تستهين بكل شيء لتفرز فرداً مشتتاً خانعاً ومستكيناً عقيماً وعاجزاً، تجاه الأشياء وتجاه أقرانه من البشر، بما أنه تم إغواؤه وتزييف وعيه وقناعاته، وراح يلهث خلف شبح السعادة الوهمية ساعياً إلى مطاردته دون أن يفلح في الإمساك به، ما دامت حاجاته تتنامى باستمرار وهو عاجز عن إشباعها ليختصر وجوده في ما هو مادي محض.

ختاماً، إن ما يقلقنا في هذا السياق خطر الاستهلاك المفرط اللاوعي على فئة

الشباب وما يلحق بها من ضرر، وبالأخص عندما يفرض المجتمع الاستهلاكي على الشباب اللحاق بالموضة، وبكل ما هو جديد بشكل قسري وإجباري، حيث عملت فكرة الموضة على حصر كل القيم الإنسانية في قيمة واحدة وهي التسارع والتماشي مع كل ما هو جديد بعيداً عن كل ما هو أخلاقي أو ديني، فأصبحت بذلك أخلاقية الجمال من أخلاقية الموضة. وبالتالي فإن المجتمع الاستهلاكي ومن خلال دور الإعلانات في نشر وتعزيز الموضة وتحويل قيم الفطرة الإنسانية، أصبحت تهتم بالجسد لا بوصفه قيمة خاصة بالإنسان، وإنما بوصفه سلعة قابلة للعرض والتسويق كالأشياء يمكن عرضها وبيعها لتحقيق غرض استهلاكي آني.

وهكذا يسعى الاستهلاك من خلال أدواته إلى التلاعب بالجسد كقيمة، دون اعتبار لأي ضوابط أخلاقية، وهذا ما أكد عليه بودريار من خلال تحليله للنموذج الذكري والأنثوي في مجال الاستهلاك مؤكداً أن الإعلانات تقوم على فكرة تفكيك فكرة الجسد وتجريده من كل القيم والضوابط الأخلاقية من خلال إفساد الأذواق العامة، ما أدى إلى الخلط بين النموذجين الذكوري والأنثوي بل يتعدى الأمر إلى ظهور نموذج جنسي ثالث (خنثوي)، بمعنى آخر ظهور المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وخاصة من خلال أذواق الموضة المعاصرة التي هدفها الأساسي الربح دون النظر إلى أي قيمة أخرى، إلا لترسيخ قيم المتعة والترفيه وإطلاق العنان للغرائز الجنسية بشكل مباشر أو غير مباشر تحت مسمى الحرية وتتبع الموضة التي تسوق لصورة الإنسان الحضاري الزائف الذي يتساوى مع منطق الأشياء والسلع.

الهوامش:

1. حميد زناز: متاهة الاستهلاك، صحيفة العرب الدولية، لندن، العدد: 11386، الأحد 23 /06 /2019.
لمزيد من القراءة والاطلاع حول مفهوم النقد انظر: حسام الدين فياض: النقد الاجتماعي، مجلة الجديد، العدد 73 فبراير / شباط، 2021، ص 124.
2. عبد الغفار مكاوي: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت – تمهيد وتعقيب نقدي، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط 2، 2018، ص 9.
3. حول مفهوم الممارسة النقدية انظر حسام الدين فياض: مقالات نقدية في علم الاجتماع المعاصر (النقد أعلى درجات المعرفة)، سلسلة نحو علم اجتماع تنويري الكتاب الثالث، دار الأكاديمية الحديثة، أنقرة، ط1، 2022، ص 11 - 19.
** جان بودريار 2007 - 1929 Jean Baudrillard فيلسوف فرنسي وعالم اجتماع وعالم اجتماع ثقافي. يشتهر بتحليلاته المتعلقة بوسائط الاتصال والثقافة المعاصرة والاتصالات التكنولوجية، بالإضافة إلى استنباطه مبادئ مثل المحاكاة والواقع المفرط. كتب بودريار عن مواضيع متنوعة، كالنزعة الاستهلاكية والمجتمع الاستهلاكي والأدوار الجندرية والاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والفن والسياسة الخارجية الغربية والثقافة الشعبية. من أكثر أعماله شهرة نجد مجتمع الاستهلاك 1970، ومرآة الإنتاج 1973، والتبادل الرمزي والموت 1976، ونظام الأشياء 1968... وغيرها. غالباً ما تُربط أعماله بفلسفة ما بعد الحداثة وتحديداً ما بعد البنيوية.
4. موقع مقاتل: ثقافة الاستهلاك، http://moqatil.com/openshare/Behoth/Mnfsia15/ThqafIstih/sec01.doc_cvt.htm
5. منى السيد حافظ عبد الرحمن: الأبعاد الثقافية في دراسة الاستهلاك مع إشارة خاصة للدراسات العربية رؤية سوسيولوجية واستشرافه مستقبلية، حوليات آداب عين شمس، المجلد: 40، أكتوبر - ديسمبر، 2012، ص 322.
6. أحمد زايد وآخرون: الاستهلاك في المجتمع القطري أنماطه وثقافته، الدوحة، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، مؤسسة العهد، 1991، ص 65.

7. مي عباس: غزو ثقافة الاستهلاك والعبث بالأسرة، مجلة البيان، العدد: 369، جمادى الأولى 1439 هـ / يناير - فبراير 2018 م.
https://www.albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?ID=6125
8. رويدة احمد محمد عيفة: ثقافة الاستهلاك المفهوم والقضايا النظرية، مجلة البحث العلمي في الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، العدد، 17، 2016، ص 2 - 3.
9. علي ليلة: تآكل الرفض الشبابي – تأملات مع بداية ألفية ثالثة، من ندوة الشباب ومستقبل مصر، جامعة القاهرة، كلية الآداب، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية العربية في علم الاجتماع، القاهرة، 2001، ص 58 - 59.
10. جمال الفخري: الثقافة الاستهلاكية.. ضرورة ملحة، صحيفة الإمارات اليوم، 08 سبتمبر 2014. https://www.emaratalyoum.com/business/local/consumer/2014 - 09 - 08 - 1.707551
11. أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ط2 ، 1982، ص 82.
12. الاقتصاد بالعربية، المجتمع الاستهلاكي – ما هو، التعريف والمفهوم، https://www.economyinarabic.com//
13. عبد الهادي صالحة: حُمّى الاستهلاك! بين العادات الطبقية وثمرة الأخلاق الفردية، مجلة الرافد الكترونية، 19 - ديسمبر 2021 -
https://arrafid.ae/Article - Preview?I=fVttRtkPlnw%3D&m=5U3QQE93T%2F0%3D
14. عايدة إبراهيم السخاوي: الإعلان في التلفزيون المصري وتكريس مفاهيم المجتمع الاستهلاكي، من ندوة المجتمع الاستهلاكي ومستقبل التنمية في مصر، تحرير: أحمد مجدي حجازي، جامعة القاهرة، القاهرة، 2001، ص 13.
15. المرجع نفسه، ص 13 - 14.
16. حميد لشهب: نقد الاستهلاكية في الحياة الغربية - رقمنة الإنسان وفقدان الهوية، مجلة استغراب، العدد: 23، ربيع 2021، ص 152.
17. صابرين زعلول السيد: سطوة الميديا (العالم الافتراضي وأثره على المجتمع المدني)، مجلة استغراب، ربيع 2018، ص 276.
18. بدر الدين مصطفى: دروب ما بعد الحداثة، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط1، 2018، ص 258.
19. جان بودريار: المجتمع الاستهلاكي، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995، ص 5.
20. آمال علاوشيش: في نقد المجتمع الاستهلاكي، حوليات جامعة الجزائر1، العدد: 32، الجزء: 3، سبتمبر 2018، ص 246.
21. ستيورات براي: النزعة الاستهلاكية من منظار بودريار، ترجمة: أسامة إسبر، مجلة بدايات، العدد:32، https:// bidayatmag.com/node/1356
22. علاوشيش ، ص 246.
*** لمزيد من القراءة والاطلاع حول مفهوم النزعة الاستهلاكية انظر: سعو نبيل: النزعة الاستهلاكية وأثرها على فلسفة ما بعد الحداثة لجان بودريار، مجلة دراسات، المجلد: 11، العدد: 01، 2022.
23. بودريار: المجتمع الاستهلاكي، ص 9 - 10.
24. علاوشيش، ص 246 - 247.
25. بودريار: المجتمع الاستهلاكي، ص، 257 - 258.
26. علاوشيش، ص 247.
27. ستيورات براي: النزعة الاستهلاكية من منظار بودريار، مرجع سبق ذكره.
28. علاوشيش: ، ص 247.
29. تيم إدواردز: النظرية الثقافية – وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة، ترجمة: محمود أحمد عبد الله، المركز القومي، القاهرة، العدد، 2008، ط1، 2012، ص 288.
30. بودريار: المجتمع الاستهلاكي، ص 260.
31. علاوشيش، ص 247.
32. دحماني فتيحة وعبة رشيدة: ثقافة الاستهلاك وأثرها على قيم الفرد من منظور جان بودريار، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد، 10، العدد1، 2022، ص 340 - 341.
33. المرجع نفسه، ص 240.
34. علاوشيش، ، ص 248.

قراءة في كتاب "لماذا فشلت الليبرالية"

د.هاشم نعمة

بعد تفكك المنظومة الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة عام 1990 اعتبر الغرب أن ذلك يمثل نجاحا باهرا ونهائيا للرأسمالية الليبرالية والتي يجب أن يعمم نموذجها على باقي مناطق العالم مترافقا مع العولمة التي تهدف لإلغاء الحدود الوطنية أمام حركة السلع ورؤوس الأموال. لذلك كتب فوكوياما كتابه "نهاية التاريخ". ولقد نشرت كتب غير قليلة تحلل تناقضات النظام الرأسمالي الليبرالي والمشكلات البنيوية الكبيرة التي يواجهها على الصُعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومن هذه الكتب "لماذا فشلت الليبرالية" الذي اخترنا تقديم قراءة عنه لمؤلفه باتريك دينين، أستاذ العلوم السياسية والدراسات الدستورية في جامعة نوتردام في الولايات المتحدة، ترجمة يعقوب عبد الرحمن والصادر عن سلسلة عالم المعرفة الكويتية، 483، أبريل 2020.

يضم الكتاب سبعة فصول إضافة إلى المقدمة والخاتمة، عالجت: الليبرالية غير المستدامة، توحيد الفردية والدولتية، الليبرالية بوصفها مناهضة للثقافة، التكنولوجيا وفقدان الحرية، الليبرالية ضد العلوم الإنسانية، الأرستقراطية الجديدة، وامتهان المواطنة. يقع الكتاب في 239 صفحة.

نهاية الليبرالية

في المقدمة التي جاءت بعنوان "نهاية الليبرالية" يذكر المؤلف، بأنه يعتقد قرابة 70 في المئة من الشعب الأمريكي حاليا أن بلادهم تسير في الاتجاه الخاطئ، كما يعتقد نصف السكان أن أفضل أيام بلادهم قد ولت إلى غير رجعة. ويعتقد معظم هؤلاء المواطنين أن أطفالهم سيكونون أقل ازدهارا، وأنه ستتاح لهم فرص أقل من تلك التي أُتيحت للأجيال السابقة. وتُظهر كل مؤسسة حكومية مستويات منخفضة من ثقة عامة المواطنين فيها، وينعكس التشاؤم العميق تجاه السياسة في الانتفاض على جميع الطيف السياسي ضد النخب السياسية والاقتصادية. إن الانتخابات التي كان يُنظر إليها في يوم من الأيام باعتبارها احتفالات عامة منظمة تنظيما جيدا تستهدف إضفاء الشرعية على الديمقراطية الليبرالية، تعتبر

على نحو متزايد دليلا على نظام مزوَّر مُحكم وفاسد. من الواضح للجميع أن النظام السياسي مُعطَّل والنسيج الاجتماعي يهترئ، خصوصا مع تزايد الفجوة بين الأثرياء الذين يملكون والمهمشين الذين لا يملكون، ومازال الخلاف العميق قائما حول دور أمريكا في العالم (ص 28).

تعتبر الدعوة إلى علاج أمراض الليبرالية من خلال تطبيق المزيد من الإجراءات الليبرالية بمثابة إلقاء مزيد من الزيت على نار مستعرة. ذلك لن يؤدي إلا إلى تعميق الأزمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

يشارف مواطنو الديمقراطيات المتقدمة على الثورة ضد حكوماتهم، ضد "المؤسسة" وضد السياسيين الذين اختاروهم بأنفسهم باعتبارهم قادة لهم وممثلين عنهم. إذ تنظر الأغلبية الساحقة إلى حكوماتها باعتبارها بعيدة عنها وغير مستجيبة، وواقعة في قبضة الأغنياء، وتحكم فقط لمصلحة الأقوياء. فقد بشرت الليبرالية في مستهل عهدها باقتلاع طبقة ارستقراطية قديمة باسم الحرية؛ ولكن بينما تزيل كل آثار نظام قديم، فإن ورثة أسلافهم المناهضين للأرستقراطية المستبشرين يعتبرون استبدالها نوعا جديدا من الأرستقراطية التي ربما تكون أكثر فتكا (ص 32).

حاجج ماركس ذات مرة بأن أكبر مصدر للسخط الاقتصادي لم يكن بالضرورة هو عدم المساواة بل الاغتراب - انسلاخ العامل عن المنتج وما يصاحب ذلك من فقدان أي صلة بغاية وهدف جهود الفرد. لا يحافظ اقتصاد اليوم على هذا الاغتراب ويوسع نطاقة فقط، بل يضيف له شكلا جديدا وعميقا من الاغتراب الجغرافي، والفصل المادي بين المستفيدين من الاقتصاد المعولم عن أولئك الذين تخلّفوا عن الركب.

علما أن ماركس يشير إلى أن التسوية التي هي حقيقة المساواة في عملية التبادل تنتهي إلى أن تقطع كل علاقة اجتماعية حقيقية بين الأفراد وتجعل العلاقة الوحيدة بينهم هي علاقتهم باعتبارهم أجسادا. هكذا يختزل التبادل السلعي الأفراد إلى أجسادهم بعد أن يلغي وجودهم الاجتماعي بالكامل [1].

ويبرز المؤلف القول بأن الليبرالية تركتنا في حالة هشة تكون فيها مجالات الحياة التي يُفترض أن تحررنا خارجة تماما عن سيطرتنا. يشير هذا إلى أن الفرد كان طوال الوقت "أداة" للنظام الليبرالي، وليس -كما كان الاعتقاد- أن الأمر عكس ذلك.

الخطوة الأكثر تحديا والتي يجب أن نتخذها هي رفض الاعتقاد أن أمراض المجتمع الليبرالي يمكن إصلاحها من خلال تحقيق الليبرالية. السبيل الوحيد للتحرر من الحتميات والقوى التي لا يمكن التحكم فيها والتي تفرضها الليبرالية هي التحرر من الليبرالية نفسها.

إن أكبر تهديد حالي لليبرالية لا يكمن خارجها أو بعيدا عنها ولكن في داخلها. تنبع قوة هذا التهديد من الطبيعة الجوهرية لليبرالية، مما يعتقد أنها نقاط قوتها بالذات – بصفة خاصة إيمانها بقدرتها على تصحيح نفسها وإيمانها بالتقدم والتحسين المستمر- ما يجعلها غير قادرة إلى حد بعيد على إدراك أعمق نقاط ضعفها، حتى التدهور الذي تلحقه بنفسها (ص 51 - 52).

الليبرالية غير المستدامة

تحوم الآن شكوك متزايدة حول ما إذا كان الوعد بالنمو يمكن أن يستمر إلى الأبد. فقد واجهت البشرية القيود التي فرضتها الطبيعة، حيث تصبح تكاليف النمو الاقتصادي لحقبة بلغت قرنين واضحة بصورة متزايدة في التغير المناخي المتسارع اليوم.

انكبت الليبرالية في المجالين المادي والاقتصادي على استنزاف مستودعات المواد الموجودة منذ الأزل في سعيها لإخضاع الطبيعية. وبغض النظر عن البرامج السياسية لقادة اليوم فإن استنزاف مزيد من ذلك هو برنامج لا نزاع فيه. لا تعمل الليبرالية إلا عن طريق الزيادة المستمرة للسلع الاستهلاكية، ومن ثم بالتوازي مع التوسع المستمر لغزو الطبيعة والسيطرة عليها. لا يمكن أن يطمح أي شخص في الوصول إلى منصب في القيادة السياسية من خلال المطالبة بوضع حد للاستنزاف المستمر للطبيعة وضبط النفس.

لا ينجم التوسع في الأسواق وتشييد البنى التحتية الضرورية لهذا التوسع عن "ترتيب عفوي" بل يتطلب الأمر وجود بنية لدولة شاملة ومتنامية، والتي تستلزم بدورها في بعض الأحيان انتزاع الخضوع من المشاركين المتمرّدين أو العازفين من النظام. في بداية الأمر يُبذل هذا الجهد على مستوى الاقتصاد الوطني، حيث يتعين على الدولة تطبيق عقلنة وفرض أسواق حديثة عديمة الشخصية. غير أنه في نهاية المطاف يصبح هذا المشروع محركا أساسيا

للإمبريالية الليبرالية، وهي ضرورة يبررها، من بين آخرين، جون ستيوارت ميل في بحثه "اعتبارات بشأن الحكومة التمثيلية" والتي يدعو فيها إلى إكراه الشعوب "غير المتحضرة" على أن تعيش حياة اقتصادية منتجة، حتى لو كان من خلال "إجبارها على ذلك بالقوة"، بما في ذلك من خلال مؤسسة "العبودية الشخصية" (ص 71).

إن الثقافة السليمة تشبه الزراعة السليمة، فهي شكل واضح من أشكال البراعة الإنسانية، الزراعة التي تأخذ في الاعتبار الظروف المحلية للمكان تستهدف الحفاظ على خصوبة التربة على مر الأجيال، ومن ثم يجب أن تتعامل مع الحقائق الطبيعية الموجودة، لا أن تتعامل مع الطبيعة باعتبارها عقبة أمام نيل الشهوات غير المحدودة. تعمل الزراعة الصناعية الحديثة وفق النموذج الليبرالي

الذي يتضمن التغلب على الحدود الطبيعية من خلال تبني حلول قصيرة الأجل والتي سوف تترك آثارها على أجيال المستقبل. تشمل هذه الحلول إدخال الأسمدة القائمة على المشتقات النفطية التي تزيد من غلة المحاصيل، ولكنها تسهم في وجود مناطق تفتقر إلى الأكسجين في البحيرات والمحيطات. وكذلك استخدام المحاصيل المهندسة وراثيا والتي تشجع على زيادة استخدام مبيدات الأعشاب والحشرات والتي لا يمكن احتواء اتجاهاتها الوراثية أو التنبؤ بها. واستخدام المضادات الحيوية للماشية والتي ساعدت على تسارع الطفرات الوراثية للبكتيريا، ومن ثم قللت من فائدة هذ الأدوية للبشر. ويعتمد هذا النهج على القضاء على الثقافات الزراعية الموجودة. ويزعم أنه يتطلع إلى المستقبل، بيد أنه عالق في الحاضر بعمق.

في الوقت الذي يتجادل فيه الفاعلون السياسيون الرئيسون بشأن ما إذا كانت الدولة الليبرالية أو السوق هي التي تحمي المواطن بنحو أفضل، فإنهما يتعاونان في نزع أحشاء الثقافات الحقيقية. إذ يعزز كلٌ من الهياكل القانونية الليبرالية ونظام السوق بنحو متبادل تفكيك التنوع الثقافي لمصلحة ثقافة أحادية قانونية واقتصادية، أو على نحو أكثر دقة، مناهضة أحادية للثقافة، حيث يصبح الأفراد المحررون والمزاحون من تواريخ وممارسات معينة، قابلين للاستبدال داخل نظام سياسي-اقتصادي يتطلب أجزاء قابلة للاستبدال عالميا (ص 98).

يتم تجنب إلقاء اللوم على الفيسبوك باعتباره سببا في تفشي وباء الشعور بالوحدة. ويُذكر عوضا عن ذلك أن الفيسبوك، والتقنيات المشابهة له، قد يسّرت أو حتى مكنت من نزعة موجودة مسبقا تتمثل في الرغبة الدفينة لدى الأمريكيين منذ أمد بعيد في أن يكونوا مستقلين وأحرارا. وهكذا يعتبر الفيسبوك أداة تستثير الشعور بالوحدة من مجموعة أعمق من الالتزامات الفلسفية والسياسية وحتى اللاهوتية. كما يشير ماركي "الوحدة هي واحدة من أول الأشياء التي ينفق الأمريكيون أموالهم لتحقيقها... نحن نشعر بالوحدة لأننا نريد أن نكون وحيدين. نحن جعلنا أنفسنا وحيدين". ويكتب قائلا إن تقنيات مثل الفيسبوك "هي منتج ثانوي لرغبة وطنية طويلة الأمد في الاستقلال". تلك الرغبة هي في حد ذاتها نتيجة لإعادة تعريف طبيعة الحرية (ص 116 - 117).

التعليم

يهجر الطلاب وأعضاء هيئة التدريس على حد سواء التركيز على العلوم الإنسانية. ويشعر الطلاب في خضم حريتهم على نحو متزايد بأنه ليس لديهم خيار سوى متابعة أكثر التخصصات عملية، والابتعاد عن الموضوعات التي يمكن أن يجذبهم إليها الفضول الطبيعي المتأصل لديهم، خضوعا لمتطلبات السوق. وليست هناك أي غرابة في أن عدد التخصصات في الإنسانيات مستمر في الانخفاض على نحو كبير.

أولئك الذين هم في وضع أفضل للدفاع عن دور الإنسانيات في قلب العلوم الإنسانية -أعضاء هيئة التدريس- يتحسرون من ناحية على هذا الانهيار، لكنهم ينحون باللائمة

على المسؤولين وعلى "النيوليبرالية". وهم يفشلون في رؤية أن التعامل مع العلوم الإنسانية هو انعكاس أكثر عمقا للنظام الليبرالي أكثر من كونه موقف مقاومة. فشل أعضاء هيئة تدريس العلوم الإنسانية في تحدي الاتجاهات الليبرالية السائدة، فضلا عن مقاومتها، ناتج عن عجز واسع النطاق في التشخيص السليم لمصدر القوى التي تصطف ضد العلوم الإنسانية.

ومع ذلك يلتفت المرء من حوله باحثا من دون جدوى عن رئيس جامعة أو عميد كلية -خصوصا في صفوف النخبة- يقر بوجود مسؤولية كبيرة من جانب مؤسساتهم عن فشلنا وفشل طلابنا أيضا بحسب المؤلف. في نهاية المطاف كان الخريجون البارزون في مؤسسات النخبة في الولايات المتحدة هم من احتلوا الأماكن المرموقة في المؤسسات المالية والسياسية العليا في جميع أنحاء البلاد، والذين كانوا مسؤولين عن التعجيل بالأزمة الاقتصادية. احتل خريجو مؤسسات النخبة أماكن القوة والنفوذ في النظام الاقتصادي للبلاد. ويتساءل المؤلف، ماذا عن هؤلاء الخريجين الذين ساعدوا في تعزيز بيئة من الجشع وخطط الثراء السريع؟ هل نحن مطمئنون تماما أنهم لم يعوا جيدا الدروس التي تعلموها في كلياتهم؟ (ص 138).

إن النظام التعليمي الذي تحوَّل إلى أداة ليبرالية، هو أيضا في نهاية المطاف الخلق المنهجي لأرستقراطية جديدة للقوي ضد الضعيف. ذروة الليبرالية في نهاية المطاف هي مجتمع طبقي عميق، وهي حالة يبدي إزاءها الليبراليون مشاعر الأسى حتى وهم يسهمون بطرق متعددة في استمراريتها، بصفة خاصة من خلال مؤسساتها التعليمية.

وهكذا فإن نجاح الليبرالية يعزز ظروف فشلها: فبعد أن ادعت أنها أدت إلى سقوط الحكم الأرستقراطي العائد للأقوياء ضد الضعفاء، فإنها تبلغ أوجها بأرستقراطية جديدة، أكثر قوة، والتي تقاتل بلا توقف من أجل الحفاظ على هياكل الظلم الليبرالي.

الليبرالية وعدم المساواة

هذا هو أكثر الرهانات جوهرية لليبرالية: استبدال نظام غير عادل وظالم بنظام آخر يحافظ على عدم المساواة، والذي يتحقق ليس من خلال القمع والعنف ولكن من خلال الإذعان الكامل من قبل المواطنين، ويستند إلى التقديم المستمر للازدهار المادي المتزايد بالإضافة إلى الاحتمال النظري لقابلية الانتقال ما بين الطبقات.

يواصل الليبراليون التقليديون اليوم تقديم هذه التسوية ليس باعتبارها مقبولة فقط ولكن باعتبارها تستحق الاحتفاء. فبعد قرون من جون لوك، لخص الرئيس جون كندي هذا الرهان بالوعد بأن "مدا مرتفعا يرفع كل القوارب"، وقد ردد صدى هذه المقولة في كثير من الأحيان الرئيس رونالد ريغان. كانت أطروحة لوك تقول إن النمو الجاري والمستمر للثروة والازدهار يمكن أن يكون بديلا للتماسك الاجتماعي والتضامن. كما فهم الليبرالي فريدريك حايك، إن المجتمع الذي يحتض "التقدم الاقتصادي السريع" سوف يشجع بالضرورة عدم المساواة.

يعترف حايك بأن المجتمع الليبرالي سيولد قدرا من عدم المساواة مساويا لما ولده النظام السابق الذي حل محله، أو حتى أكثر من ذلك، ولكن وعد التغيير والتقدم المستمرين سوف يضمن أن الجميع يدعم

النظام الليبرالي. إنه واثق بأنه حتى عدم المساواة الضخمة المحتملة – التي تفوق بكثير الاختلافات بين الفلاح والملك- سوف يؤدي على الرغم من ذلك إلى تأييد عالمي تقريبا لمثل هذا النظام السياسي والاقتصادي.

بالإضافة إلى مواجهة تناقص احتمالات أن تخلق رأسمالية السوق رخاء متزايدا لكل المجتمع. أثبتت السنوات الأخيرة، منطقا مدعاة للمفارقة داخل رأسمالية السوق – بالتحديد الجهود الدائمة لكبح الأجور إما من خلال أيجاد أسواق جديدة منخفضة الأجور وإما استبدال البشر بالآلات- سوف يختزل بنحو متزايد كل أنماط العمل ما عدا القليل منها إلى الأعمال الشاقة والمهينة. وقد أدى هذا الاعتراف إلى العودة إلى الرهان الأساسي للوك بأن النظام الذي يوفر الراحة المادية، بغض النظر عن اتساع حجم عدم المساواة، وغياب احتمالات النمو والحراك والتنقل بين الطبقات، من شأنه مع كل ذلك أن يرضي معظم أفراد المجتمع. وأحدث التأملات عن المذهب الليبرالي عند لوك هو للاقتصادي تايلر كوين، الذي يعكس كتابه "الوسط قد انتهى" الخطوط الأساسية لحجة لوك. إذ يشير إلى أن الليبرالية والرأسمالية تديمان أشكالا ضخمة ودائمة من عدم المساواة، والتي يمكن أن تجعل أدوقة العصور الماضية يشعرون بالخجل أمامها، فإن كوين يحاجج بأننا في نهاية حقبة فريدة من نوعها في التاريخ الأمريكي، زمن يسود فيه إيمان على نطاق واسع بالمساواة النسبية ومصير مدني مشترك، ودخول عصر نرى فيه بشكل فاعل كيف تُخلق أمتان منفصلتان. لكن كوين يخلص مع ذلك في الفصل الختامي المعنون "عقد اجتماعي جديد" إلى أن الليبرالية ستستمر في التمتع بدعم واسع النطاق (ص 149 - 151).

يدعي بعض الكتاب أن عدم المساواة العميقة يمكن تخفيفه من خلال تقديم النصح الأخلاقي، بينما يزعم آخرون أن الحكومة يمكنها أن تحل محل المجتمع المدني، وأن تعيد بناء الأسرة التي نزعت الليبرالوقراطية أحشاءها. ينظر كل من الجانبين إلى عدم المساواة بين الأجيال على اعتبار أنه انحراف، بدلا من إدراك أنه إنجاز أساسي للنظام الليبرالي.

وإزاء ذلك يبرز المؤلف حقيقة أن الأرستقراطية الصناعية في عصرنا الحاضر، بعدما افقرت الفئات التي تستغلها تتخلى عنهم في وقت أزماتهم، وتتركهم أمام أبواب المؤسسات الخيرية العامة يتسولون طعامهم. هناك علاقات منتظمة بين العامل والسيد، ولكن لا يوجد ارتباط حقيقي بينهما.

تعمق التفاوت الطبقي

حاجج جون ستيورات ميل بأنه في المجتمعات الأقل تقدما، يمكن أن يكون الاستعباد الخالص للسكان المتخلّفين ضروريا حتى يمكن وضعهم على المسار الصحيح للتقدم التدريجي بدرجة كافية. هذا يعني، إجبارهم على العمل والاهتمام بالإنتاج الاقتصادي أكثر من النشاطات التي ليس لها عائد. ويعقب المؤلف على ذلك بالقول كان مجتمعنا ذات يوم مشكلا على أساس المنفعة للكثير من الناس العاديين، ويتشكل اليوم إلى حد بعيد لمصلحة القلة من الأقوياء.

يُحَّدد مجتمعنا بنحو متزايد من خلال الرابحين والخاسرين اقتصاديا، حيث يحتشد الرابحون في المدن الغنية والمقاطعات المحيطة بها، بينما يظل الخاسرون إلى حد كبير في أماكنهم ويغمرهم اقتصاد عالمي يكافئ النخبة المعرفية راقية التعليم بينما يقدم فتات الخبز لأولئك المنسيين في "الولايات المنسية" التي تقع بين الشرق والساحل الغربي للولايات المتحدة. الاتجاهات التي لاحظها روبرت رايش وكريستوفر لاش منذ عقود مضت، واللذان انتقدا بقسوة "انشقاق الناجحين" و"ثورة النخبة"، أصبحت في الوقت الحالي ذات طابع مؤسسي من خلال الأسرة، والحي السكني، والمدارس، وتُستنسخ من خلال التعاقب الجيلي. يتلقى أطفال أولئك الناجحين إعدادا للدخول إلى الطبقة الحاكمة، بينما يكون أولئك الذين يفتقرون إلى تلك المؤهلات أقل قدرة على توفير الشروط الأساسية اللازمة لدفع أطفالهم إلى المستويات العُليا وأقل معرفة بها (ص 158).

تقييد الديمقراطية

تعتبر الديمقراطية أداة مشرعنة مقبولة فقط مادامت ممارساتها توجد داخل الافتراضات الليبرالية وتدعمها على نطاق واسع. عندما ترفض أغلبيات ديمقراطية جوانب من الليبرالية- كما فعل ناخبون في جميع أنحاء أوروبا الغربية وأمريكا في السنوات الأخيرة- فإن مجموعة متنامية من الأصوات البارزة تنتقد الديمقراطية وعدم حكمة الجماهير. لقد قيمت النخب الأمريكية بشكل دوري إمكانية تقييد الديمقراطية بشدة، معتقدين أن الديمقراطية ستقوض السياسات التي يفضلها الخبراء. أصبح هؤلاء الذين يؤيدون توسيع الليبرالية إلى ما وراء حدود الدولة القومية، ومن ثم السياسات التي تزيد من التكامل الاقتصادي والمحو الفعال للحدود، مناصرين على نحو متزايد لتقييد الديمقراطية. أحد أولئك الخبراء المختصين هو جيسون برينان الذي حاجج في كتابه "ضد الديمقراطية" بأن الناخبين معلوماتهم مغلوطة باستمرار بل هم جاهلون، وأن الحكومة الديمقراطية سوف تعكس أوجه القصور لدى الناخبين في نهاية المطاف. يعتقد الليبراليون الآخرون من ذوي الميول الليبرتارية أنه عندما تهدد الديمقراطية الالتزامات الجوهرية لليبرالية، فقد يكون من الأفضل التفكير ببساطة في وسائل التخلي عن الديمقراطية. وبدل من ذلك دعا برينان إلى الحكم من قبل "إبستوقراطية" وهي نخبة حاكمة تتمتع بمعرفة مجرَّبة لتحكم بكفاءة وفعالية الدولة الليبرالية والرأسمالية الحديثة والنظام الاجتماعي (161 - 165).

ويلفت المؤلف الانتباه إلى مسألة هامة وهي أن من الغريب، وربما من الخطأ، مناقشة "الكفاءة الديمقراطية" للعامة من الناس في أمريكا، بالنظر إلى أن نظام الحكم الذي صُمّم بوضوح من قبل واضعيه لم يُقصد أن يكون ديمقراطيا. جادل واضعو الدستور والمدافعون عنه باسم القانون الأساسي برفضهم الصريح لفكرة أن الدستور سوف يؤدي إلى الديمقراطية. لقد سعوا إلى إقامة جمهورية، وليس دمقراطية. كما كتب جيمس ماديسون في "فدِراليست 10": "من هنا فقد كانت الديمقراطيات مسارح للاضطرابات والمنازعات أكثر من أي

وقت مضى: دائما ما وجدت متعارضة مع الأمن الشخصي أو حقوق الملكية؛ وكانت بوجه عام قصيرة في فترة حياتها بمثل ما كانت متسمة بالعنف في موتها. لقد أخطأ الساسة النظريون الذين رعوا هذا النوع من الحكم، بافتراض أنه باختزال البشر إلى مساواة تامة في حقوقهم السياسية، فإنهم في الوقت نفسه سوف يتساوون مندمجين في ممتلكاتهم وآرائهم وأهوائهم" (ص 170).

خاتمة

يستنتج المؤلف في الخاتمة، لقد فشلت الليبرالية لأن الليبرالية قد نجحت. وهي تُصيّر نفسها مكتملة، تنتج الليبرالية أمراضا متوطنة بنحو أسرع وأكثر انتشارا من قدرتها على انتاج حُجب لتغطيتها. النتيجة هي التعتيم المستمر والمنهجي في السياسات الانتخابية والحوكمة والاقتصاد وفقدان الثقة بل بالشرعية بين المواطنين، والتي تتراكم ليست باعتبارها مشكلات محددة و منفصلة يجب حلها داخل الإطار الليبرالي بل باعتبارها أزمات مترابطة بعمق بالشرعية ودلائل مُنذرة بحلول نهاية الليبرالية.

إن "الأزمة التي تواجه العالم الغربي ليست مؤقتة وإنما هي علامة على تغير عميق يشمل النظام الاقتصادي والاجتماعي بأكمله وستكون لها نتائج بعيدة المدى". تلك هي أطروحة كتاب "حالة تأزم" الذي نشره البولندي زيغمونت باومان والإيطالي كارلو بوردوني عام 2014 [2].

بحسب المؤلف، يجب الاعتراف بإنجازات الليبرالية، ويجب تجنب الرغبة في "العودة" إلى حقبة ما قبل الليبرالية. يجب أن نبني على تلك الإنجازات مع التخلي عن الأسباب الأساسية لفشلها. لا يمكن أن تكون هناك عودة إلى الوراء، فقط تحرك إلى الأمام.

وعلى الرغم من ذلك، فمن المرجح من الدروس المستفادة من داخل هذه المجتمعات أن تنشأ نظرية سياسية ما بعد ليبرالية قابلة للحياة، والتي تبدأ بافتراضات أنثروبولوجية مختلفة اختلافا جذريا، ولا تنشأ من حالة مفترضة للطبيعة أو تنتهي بدولة سوق ممتطيتين للعالم. ومع زوال النظام الليبرالي سوف يُنظر إلى الثقافات المضادة لها باعتبارها ضروريات (ص 196 - 197).

هكذا نرى على الرغم من أهمية الكتاب في تشخصيه لأزمات النظام الرأسمالي البنيوية في ظل الليبرالية فإن المؤلف لم يطرح بديلا نظريا واضحا ولم يعول على أهمية الصراع الطبقي والاجتماعي في إيجاد هذا البديل ويبدو أنه لا يعد الاشتراكية بديلا قادما للنظام الرأسمالي بكل أزماته المتراكمة.

الهوامش:

1. أشرف منصور، الليبرالية الجديدة: جذورها الفكرية وأبعادها الاقتصادية، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2008، ص 66.
2. سعد البازعي، "العقل الأوروبي... قرن من الأزمات"، الشرق الأوسط، 4 تموز 2022.

نصوص قديمة

كسر الحلقة الشريرة *

محمد ابراهيم نقد
السكرتير العام للجنة المركزية
للحزب الشيوعي السوداني

كيف نكسر الحلقة الشريرة التي احاطت بالتطور السياسي الاجتماعي للسودان، وأبقته في أسارها منذ نيله الاستقلال في مطلع عام 1956، والمتمثلة في نظام حكم برلمان برجوازي على نمط وستمنستر (البريطاني – ث.ج) يقطع مساره انقلاب عسكري يفرض نظام الدكتاتورية العسكرية، يطيح بها جموع الشعب في تحالف واسع طبقي وفئوي وسياسي عام من اضراب سياسي وانتفاضة شعبية، ترفع الى سلطة حكومية انتقالية مؤقتة لفترة ستة اشهر او سنة تعبر بهذا القدر او ذاك عن توازن قوى الانتفاضة وفق ميثاق سياسي، ثم تجري انتخابات برلمانية وفق قانون انتخابات تقليدي، تتمخض عن نظام برلماني، ثم يخيم شبح الانقلاب العسكري من جديد؟

من جملة 33 عاما لاستقلال السودان السياسي، دامت الدكتاتورية العسكرية الاولى والثانية 22 عاما، ولم يستمر النظام البرلماني سوى احد عشر عاما لثلاث فترات متقطعة، تخللتها فترتان انتقاليتان لعام ونصف العام مارس فيها شعب السودان قدرا معينا من الديمقراطية المباشرة من حيث الشكل السياسي وتركيب السلطة السياسية - دون مساس بالتركيبة الاقتصادية الاجتماعية، والنظام الاقتصادي الاجتماعي ومصالح الطبقات والفئات السائدة.

الفترة 1954 – 1956، ثم 1956 – 1958 النظام البرلماني الاول الذي انتقل بالبلاد من فترة الحكم الذاتي وجلاء القوات والادارة الاستعمارية وأعلن الاستقلال. الفترة 1958 – 1964 الدكتاتورية العسكرية الاولى لكبار الجنرالات، اكتوبر 1964 – حزيران (يونيو) 1965 الاضراب السياسي والانتفاضة التي اسقطت الدكتاتورية العسكرية، وكونت حكومة انتقالية تمثل الاحزاب السياسية بما فيها الحزب الشيوعي، وكذلك النقابات والاتحادات بما فيها العمال والمزارعون، ثم اجراء الانتخابات وقيام النظام البرلماني حتى أيار (مايو) 1969، حيث وقع الانقلاب العسكري الثاني بقيادة صغار الضباط وبشعارات ذات طابع اشتراكي على النمط الناصري والتجربة المصرية. واستمرت الدكتاتورية العسكرية الثانية، وانبثقت عنها حكومة انتقالية "مستقلة" بلا تمثيل للأحزاب أو العمال والمزارعين، اضافة الى فارق آخر، هو تدخل كبار الجنرالات واستلام السلطة بمجلس عسكري انتقالي

أعلن تصفية المؤسسات السياسية للدكتاتورية العسكرية وعزل النميريين والاتفاق مع ممثلي الاحزاب والنقابات والاتحادات على تحديد فترة الانتقال بمدة سنة جرت خلالها الانتخابات التي تمخضت عن النظام البرلماني الثالث والمستمر حاليا.

تزيد الصورة العامة وضوحا ببعض الهوامش، التي قد لا تختلف عما يحدث في العديد من بلدان العالم الثالث، لكنها تقترب بالقارئ من مميزات وتفرد التجربة السودانية.

أولا: انحياز مجموعات مؤثرة من الضباط والجنود الى جانب الحركة الشعبية طيلة سنوات الدكتاتورية العسكرية الاولى والثانية سواء بمحاولات الانقلاب المتكررة وهزيمتها الدموية، ام من لحظات الاضراب السياسي والانتفاضة الحاسمة بالضغط على قيادة الجيش والسلطة بالتنحي عن الحكم والنزول لإرادة الشعب واستعادة الحرية السياسية، ورفض انزال الجيش الى الشارع لقمع الاضراب السياسي والانتفاضة. هذا عامل ثابت في الصراع السياسي الاجتماعي في السودان، يتكرر بالضرورة اذا تكررت تجربة الدكتاتورية في المستقبل.

ثانيا: الانظمة البرلمانية البرجوازية الثلاثة تستند الى اغلبية برلمانية لأحزاب الرأسمالية شبه الاقطاع (أو شبه الاقطاع القبلي الطائفي الذي انتقل للنشاط الرأسمالي) وتشابكت مصالحه بل وانصهرت مع مصالح فئات الرأسمالية السودانية التقليدية التجارية والحديثة في الصناعة والتجارة الخارجية وتوكيلات رأس المال الاجنبي والنشاط المصرفي، والعقارات والنقل والمواصلات والتخزين والخدمات، وفوق هذا وذاك البيروقراطية الرأسمالية المدنية والعسكرية. لكن انتقال شبه الاقطاع الطائفي القبلي للنشاط الرأسمالي وتشابك مصالحه مع فئات الرأسمالية المتعددة، لا يعني انه فقد نفوذه الايديولوجي على جماهير الطائفة الدينية. صحيح ان اقساما من تلك الجماهير تتمرد وتتحرر في مستوى الطلائع، لكن الاغلبية الساحقة تظل اسيرة لنفوذ قادة القبيلة وقادة الطائفة. ليس هذا وحسب، بل وتعمل الفئات الرأسمالية الأخرى على ابقاء ذلك النفوذ وتسخيره لمصالحها السياسية، وتلك سمة من سمات تخلف الرأسمالية السودانية عن ان تلعب دور اختها الاوربية في الثورة البرجوازية الديمقراطية.

ثالثا: عجز حكومات الرأسمالية شبه الاقطاع عن حل المعضلات السياسية الاجتماعية الثقافية، لمرحلة ما بعد الاستقلال، كان وما يزال الثغرة التي ينفذ منها ويتسلل عبرها الانقلاب العسكري، ويكتسب بها "شرعيته" او مبرراته وفرض الدكتاتورية العسكرية.

رابعا: برغم ما يعلنه العسكريون عند الاستيلاء على السلطة من محاربة للفساد الحزبي، واستعادة الامن والنظام بعد الفوضى الحزبية، والحد من الثراء الحرام والرشوة وتبديد موارد الدولة، وتحقيق العدالة الاجتماعية وربما تحقيق الاشتراكية، فان الحصيلة النهائية للدكتاتورية العسكرية الاولى من

مواقع الشعارات اليمينية الاصلاحية، وللدكتاتورية العسكرية الثانية من مواقع الشعارات اليسارية الثورية الاشتراكية، كانت تسريع وتائر التراكم الرأسمالي، واتساع صفوف الرأسمالية السودانية وتركيز رأس المال، واستخدام جهاز الدولة وقطاعه العام، وبصفة خاصة البنوك والمؤسسات المؤممة، كأداة اساسية للتراكم الرأسمالي، وصعود فئات من البرجوازية الصغيرة لمصاف الرأسمالية، من بينها شرائح كاملة كانت في مقدمة الحركة الثورية والحزب الشيوعي، وانخراط قيادات نقابية في تراتبية بيروقراطية: جهاز الدولة وجهاز الامن والهيئات العليا للتنظيم السياسي الرسمي الواحد.... كما كسبت الرأسمالية السودانية مزيدا من الوعي ومزيدا من الافصاح عن مصالحها، وبصفة خاصة من الصراع الواعي المنظم والمخطط ضد حركة الطبقة العاملة والكادحين في المدينة والريف بصعود فئات وشرائح البرجوازية الصغيرة والقيادات النقابية الى صفوفها- اذ لم يعد اولئك القادة النقابيون والثوريون والشيوعيون السابقون مجرد انتهازيين يدافعون عن مصالح وأفكار الرأسمالية داخل حركة الطبقة العاملة والحركة الثورية، بل اصبحوا عضويا جزءاً من الرأسمالية، وامتلأ الفراغ بالضرورة بعناصر ومجموعات انتهازية و"يسارية" داخل حركة الطبقة العاملة والحركة الثورية أكثر خطورة، كنتيجة حتمية لزيادة حدّة الصراع الطبقي على الصعيد الايديولوجي.

خامسا: خلال الدكتاتورية العسكرية الاولى والثانية، تصدعت متاريس السيادة الوطنية، وتوافدت الاحتكارات الاجنبية بأشكالها القديمة وفي شكلها الحديث: المتعدد الجنسيات - وتحكمت مؤسساتها الدولية، كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، في ادارة الاقتصاد السوداني والقرار السياسي الاقتصادي، وأصبحت روشتة (وصفة – ث.ج) صندوق النقد الدولي الدواء، الذي فقد فعاليته، للأمراض المزمنة: عجز ميزان المدفوعات، وعجز الميزانية السنوية، والاستدانة من النظام المصرفي، وتقلص القطاعات الانتاجية كالزراعة والصناعة، وانهيار الخدمات كالصحة والتعليم. واكتمل دور جهاز الدولة كآلة لتفقيس الرأسمالية، واحتلت مواقع المقدمة وأصبحت ضابط الايقاع مجموعتان اجتماعيتان: فئة الرأسمالية الطفيلية، وفئة التكنوقراط. وأضافت الدكتاتورية العسكرية الثانية فئة طفيلية ذات طابع خاص، هي الطفيلية الإسلامية، التي ازدهرت عندما اعلن نميري ان حكمه قد نبذ الصيغة الوافدة من اوربا وانتقل الى صيغة الحكم الاسلامي وتطبيق الشريعة الاسلامية. فنشأت بنوك اسلامية برؤوس اموال سعودية وخليجية، تدعي رفض التعامل بسعر الفائدة الذي يحرمه الاسلام (وهذه واحدة من الخطوات الاصلاحية الكبيرة الى جانب خطوات عديدة اخرى فرضها الاسلام من القرن السابع لمصلحة الفقراء والمعدمين وصغار التجار وصغار المنتجين ضد الرأسمال الربوي) ولهذا حصرت هذه البنوك نشاطها المصرفي في تمويل العمليات التجارية قصيرة المدى، كما

حصرت تقديم تسهيلاتها الائتمانية في اطار سياسي محدد بالافراد الذين ينتمون لحزب الاخوان المسلمين أو المتعاطفين معهم. هذا اضافة الى الدور العام الذي لعبه رأس مال دول البترول في السعودية والخليج في توسيع صفوف الرأسمالية السودانية عموما والفئات الطفيلية منها بصفة خاصة.

نختتم الهوامش الخمسة بما يزيل أي التباس نظري، فنقول ان تعبير فئة رأسمالية طفيلية قد اكتسب حق التداول في اللغة السياسية، ونحن نستخدمه دون ان تغيب عنا مقولات ومفاهيم الماركسية عن الطبقة الرأسمالية ككل وانها تاريخيا نشأت وراكمت رؤوس اموالها من فائض قيمة العمال في الانتاج المباشر، وتقتسمه مع بقية الفئات ريعا او ربحا او فائدة ... الخ من الفائض المسروق من عمليات التبادل اللامتكافئ خارج العملية الإنتاجية – وبهذه الصفة فهي طفيلية في مجموعها وبكل فئاتها، لكن تعبير رأسمالية طفيلية، نستخدمه في السودان، لتلك الفئة المحددة والمعروفة التكوين العضوي بالأفراد وبأسمائهم، التي لم يكن لافرادها نشاط رأسمالي سابق من أي نوع، بل استغلت ارتباطاتها بالزمرة العسكرية الحاكمة وحصلت على تسهيلات من المصارف، وعلى الرخص التجارية، وعلى التوكيلات للشركات الاجنبية، ومارست السرقة المباشرة للمال العام نقدا من الخزينة، او من ميزانيات وعمولات مؤسسات القطاع العام، فضلا عن حيازة الاراضي الزراعية والسكنية، وعمولات الصفقات مع الشركات الاجنبية... الخ. وفرضت نمط الانفاق البذخي والاستهلاكي، وخربت قطاع الانتاج، سواء بتهريب الفائض الاقتصادي الى الخارج، او توظيفه بعيدا عن قطاعات الانتاج والخدمات الضرورية. ومن جانب آخر، فاننا نفضل استخدام هذا التعبير في السودان، لأنه اقرب الى التعبير عن نموذج تطور الطبقة الرأسمالية السودانية من تعبير الكومبرادور الذي وفد إلينا من مؤلفات قادة الحزب الشيوعي الصيني وخصائص تطور الرأسمالية في الصين.

نواصل بحثنا عن الخروج من دوامة نظام برلماني – دكتاتورية عسكرية - اضراب سياسي وانتفاضة والعودة للمربع الاول، فنقول: اننا توصلنا مع الحركة السياسية السودانية، وقواها الحزبية والنقابية، التي تحملت عبء ومسؤولية الاضراب السياسي والانتفاضة والإطاحة بالدكتاتورية العسكرية الثانية في 26 /3 - 16 /4 /1985، الى توقيع ميثاق الدفاع عن الديمقراطية، كتأكيد اجماعي على رفض الدكتاتورية العسكرية، سواء استهلت انقلابها بشعارات يمينية او يسارية أو شعارات الوسط. وقد تم ذلك التوقيع في الأول (نوفمبر) 1985، وهو اليوم الذي وقع فيه الانقلاب العسكري الاول عام 1958. وقد وقّع على ذلك الميثاق كل الاحزاب السياسية والنقابات – عدا حزب الإخوان المسلمين. كما وقع عليه من المجلس العسكري الانقلابي بإسم القوات المسلحة.

مازال ينتظر الحركة السياسية والنقابية، واجب ترجمة ذلك الميثاق، الى واقع مادي جماهيري قادر ليس

فقط على التعبير عن رفض الدكتاتورية العسكرية، بل وسد الطريق امامها ومقاومتها منذ ساعاتها الاولى. فالتجربة البرلمانية الثالثة تدخل عامها الثاني مثقلة بالمشاكل، ومظاهر العجز ومواجهته وحل المشاكل التي دفعت الشعب الى ثورة على دكتاتورية نميري والاطاحة به، مثال ذلك غلاء الاسعار وتدهور مستوى المعيشة، ولجم التضخم، واعادة تأهيل وتعمير قطاع الانتاج الزراعي والصناعي، ومثال آخر رضوخ الحكومة لشروط صندوق النقد الدولي في تشرين الاول (اكتوبر) بتخفيض قيمة العمل السودانية، ورفع اسعار سلع ضرورية كالسكر والبنزين هذا العام، ومثال آخر حالة الضجر واللامبالاة وسط الجماهير التي تعبر عن تذمرها. ان أي تغيير لم يمس حياتها، وان الديمقراطية التي ناضلت وضحت لاستعادتها لم تسخر لتجديد واقعها وتخفيف اعبائها. ومثال اضافي: مازالت الحرب الاهلية دائرة في جنوب السودان وتلامس مناطق في غربه وجنوبه الشرقي وهي تستنفذ امكانات بشرية ومالية احوج ما يكون لها السودان لتعمير اقتصاده وضمان وحدته وسلامة اراضيه ! ومن جانب آخر، تتسع حركة الاضرابات والمظاهرات في المدينة والريف احتجاجا على هذا الواقع. فحركة الجماهير مازالت نشطة وقادرة على تجديد طاقاتها وقدراتها النضالية، ومازالت متمسكة بالأهداف والشعارات التي توحدت حولها خلال الاضراب السياسي والانتفاضة. وكل هذا يشكل رصيدا تستند إليه الحركة السياسية والنقابية لترجمة ميثاق الدفاع عن الديمقراطية الى سد منيع امام الانقلاب العسكري. ولا يغير من هذه الحقيقة، كون حزب الاخوان المسلمين، وقد فشلت مساعيه للمشاركة في الحكومة، رغم وزنه البرلماني الكبير، يستغل سخط الجماهير وينظم المواكب وحركة الاحتجاج لتقويض الديمقراطية، والدعوة تصريحا او تلميحا لعودة الحكم العسكري، بوصفه الاداة المناسبة لتطبيق نظام الحكم الإسلامي، كما فعل نميري.

وينشأ السؤال: كيف ندعو الجماهير للدفاع عن الديمقراطية، ونظام الحكم البرلماني، إذا كانت الحكومة البرلمانية عاجزة عن حل مشاكل الجماهير وتلبية تطلعاتها ممثلة في اهداف وشعارات الانتفاضة؟ وهذا السؤال، هو الصيغة المحددة والملموسة، للسؤال العام الذي طرحناه، كيف نكسر الحلقة الشريرة...؟

نعتقد ان الحزب الشيوعي السوداني، قد توصل الى الاجابة مع اطراف عديدة في الحركة السياسية والنقابية السودانية، بعد الدراسة الناقدة لتجربة النظام البرلماني البرجوازي في السودان، وتجارب البلدان الشبيهة بوضع السودان في المنطقة العربية والافريقية. والمدخل للإجابة، بلا تردد، هو اصلاح النظام الديمقراطي البرلماني البرجوازي، والانتقال به من صيغة ويستمنستر وشكلياتها، الى صيغة ملائمة لظروف وخصائص المجتمع السوداني من المستوى الحالي من تطوره. والخطوة الاولى: من ذلك المدخل كانت وتظل ميثاق الدفاع عن الديمقراطية. والخطوة الثانية: التي تم عليها الاتفاق هي التحضير لعقد مؤتمر دستوري يضم كافة

القوى السياسية والنقابية والاجتماعية على اختلاف تكويناتها واحزابها وتجمعاتها، للبحث والاتفاق والإجماع على صيغة الحكم الملائمة للسودان مثل الدولة، تقسيم الثروة، حقوق القوميات، علاقة الدين بالدولة، وغير ذلك من قضايا ومعضلات مجتمع متعدد الاعراق والقوميات والديانات والمعتقدات والثقافات كالمجتمع السوداني، حيث ظلت في قاع الصراع الطبقي وتجلياته السياسية والايديولوجية، معضلات نزاع وأزمات وحروب اهلية، وصدامات قبلية، وحكومات عسكرية ومدنية غير مستقرة، قضايا استقطاب حاد كالمساواة بين القوميات، والتنمية غير المتوازية، وعلاقة الدين بالدولة ومن ثم نوعية الدستور: علماني أم ديني أم اسلامي... وأخيرا وليس آخرا: أي طريق للتطور يسلك السودان؟ الطريق الرأسمالي التقليدي الذي اوصلنا الى حيث نحن، أم طريق جديد، والصراع حول الطريق الجديد البديل نفسه... الخ.

والخطوة الثالثة: تنفيذ توصيات المؤتمر الاقتصادي الدولي الذي انعقد في مارس (آذار) 1986 خلال الفترة الانتقالية، واسهم في التحضير له كل الاقتصاديين والمهنيين السودانيين من مختلف قطاعات الاقتصاد الوطني بمؤتمرات قطاعية شخصت الازمة المالية الاقتصادية، والتخريب الذي احدثته دكتاتورية نميري في القطاع المعين، حددت خطوات الاصلاح المحددة. ثم توج هذا الجهد بعقد المؤتمر الاقتصادي القومي الذي شاركت فيه الاحزاب السياسية والنقابات، وعكفت لجانه المتخصصة على صياغة التوصيات العامة الختامية لإصلاح الوضع المالي الاقتصادي أو ما اتفق على تسميته: برنامج انقاذ الاقتصاد الوطني وهو برنامج لا يخرج عن الصيغة الاصلاحية لما يمكن ان تحققه سياسة وطنية في الاقتصاد والقرار الاقتصادي من اطار البنية الاقتصادية الرأسمالية للتطور الرأسمالي المشوه لبلد نام، ومحاولة تحقيق قدر من التكافؤ في التعامل مع السوق الرأسمالي العالمي، وتوفير قدر من الفائض الاقتصادي للاستثمار بإعادة تأهيل وتعمير قطاع الزراعة والصناعة كأسبقية أولى، والبحث عن وسيلة لتخفيف عبء سداد الديون وفوائدها، وضرب مواقع النشاط الطفيلي واسترداد الاموال التي نهبها الطفيليون، وتحقيق حد ادنى من استقرار الاسعار ولجم التضخم.

وهناك من الشعارات والأهداف السياسية التي تطرحها الحركة الديمقراطية لإصلاح النظام البرلماني البرجوازي، مثل الدستور العلماني في مواجهة الدستور الاسلامي، والجمهورية البرلمانية في مواجهة الجمهورية الرئاسية، وتعديل قانون الانتخابات، وتوزيع الدوائر الانتخابية، لمصلحة منطق الوعي في المدن والريف الحديث، حيث المشاريع الزراعية على نمط رأسمالية الدولة، بدلا من القانون التقليدي الذي يعطي الوزن الاكبر لمناطق الريف، والمطالبة بتخصيص دوائر للعاملين – عمال، مهنيين، معلمين، مهنيين زراعيين، نساء، اعترافا بدورهن في الاضراب السياسي والانتفاضة واستعادة الديمقراطية والدفاع عنها، والمطالبة

بحكم لا مركزي زهيد التكلفة كامل الصلاحيات في قاعدته المحلية، ورفض اعادة نظام الادارة الاهلية لقادة القبائل بسلطات قضائية وادارية، بل اخضاع سلطاتهم في المناطق النائية والمتخلفة لسلطات مجالس الحكم المحلية، وان لا يمارسوا أية سلطة قضائية... واخيرا الغاء كافة القوانين والتشريعات المقيدة للحريات التي سنّها النميري مثل قوانين الشريعة الإسلامية، التي سنّها كمحاولة اخيرة لانقاذ حكمه تحت ستار استغلال الدين الاسلامي، وقانون العقوبات...

اصلاح النظام البرلماني البرجوازي، لن يخرج السودان من اطار التنمية الرأسمالية بكل ما هو معلوم للشيوعيين عن طبيعة طريق الرأسمالية للتنمية في بلد متخلف، وما يترتب عليه من عجز واستحالة حل مشاكل الشعب المزمنة، وقيود التبعية للرأسمالية العالمية. لكنه كنظام للحكم والادارة السياسية، افضل لشعب السودان وحركته السياسية الجماهيرية وإمكانات اتساعها ونموها من أي دكتاتورية عسكرية يمينية كانت أو يسارية حسب ما اكدته تجربة الحياة السياسية منذ الاستقلال.

صحيح ان المخرج من الدائرة الشريرة، هو انتصار الثورة الوطنية الديمقراطية، وقيام سلطة وطنية ديمقراطية. ولكن لا يمكن ان نتخذ موقف اللامبالاة والعدمية تجاه أي نظام للحكم هو افضل لشعب السودان، او اخف ضررا وشرا لشعب السودان حتى انتصار تلك الثورة وقيام تلك السلطة. فتوفر الحد الادنى من الحقوق الاساسية والحريات الديمقراطية والنقابية، عامل حاسم لتطور الحركة الجماهيرية في ظل حكم برلماني برجوازي، ولو كان يمينيا، لأحزاب الرأسمالية شبه الاقطاع. وقد اكدت تجربة شعب السودان السياسية، ان الوصاية التي تفرضها انظمة الحكم العسكرية على النمط الناصري على حركة الجماهير ومصادرة استقلال تنظيماتها النقابية والسياسية، ومصادرة نشاط الاحزاب وتعددها تحت ستار فرض التنظيم السياسي الواحد، كالاتحاد الاشتراكي – تفرض وصايتها – هي ليست بديلا كما اكدت تجربة شعب السودان ان تلك الوصاية للحريات الديمقراطية والحقوق الاساسية التي تنتزعها الجماهير بأغلى التضحيات وتتمتع بها في ظل نظام برلماني برجوازي يميني. وبعبارة اكثر تعميما نقول، ومن واقع تجربة شعبنا، اننا لن نقبل في السودان أي صيغة لسلطة عسكرية تدعي التقدمية أو الديمقراطية الثورية أو اليسار تصادر الحقوق الاساسية والحريات الديمقراطية، أو التعددية الحزبية، او تفرض وصايتها على حرية نشاط واستقلال الاحزاب، وحرية ونشاط واستقلال النقابات والمنظمات الجماهيرية، تحت مظلة التنظيم السياسي الواحد كالاتحاد الاشتراكي على نمط التجربة الناصرية في مصر، أو صيغة الجبهة كواجهة لتحكم الحزب القائد أو الحزب الغالب. فالأصل في التجربتين الناصرية والبعثية الانقلاب العسكري – أو ما يسمونه هم دور الطلائع الثورية في القوات المسلحة. في حين ان الاصل في تطور الثورة السودانية هو الاضراب

السياسي والانتفاضة – أي طابعها الجماهيري المباشر، وليس دور طلائع عسكرية او مدنية نيابة عن الجماهير. وهذا يضع دور المجموعات الوطنية أو الثورية داخل القوات المسلحة في ظروف السودان وخصائص ثورته، في حجمه كدور مساعد ومكمل، وليس دورا طليعيا مستقلا بمفرده. ليس هذا استنتاجا نظريا مجردا وبعيدا عن الواقع، انه خلاصة التجارب الحية والمريرة والعالية التكلفة لتطور الحركة الشعبية السودانية منذ الاستقلال، وعبر عشرات تجارب الانقلابات العسكرية.

ما تقدم يفرض على الحزب الشيوعي السوداني، خوض صراع ايديولوجي متواصل حول بعض جوانب مفهوم الديمقراطية – ليس في صيغتها النظرية العامة، باعتبار الديمقراطية في نهاية الامر طبقية، كما ان الدكتاتورية طبقية سواء كانت دكتاتورية عسكرية ام مدنية، لكن في صيغتها الملموسة، وفي ظروف السودان الملموسة. الجانب الاول للصراع، المفهوم الماركسي العام عن ان الديمقراطية الليبرالية البرجوازية محدودة تاريخيا واجتماعيا وأنها الشكل السياسي، أو الاطار السياسي، لحكم الرأسمالية شبه الاقطاع في السودان، وانها استنفذت اغراضها ويجب استبدالها بديمقراطية جديدة، او ديمقراطية تحالف قوى الشعب العامل الذي يمثله التنظيم السياسي الواحد كالاتحاد الاشتراكي. هذا الجانب الاول للصراع ينطلق من تشويه البرجوازية الصغيرة للمفهوم الماركسي العام، لكنه يصل لنتيجة خاطئة، تعبر عن ضيق البرجوازية الصغيرة بمصاعب وآفاق الصراع الطبقي، والنضال السياسي الفكري التنظيمي لتوحيد واصطفاف الجماهير، وعجز البرجوازية الصغيرة عن تفهم قضايا توازن القوى، وتقديراتها الذاتية للقفز فوق الواقع الموضوعي بالانقلاب العسكري، الذي يتمخض في نهاية الامر عن انفراد شريحة او فئة من البرجوازية الصغيرة بالسلطة ومصادرة الديمقراطية كحقوق اساسية وحريات وضمانات حكم القانون والشرعية. هذا نتاج طبيعي لفهم البرجوازية الصغيرة الوحيد الجانب للديمقراطية الليبرالية، وكونها حصيلة نضال جماهير العمال والفلاحين والكادحين والمستنيرين من البرجوازية والبرجوازي الصغير عبر التاريخ منذ اندلاع الثورات البرجوازية الديمقراطية في غرب اوربا. وان افراغ الطبقة الرأسمالية للديمقراطية من محتواها الاجتماعي بعد وصولها الى السلطة، لا ينفي حقيقة ان تلك الديمقراطية حصيلة ثورة سياسية اجتماعية، وان واجب الثورة الوطنية الديمقراطية بل والثورة الاشتراكية مستقبلا استكمال تلك الديمقراطية ورد اعتبارها باستعادة محتواها الاجتماعي.

الجانب الثاني للصراع تستخدمه قوى الرأسمالية شبه الاقطاع، عندما تتسع حركة الجماهير مستظلة بالحقوق الاساسية والحريات الديمقراطية، زاعمة انها نظام حكم يناسب ويلائم البلدان الرأسمالية الغربية، وان ظروف السودان تتطلب نوعا آخر من " الديمقراطية" مثل تحكيم التعاليم الاسلامية، وابتعاد

النقابات عن النشاط السياسي وحصر رسالتها في الحيز المطلبي مع التزامها بالواجب الوطني في التنمية والاستقرار الاقتصادي ... وغير ذلك من الشعارات والحجج التي تبرر مصادرة الحقوق والحريات.

جدير بالاعتبار النظري والسياسي، ان شعب السودان، لم يتعامل مع الديمقراطية تعاملا رومانسيا أو مجردا أو مثاليا. فمن واقع تجاربه الذاتية رفع شعارات ومطالب محددة من انتفاضة تشرين الأول (اكتوبر) 1964 وانتفاضة آذار – نيسان (مارس – ابريل) 1985، لمصادرة نشاط وأموال الفئات والافراد الذين تسلموا السلطة في الانقلاب العسكري، والذين انتفعوا بتلك السلطة، وطالب بعزلهم ومحاكمتهم. وما زال يطالب باستعادة نميري من مصر وتقديمه للمحاكمة بعد ان حوكم بقية الضباط الذين قادوا معه الانقلاب في أيار (مايو) 1969. واستنادا الى التجربة الذاتية لشعبنا، يواصل الحزب الشيوعي الصراع الايديولوجي ضد مفاهيم البرجوازية الصغيرة التي تحاول التقليل من اهمية الحريات الديمقراطية والحقوق الاساسية لتطور حركة الشعب والثورة الاجتماعية، وضد مفاهيم الرأسمالية شبه الاقطاعية التي تتاجر بالمشاعر الدينية لمصادرة تلك الحريات والحقوق. وفي خضم هذا الصراع تتوحد قوى اجتماعية وسياسية واسعة لسد الطريق أمام الانقلاب العسكري والدكتاتورية المدنية، وللدفاع عن الديمقراطية السياسية والإصرار على تطويرها لتستعيد محتواها الاجتماعي الاقتصادي.

---

* (الثقافة الجديدة)، العدد 195 ، آذار 1988، ص 79 - 88.

نصوص مترجمة

ماذا يعني أن تكون يساريا اليوم؟

بقلم: الدكتور داريو رودريغيز ماشادو*
ترجمة: رشيد غويلب

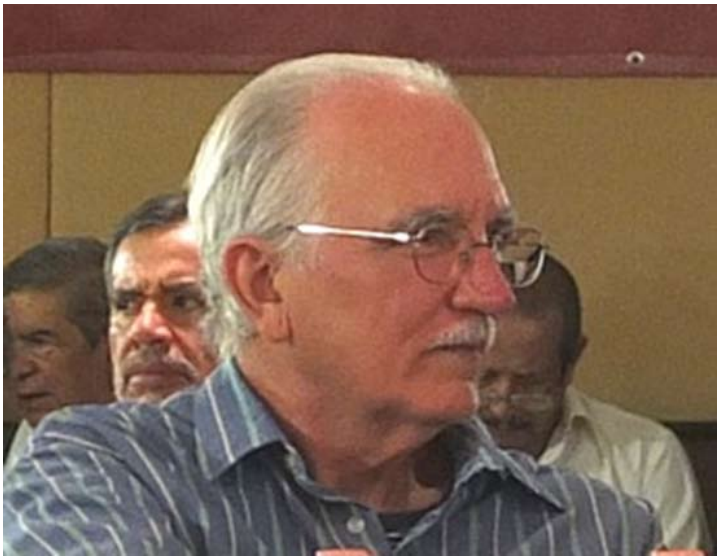

ماشادو

صحيح أن الإنسانية لم تعش وقتا طويلا (بعد اختفاء الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي، والذي جاء نتيجة لانتصار الرأسمالية المتطورة في ما يسمى "الحرب الباردة"، لكي تعاود النقاش حول مفاهيم مثل "التقدم"، "الاشتراكية"، "اليسار"، "الثورة" وغيرها. وهذه المناقشات غير قابلة للتأجيل لأن النشوة ما زالت مستمرة حول النظام الوحيد المتبقي، والتي تجسدها الفرحة المتطايرة لمنظري الرأسمالية مثل فرانسيس فوكوياما (منظر أمريكي ياباني الأصل – المترجم). إن الرأسمالية استمرت بتناقضاتها غير القابلة للإنقاذ، والداروينية الاجتماعية (نسبة لداروين – المترجم)، وبقيت أيضا الإنسانية بحاجة ماسة إلى بديل لهذه الكارثة. ولم تأت نهاية التاريخ، كما كتب المثقف الكوبي إليادس أكوستا، بل أتت نهاية نظرية فوكوياما.

ان افلاس نظرية "نهاية التاريخ" اللاعقلانية يؤشر مجددا بوضوح ضرورة تجاوز بربرية الرأسمالية، ومواجهتها كنظام، وهذا الموقف يقود إلى ما هو اساسي. وان التهرب من مواجهته يعني التخلي عن حل المشكلة الرئيسة، والنتيجة عدم القدرة على تركيز القوى بكفاءة لتجاوز الرأسمالية.

صحيح أن البشرية اليوم تواجه مشاكل خطيرة تهدد وجودها والأمر الأكثر إلحاحا، هو ايقاف السير باتجاه الهاوية، وبالتالي فان "جميع الأيدي لا تزال قليلة جدا". ولكن هذا لا يلغي العديد من الأسئلة التي تنشأ باستمرار حول القضايا الأكثر إلحاحا: هل هناك اختلافات جوهرية بين منطق الليبرالية الجديدة والمنطق العام للرأسمالية؟ هل تنتهي الامبريالية اليوم مع الفشل الواضح لليبرالية الجديدة؟ إذا أدت الرأسمالية الليبرالية الى الامبريالية والليبرالية الجديدة، فأي تطور إيجابي يمكن أن تتوقعه الإنسانية من رأسمالية بلا ليبرالية جديدة؟ وإذا كانت المشكلة الأساسية هي الراسمالية، فما هي المهام التكتيكية الملقاة على عاتق اليسار؟ وماذا يعني ان تكون اليوم يساريا؟ للإجابة على هذا السؤال اكرس هذه المقالة.

ليس من المناسب تكرار القصة المعروفة ما اصطلح عليه سياسيا "اليسار"، ولكن يمكن القول وبالإستناد الى تقاليد النضالات الاجتماعية في القرنين الـ 19 والـ 20، لقد ترسخ تفسير عام مشترك: "اليمين" للتعبير عن القوى المحافظة، و"اليسار" يعني قوى التغيير. "اليمين" هو الرجعية، و"اليسار" يعني الثورة. "اليمين" مرادف للرأسمالية، و"اليسار" مرادف للاشتراكية... الخ، وبالإستناد الى الكيفية التي يؤشر فيها اليمين واليسار المواقف في فضاء الصراع، يصبح ليس من الصعب فهم الطبيعة التقليدية والنسبية لهذه التسميات. يمين بالنسبة لمن ومن ماذا؟ ويسار بالنسبة لمن ومن ماذا؟ ان الفهم العام للنشاط الاجتماعي والسياسي حدد استخدام هذه المصطلحات، وحتى اختفاء الدول الاشتراكية في أوروبا لم يغير ذلك تماما، على الرغم من أن هذا الحدث نقطة تحول في التاريخ، وأثر على الاستخدام التقليدي لهذه المصطلحات، وخلق الكثير من الارتباك.

"ان تقف يسارا" و"ان تكون يساريا"

في الصفحات التالية سأتناول الاستخدام التقليدي للمصطلح في القرن العشرين، ولكن مع بعض التوضيحات الأساسية، بشأن التمييز بين مفهومين: "ان تقف يسارا" و "ان تكون يساريا". وهذا توضيح اصطلاحي خالص، يستفاد منه في تحديد منهجية دراسة وتحليل العمليات السياسية وليس له صلة، كما سنرى، مع الكليشيهات ووضع حدود فاصلة، او "التفريق" بين أولئك الذين "يمتلكون الحقيقة" و"الآخرين"، والهدف منه، هو قياس مدى المواجهة مع واقع الرأسمالية

المتأخرة، ودراسة الصلات التي تربط الحركة المضادة للرأسمالية.

عندما يرفض شخص - على سبيل المثال - مجموعة، منظمة سياسية، الليبرالية الجديدة والسياسة التدميرية للشركات فوق القومية، يصطف يسارا. وهذا لا يعني انه يساري، بمعنى انه مضاد للرأسمالية كنظام. ان موقفا وتعاملا سياسيا يميزان بدرجات متفاوتة بين الذين يقفون الى جانب اليسار، والذين يكونون يساريين، وكلاهما يلعب بالتأكيد دورا ايجابيا في التاريخ والسياسة. والحقيقة ان من "يقف اليوم يسارا"، بغض النظر عن درجة الوعي التي تدفع البعض إلى التعاطف مع الكثير من الأهداف، هو من يؤدي قسطه الإيجابي في الثورة على صعيدي الفكر والممارسة.

ان الاشتراكية كمشروع لخلاص البشرية يتطلب تطوير تفكير ونشاط ملموس، وهو تركيب معقد جدا ومتباين، ويتوقف على الخصائص المحددة للحالة الراهنة من تطور الرأسمالية. ان درجة تأثير هذا التركيب مرتبطة مباشرة بمعرفة اسباب هذه البربرية.

ان تجدد المناقشة حول جوهر ان تكون يساريا نسبية وتخضع - مثل كل المناقشات الاجتماعية - إلى المحددات التاريخية الملموسة. ان تكون يساريا يمكن ان يعني اليوم شيئا، ويصبح غدا شيئا آخر بخصائص جديدة، لنأخذ مثلا قطاع الشركات المتوسطة، التي تدافع عن استرداد الموارد الوطنية التي استولت عليها الشركات فوق القومية. ان هذه الشركات تقف اليوم بوضوح إلى جانب اليسار، على الرغم من انها لا تتبنى الأهداف الإستراتيجية المناهضة للرأسمالية.

ان تعريفا لليسار بمعنى ان تكون يساريا من منظور استراتيجي شامل طويل الأمد، يجب ان يعكس، كما ارى، خصائص مثل مناهضة الرأسمالية، العلمية، الشخصية الجامعة، اخلاقي، ثوري، نشط، مبدع وأممي.

أن تكون يساريا يعني أن تكون مناهضا للرأسمالية

يبدو بديهيا عندما نقول إن تكون يساريا يعني ان تكون معاديا للرأسمالية، ولكن هنا الكثير من الارتباك. وبالتالي من الضروري ان توصيف "يساري"، لا يعني بالضرورة ان هذه الاشارة تتضمن مناهضة واضحة للرأسمالية. ان كل الذين يعارضون رأسمالية الليبرالية الجديدة، وكل الذين يعارضون سلطة الشركات فوق القومية، ويرفضون سرقة الموارد المادية والبشرية للأمم الأقل نموا من قبل الامم الأكثر تقدما، وكل الذين يعارضون الحروب الامبريالية المفترسة، يقفون بطريقة أو بأخرى يسارا. ولكن ان تكون يساريا يعني مناهضة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وضد الأنانية التي تنشئ الملكية الخاصة، يعني امتلاك الوعي بضرورة تجاوز اساسي للنظام الراسمالي.

نشأت الرأسمالية منذ أكثر من 500 عام. وفي مسيرتها، تراكمت لديها خبرة في كيفية التغلب على ازماتها، حتى وإن كان ذلك على حساب الطبيعة والصحة البدنية والعقلية للانسان؛ والتغلب عليها ضرورة (اي الرأسمالية – المترجم)، ولكنها لن تتم دون مقاومة. ويجب ان تكون مواقف اليسار وانشطته واضحة في مناهضتها للرأسمالية، ومدعومة بالدليل، وإلا ستكون يسارية بشكل ما، ولكنها لا تعبر صراحة عن مواقف اليسار. ان المواقف التي على يسار الليبرالية الجديدة، ولكنها على يمين اليسار، هي مواقف مناهضة للرأسمالية حقا، حتى وان اسماها اصحابها، على سبيل المثال مواقف - وسط. ان خصائص من يقف يسارا، بالنسبة لمن تحتوي مواقفهم على قدر غير كاف من مناهضة الرأسمالية، والذين يطلقون على أنفسهم تسمية اليسار من السياسيين الاجتماعيين (الذين لديهم مواقف سياسية اجتماعية)، فهؤلاء هم شيء آخر. كثيرون يسمون أنفسهم (وسطا)، آخرين ديمقراطيين اجتماعيين، ولكن كما كتب لينين مرة، يجب على المرء ان لا يحكم على الحركات السياسية وفق ما تقوله، بل ان تصرفها والحقائق الملموسة (أعمالها) هي المقياس الأهم لنواياها الحقيقية.

وحتى لو كنت استخدم التصنيفات مع أمثلة وصفية، فاني استند إلى المحتوى وليس التسميات. الرمزية التي تطلقها الحركات السياسية والاجتماعية على نفسها تجاه الخارج، والتي يمكن ان تكون مفيدة بشكل او بآخر للتواصل، ولكن لفهم خصائص وجوهر الحركات السياسية، التي تتفاعل مع الإستغلال والإذلال من جانب الرأسمالية المتأخرة وطبيعتها اللصوصية، كان وسيبقى حاسما، طبيعة تعاملها السياسي على أرض الواقع.

من ناحية أخرى، لا بد من القول مرة أخرى، ان توضيح التعاريف، لا يدعو للانغلاق، وليس بالضد من التحالفات أو لمجرد فهم أهمية الإيضاح، بل وببساطة هي الدقة التي تسعى لفهم تعقيدات الحركات الاجتماعية والسياسية، تحولاتها الداخلية، نوعيتها بالمعنى الاجتماعي والفلسفي والمساهمة في توضيح التشويش، وبمساعدة هذا التشويش، فهم القطاعات الضارة المرتبطة بالرأسمال، التي تحرف سلوك اكثرية السكان السياسي عن سعيهم للخلاص. ان جزءا من الحقائق السياسية، التي تحدد خصائص منظمة ما (سواء كان ذلك من شكل او مستوى تماسكها.. الخ)، ويشمل ذلك ايديولوجيتها، برنامجها السياسي، ونضالها الملموس. هذا يتطلب رؤية دقيقة للواقع الاجتماعي، على الرغم من أنه لا يمكن أن تشمل جميع عناصر العمليات الاجتماعية والسياسية، ولكن الفحص الدقيق للتطور الاجتماعي.

علمية اليسار

لا ينبغي أن يترك سلوك السكان الثوري إلى العفوية، وهو ليس قضية ايمانية بسيطة، او معنى للحياة مبني

بشكل تعسفي، لا يستند الى حجج، يجب ان يكون (السلوك) في المقام الأول واعيا، كما هي ايضا ممارسات الراسمالية، اذا ارادت ان توقف قوى التغيير.

واحد من الصراعات الرئيسية في المواجهة مع الرأسمالية اليوم هو الحاجة إلى استعادة الرؤية العلمية التي تساعد على إلقاء الضوء على التفاعلات في العمليات الاجتماعية المعاصرة. تلك العمليات التي تبدو في كثير من الأحيان غير منظمة ومجزأة، ومنقسمة إلى عدد لا نهائي من العوالم الصغيرة، دون الربط بين بعضها البعض، والمسحوقة الى حد لا يملك فيه العامل أكثر من قوة عمله، ويجد الكثير من الأسباب للوقوف ضد نظرائه، (الذين يعيشون في ظل الظروف الاجتماعية ذاتها)، أكثر من تشخيص مالكي السلطة الاقتصادية والنضال ضدهم.

عندما لا يجد المرء تفسيرا علميا للواقع الذي مر ذكره، وعندما لا يقوم المرء بدراسة العمليات التي ادت الى الازمة الحضارية الحالية (التي تؤثر اليوم على وعي وسلوك الناس)، عندما لا يفهم المرء البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحالية، التي اوصلت اليوم الرأسمالية المتأخرة الى نمط ومستوى من الهيمنة، لن يكون المرء قادرا على تجميع ارادة الكثيرين، او خلق الوعي لدى الناس.

وعندما تختفي الروابط الحقيقية، تختفي ايضا التفسيرات المنطقية. فليس هناك ما هو أكثر فائدة لأيديولوجية السوق من ذلك. عندها ستبقى الوحيدة في الحلبة وتكسب الحكم الى جانبها. ان صراع الأفكار يتطلب ترسانة من الأفكار، ولكن هذه الأفكار لا تنشأ من مبنى تعسفي من مشاعر الحياة، بل من مبنى من المشاعر، التي ترتبط بعمليات حقيقية ناتجة عن ضعف الرأسمالية الاجتماعية، وعناد الرأسمالية المتأخرة، والتي تفضح بوضوح الأضرار الحالية والمستقبلية التي يسببها هذا النظام للبشرية. وهذا يجب ان يعرب عن نفسه بمختلف الاشكال الثقافية، وبهذا يرسي أسس النشاط. ان الرؤية العلمية للرأسمالية التي انتجتها الماركسية، تمثل اليوم أفضل منطلق لممارسة نقدها (الرأسمالية)، ولكن رؤية ماركس كانت شاملة، وهنا ليس بالإمكان، كما هو الحال مع كاريكتير اقتطاع بعض الجوانب وفق التقدير والمصالح. ان الطابع العلمي لرؤية الماركسية للمجتمع يمثل جوهره. لقد اكتشف ماركس تناقضات المجتمع الرأسمالي الأساسية، وبين للناس طريقا مكتملا، لإزالة هذه العلاقات.

من جانب آخر لا يمكن ان يستند العلم الى علاقة اخرى، اكثر من تلك التي بين الانسان والطبيعة، فان العلوم الطبيعة يوضح ماركس: "ستفقد اتجاهها المادي المجرد - او بالأحرى ميلها المثالي - وتتحول جذريا الى علوم انسانية، لتكون ضمن مكونات (اسس) حياة الانسان الحقيقية، ولو بشكل غريب (غير مألوف)".

هذه الافكار وضعها ماركس في تحليله

لدور العلوم الطبيعية في تطوير الصناعة. وفي الواقع بدت الصناعة وكأنها إنجاز تاريخي للعلاقة بين الإنسان والطبيعة، والعلوم الطبيعية التي انتجت الصناعة، وكأنها لحظة تحول في الحياة البشرية. من أين يمكن للعلوم ان تتطور، إذا كانت لا تنتمي للواقع، للطبيعة في تفاعلها المستمر مع البشر - كأفراد وكمجموعة اجتماعية؟ من اين يمكن للعلم ان يتطور، الا من الطبيعة والطبيعة الثانية في تفاعلهما المتبادل والمستمر مع الانسان، كفرد وكمجموعة اجتماعية؟ ان الطبيعة الثانية هي الثقافة، وهذه مرتبطة بالافراد الذين سيولدون ويتطورون بتفاعل متبادل مع الطبيعة، وبمصاحبة الطبيعة الثانية. ان المواد العلمية لتنظيم ومعرفة الواقع حددا كقاعدة الطبيعة الفعلية والطبيعة الثانية من خلال ماديتهما باعتبارها سمة اساسية وحاسمة لهما. ومن هنا يواصل ماركس: ”ان وجود اساس للحياة وآخر للعلوم هو كذبة بالبداهة“.

ان التعقيدات المتنامية للانسان والمجتمع البشري في جميع انحاء الكوكب، والاستقلالية النسبية عن الواقع، التي سيولد منها (الانسان)، والتكهنات حول ما هو واقع بالفعل، وقوة الخيال، التي تقود الى تقييمات خاطئة، والقادرة على الاستيلاء على روح للانسان، والتأثير في الواقع الاجتماعي، هي الوسط الذي تتطور فيه المعرفة العلمية، والتي يجب ان تصل فيه الى هدفها العملي.

ان علوم الانسان هي العلوم الاجتماعية ايضا. وقد كتب ماركس: ”ان الطبيعة التي ستصبح التاريخ البشري - نشوء المجتمع البشري - هي الطبيعة الحقيقية للانسان“، ومن هذا يستنتج (ماركس) ان العلم الناشئ من الطبيعة فقط، هو العلم الحقيقي.

ويترتب على ذلك ان رؤية ثورية للعالم، عندما تكون واعية، او تدعي الوعي، يجب ان تكون ايضا علمية، وعليها ان تفسر للمجتمع وبأدلة قوية، وقادرة على ارضية واقعية، على تحفيز ارادة الناس وانتاج عقلانية عملية تجعل نهاية السيطرة الرأسمالية ممكنة.

وشيء آخر مرتبط بما قيل سابقا - النقاش حول عملية المعرفة العلمية، والعناصر التي يجب دمجها فيها، اسلوب وطريقة الكيفية التي تبنى بها هذه المعرفة، والمناهج والطرق التي يجب اعتمادها في المعالجة التربوية لهذه المعارف المكتسبة جماعيا، لكن هذا لا يغير شيئا من معرفة التاريخ كجزء من عمليات الطبيعة. وحسب ماركس: ”التاريخ نفسه جزء حقيقي من تاريخ الطبيعة: الطبيعة التي نشأ الانسان منها. وكذلك سيكون العلم البشري جزءا من العلوم الطبيعية، وسيكون هناك علم وحيد“.

في هذه المقالة لا مكان لتحليل نهائي لافكار ماركس بشأن هذا الموضوع، ولكن من المفيد في نهاية المطاف اعادة سطور اخرى من مخطوطة ماركس الى الأذهان، والتي تدلل على الربط الماركسي بين النظرية والممارسة، وبين

العلم والأخلاق: "شريطة أن يكون بالنسبة للإنسان الاشتراكي، أن مجموع ما يسمى بالتاريخ الكوني، ليس أكثر من اعادة انتاج الانسان بواسطة العمل البشري، ليس أكثر من توظيف مستقبل الطبيعة لصالح الانسان، الذي يمتلك دليلا قاطعا وواضحا على اعادة انتاج نفسه بنفسه ومن خلال سيرورته. وبما ان الوجود الحقيقي للإنسان والطبيعة مسألة عملية، قابلة للاختبار عمليا وحسيا وادراكا. وبما ان الانسان بالنسبة لابناء جنسه كائن طبيعي، والطبيعة تمثل جوهره، فان فكرة الكائن المغترب عن أبناء جنسه وعن الطبيعة، هي جوهر او أساس فكرة التفوق او تجاوز الطبيعة والانسان. وهي فكرة توحي بعدم جوهرية الطبيعة والانسان التي يستحيل تطبيقها".

من المؤكد أن العلم الماركسي جزء لا يتجزأ من عالم اليقين، في سياق المنطق التاريخي الذي غيرت فيه الثورة المجتمع أخيرا، اعتبرها (الثورة) نتيجة حتمية للتطور الرأسمالي. وفي هذه الاستمرارية المتناقضة سينشأ نفي النفي.

بعيدًا عن الجدل الدائر حول السببية والصدفة، والضرورة والممكن، أعتقد أن حجج ماركس الأولية على النحو المبين في المخطوطات تمتلك مصداقية لا يُختلف عليها.

منذ أن درس ماركس المجتمع الرأسمالي والى يومنا هذا، تغيرت أشياء كثيرة، لكن جوهر الرأسمالية ظل قائما حتى مرحلتها الأخيرة، وبقيت خصائصها الأساسية: الملكية الخاصة، واستغلال الإنسان للإنسان، والأنانية، سيادة قانون الربح، والعنف الاقتصادي وغير الاقتصادي والحرب. إن حجج اليسار اليوم، كما كان الحال آنذاك، لا يمكن أن تكون مرتجلة أو سطحية أو صوفية أو أسطورية. يجب أن تنشأ الصوفية المحتملة لليسار من قدرته الحقيقية على كسب العقول، بالحقائق التي يخلقها والانتصارات التي يحققها في سياق نضاله.

وبعبارة أخرى، فإن وحدة الفكر والعمل هي عنصر أساسي في العلم. وإذا كان الهدف هو تحويل المجتمع الرأسمالي، فيجب التفكير في طرق ووسائل تحقيق ذلك، والتي ستختلف بشكل كبير وفقًا للظروف التاريخية الملموسة التي تخطوها الثقافات المختلفة. وفي سياق النضال الثوري، ستتدفق وبحق، في أهداف التحرر الاجتماعي، آراء الأفراد والجماعات ذات الرؤى العالمية المختلفة معاً، وستنشأ تحالفات استراتيجية، وستظهر العديد من المقولات السياسية. وتتوجد في الوقت نفسه تفسيرات مختلفة للعالم، تفاعلات اجتماعية متبادلة، وأشكال التعبير الثقافي بمظاهره المتنوعة، والتأثيرات والعلاقات ذات النوعية والآماد المختلفة، والتي لا يمكن لأي منها، مع ذلك، أن يلغي (يحل محل) الحاجة إلى التفسير العلمي للواقع. يرسم هذا (التفسير العلمي للواقع) مساراً آمناً وحلولاً ممكنة، وتبنى علامات الأمل فيه من حجج، وليس من تأمل غريب لفهم

خاطئ. ان اليسار الثوري يعرف نفسه بالعلم والعلمنة.

وهذا يعني القدرة على إيجاد سبل للخروج من استغلال الإنسان للإنسان، من الملكية الخاصة، والفردية، والأنانية، ومن عدم الإحساس بالطبيعة، وكذلك القدرة على تحديد وتطوير استراتيجيات وتكتيكات هذا النضال بشكل منهجي. ان هذا العمل، الذي لا غنى عنه بالنسبة للحركة الثورية، هو عمل جماعي، ولا يمكن لأحد أن يتفوق على الآخرين كباحث عالمي في مواجهة التعقيد المتزايد للمجتمع البشري، اذ يمكن للجميع وينبغي عليهم المساعدة في خلق هذه المعرفة بالثورة. لكن إذا لم يهتم أحد من ''اليسار'' بذلك، فكيف ستتحقق وحدة الإرادة في التغيير؟ كيف يمكن تحقيق التكامل النظامي الذي لا غنى عنه، والمطلوب لهزيمة الرأسمالية؟ من الواضح إذا تم تحريك الناس بشعارات منمقة لا علاقة لها بالواقع، أو بخطب إيمانية، يمكن أن تُقطع مسافة معينة على طريق النضال معهم. ولكن بدون محتوى علمي، وبدون رؤية علمية جوهرية، سينهار كل شيء على المدى البعيد؛ ولهذا يجب معالجة هذا التحدي، ليس بدون مشاركة جماعية، بل بأكبر قدر ممكن منها.

إن أحد أحجار الزاوية في تفكير المحافظين الجدد على وجه التحديد هو الغاء مضمون ووجود الضرورة. إنها أيديولوجية هدفها السياسي الخاص هو إلغاء الأيديولوجية الثورية، ومعها إلغاء الفلسفة التي أدركت الطابع المنهجي للرأسمالية ويمكنها تفسير تناقضاتها وبالتالي طرق التغلب عليها.

إن أيديولوجية الحركة الثورية لها أساس علمي، وأخلاقياتها يجب أن تكون من لحم ودم أخلاقيات تشمل الروحانيات ولكن ليس الباطنية. في هذه الأيديولوجية الثورية تصب بالضرورة، أنظمة أخلاقية مختلفة، تشترك، مع بعضها البعض في مبادئ أساسية معينة، وتتحول بالممارسة الى تحالف تاريخي واستراتيجي، وبما ان عملية تحول المجتمع عملية معقدة لا يمكن إنكارها، فالأيديولوجيا الثورية الحقيقية هي بناء ديالكتيكي، ملموس تاريخياً، وغير مكتمل، انه نظام من الأفكار والقيم، يتضمن معايير ويركز عليها (المعايير)، إنه الأساس لتفعيل مساعي التحول وتعلمها، مع وجوب شمول (الأيديولوجية الثورية) جميع التجارب الإيجابية. لكن فعاليتها تستند إلى المحتوى العلمي لمسلماتها، على الاعتراف بالواقع، على المعرفة الجماعية القائمة على تفسير العالم المتغير الذي يحيط بنا. إنها (أيديولوجية) ترسم الطريق وتوفر الأدوات اللازمة للتصحيح.

لا يمكن أن يكون اليسار متعصبا ومنغلقا

كان التعصب والانغلاق واحدا من أكبر الأخطاء التي ارتكبها اليسار في القرن الماضي، ورؤية نفسك على أنك ''الطليعة''، وافتراض إما يكون

معك أو ضدك. هذه الرؤية انتشرت في جميع أنحاء العالم داخل اليسار في القرن العشرين، وكانت سببا للانشقاق، وإهدارا للوقت والطاقة في العديد من المناقشات العقيمة، وانعدام الشفافية، كما مثلت عائقاً أمام المعرفة (كابحا للتعلم) بشأن المشاكل الحقيقية. إنّ رفض العديد من الجماعات اليسارية الحجج الجديدة لمجرد أنها لا تتوافق مع العقائد المفترضة، حجب عنها، فهم دوافع الجماعات التي ادعت أيضاً وجود مساحة لها في النضال ضد الرأسمالية. لقد أعلن اليسار المتغطرس نفسه قبلة التغيير الثوري، لكنه لم يقبل تغيير ذاته.

هذه الرؤية العقائدية والطائفية حالت دون رؤية الآخرين كما هم بالفعل، أي حفاري القبور الجدد (للرأسمالية) الذين ظهروا من الرأسمالية وتناقضاتها الداخلية غير القابلة للحل، وغالباً ما كانوا يعتبرونهم مجموعات "تلعب لعبة الرأسمالية"، وفي أفضل الأحوال، مجموعات خاطئة مغرورة. وبدلاً من فهم موقف هذه المجموعات بالمعنى الاجتماعي، ودوافعها، ووضعها الحقيقي، واحتياجاتها وتفسيرها للمشاكل، وجرى رفضها لأن لديه رأياً مختلفاً، ما خلق احتكاكاً ومواجهات مزقت تماسك القوى الضروري. وغالباً ما خلف ذلك جروحاً كان من الصعب شفاؤها.

هذه السلوكيات لم تؤد الا الى إضعاف الحركة اليسارية بدلاً من تعزيزها. ان التعالي على الآخرين بامتلاك "الحقيقة الوحيدة" يجعلها حقيقة مطلقة، وبالتالي كاملة، ومنتهية وشمولية، غير قادرة على التطور والإثراء، ومنغلقة على الفهم الحقيقي للتغيير. لكن الفهم الحقيقي للتغييرات التي حدثت وتحدث في العالم هو السلاح الرئيسي لترسانة اليسار السياسية. كونك غير منغلق ولا متعصب لا يعني ببساطة أن يكون لديك "موقف سياسي صحيح"، بل يعني ضرورة النضال نفسه، لقد كان الأمر كذلك في الماضي، وأصبح اليوم أكثر أهمية، وستزداد أهميته كل يوم. تنبع هذه الضرورة في نهاية المطاف من الرأسمالية المتأخرة نفسها، من التجزئة والتدمير الاجتماعي اللذين تجلبهما هذه المرحلة معها.

ينتج عن تجانس الإنسان الذي فرضته الرأسمالية المتأخرة تفكك (الإنسان) مقابل السوق، واغتراب بعضه عن الآخر، ويتم التعبير عنه بشكل متزايد من خلال السوق المتسلط الذي يجب على الجميع المرور به، والذي يتم فيه، جنبا إلى جنب مع المهمشين والمبعدين، حركة استهلاك محموم تدمر أكثر فأكثر التوازن البيئي والتوازن الحسي للناس. ان أزمة النظام واضحة، لكن التغلب على النظام لن يتم فرضه بواسطة فكرة الطليعة لطبقة واحدة، بل يشمل العديد من الطبقات، جماعيا، تشاركيا، بديمقراطية عميقة وأفقية.

يجب أن يكون اليسار أخلاقيا

إن الشفافية حليف اليسار. إذا كان هناك من يكذب، ويختفي وراء حجج زائفة، فهم قوى اليمين المحافظ. يجب أن يتصرف اليسار دائما وفقا لما يفكر به ويقوله. وإن أخلاقيات القناعات تدلل على نفسها في الممارسة السياسية فقط. وكما يقول فيدل كاسترو، الاشتراكية هي علم المثال. لذلك يجب أن يقال، على حد تعبير إيزابيل راوبر (أكاديمية أرجنتينية)، أنه "من أجل التغيير يجب أن نتغير".

وهذا يعني أن البناء المنهجي لعالم جديد داخل أنفسنا، يبدأ في الحركة الثورية، في سلوك كل فرد مشارك في تلك الحركة، في بناء نوع جديد من العلاقة داخل الحركة نفسها، التي تتبنى ممارسة جديدة، سلوكا مختلفًا يعبر عن الأخلاق الجديدة، ويجب أن يقودنا أيضًا من قمة السلطة التي (سـ) نحصل عليها تدريجياً. الإيثار، الجماعية، التسامح، الديمقراطية، الاستعداد للحوار، الإقناع، التربية، الإنسانية، التضامن، العدالة، المساواة يجب أن تكون القيم التي تصبح إطار وطبيعة اليسار. وبالمثل، فإن قدرته على التعلم يجب أن تكتمل بالتواضع اللازم، يجب ألا يكون اليسار متعجرفاً؛ ويجب أن يعترف بحقه في ارتكاب الأخطاء وتصحيحها، فضلاً عن اليقين الذي يمكن أن يمتلكه المرء، أينما كان. ويجب أن يدعم اليسار تعميم الخبرة والتعلم.

وفي النهاية، يجب أن تتطابق أخلاقيات اليسار مع ممارسات سلطة تختلف تمامًا عن تلك المعتادة، التي يريد اليسار محاصرتها واستبدالها. وبالتالي، لا يمكن لليسار أن يكون تعسفيًا أو قسريًا أو تراتبياً وسلطويًا. يجب أن تكون الأخلاق الجديدة للسلطة الثورية مصحوبة بممارسات وأسلوب وأساليب تختلف اختلافا جذريا عن تلك التي مورست في ظل الرأسمالية ومتأصلة في نظامها السياسي للملكية الخاصة والفردية والأنانية. هذه الممارسات يجب أن تكون بالطبع ثورية، وسنشير إليها في أدناه.

معايير اليسار يجب أن تكون ثورية

أن تكون يساريا، يعني ان تكون ثوريا، ان تكون ثوريا يشترط ان تأخذ موقفا نشطا تجاه الحاجة للتغيير، موقفا ينتج من ضرورة تغيير العالم. لا يطلق اليسار على نفسه هذه التسمية، لكن إذا لم يعمل في الواقع في اتجاه التغيير، فلا يمكن اعتباره "يسارياً"، سيتم احتواؤه من المحافظين ولن يعود ثورياً بعد الآن. ان تكون سياسيا يعني ان تكون فاعلا. لا أعني طريقة واحدة للقيام بذلك، بل على العكس، فان الوسائل والنوع والطريقة، التوقيت، والأهداف الاستراتيجية والتكتيكية تفتح طيفا واسعاً ومنوعا من المتغيرات، واسعة كالظروف التاريخية الملموسة في مجموعة متنوعة من الحقائق الثقافية والسياسية القائمة في الواقع، في حركة مستمرة وتغيير في عالم اليوم. يعاني النظام الرأسمالي من إنهاك

واضح، لكنه لا يزال نظاماً حياً. إن القيام بالثورة هو السبيل لإثبات حالة الانهاك التي يعيشها، ولتركيز وعي الناس على الإسراع في التغلب عليه. هذا هو الموقف الوحيد المعادي للرأسمالية حقاً، لذا فإن المفهوم الثوري هو مفهوم أساسي. انتشرت اليوم الرأسمالية الاحتكارية فوق القومية وعولمت، وأصبح المجتمع البشري ككل دليلاً واضحاً على تطوره غير المتساوي. ولم ينجح أي بلد بدأت فيه ثورة اشتراكية في جعل هذه العملية (الاشتراكية) لا رجوع فيها. ومع ذلك، فإن مسألة ما إذا كان من الممكن الحفاظ على المسار نحو الاشتراكية في بلد معين، وإلى متى، دون وجود حركة عالمية عامة للإطاحة بالرأسمالية، هي مسألة مهمة. التاريخ وحده يمكنه اعطاء إجابات محددة، لكن أمثلة مثل الثورة الكوبية تظهر أنه من الممكن اتباع طريق التغيير الاشتراكي، حتى في المجتمع البشري المعقد بشكل متزايد اليوم. لذلك من الضروري الحفاظ على نشاط ثوري للتغيير، من منظور جامع وبكل مرونة ممكنة تتطلبها الظروف. لقد لخص فيدل كاسترو مفهوم الثورة، الذي سأقتبسه أدناه لأهميته الحالية في النضال ضد الرأسمالية. ويمثل هذا جزءا من تقليد الماركسية في التغيير العملي، ومبدأ توجيهي مهم لليسار اليوم. قال فيدل كاسترو في الأول من أيار 2001 في ساحة الثورة في هافانا:

"الثورة تعني الإحساس باللحظة التاريخية، تعني كل ما يجب تغييره، تعني المساواة والحرية الكاملة، تعني معاملة الناس الآخرين كبشر، وان يعاملوك بالمثل، تعني ان نحرر أنفسنا بأنفسنا وبقوانا الذاتية، تعني تحدي السلطة الحاكمة القوية، في داخل وخارج الأطر الوطنية الاجتماعية، تعني الدفاع عن القيم التي يؤمن بها المرء مقابل أي تضحية، تعني التواضع وعدم الأنانية والإيثار والتضامن والبطولة، تعني النضال بجرأة وحكمة وبإحساس بالواقع، تعني عدم الكذب أو انتهاك المبادئ الأخلاقية، تعني أن يكون لديك قناعة عميقة بعدم وجود سلطة في العالم قادرة على سحق قوة الحقيقة والأفكار. الثورة هي الوحدة والاستقلال والنضال من أجل أحلامنا لتحقيق العدالة لكوبا والعالم، هي أساس وطنيتنا واشتراكيتنا وأمميتنا".

وبالنتيجة، أن تتخذ موقفا يساريا، وأن تكون يساريا، يعني أن تقف دوما الى جانب التقدم الاجتماعي. وبهذا الشكل، ان تكون يساريا، يعني ان تكون بعيدا عن اية بيروقراطية لأنك بهذا تقف ضد كل ما يوقف ما هو ضروري لحل مشاكل المجتمع. ويجب على اليسار (أيضاً) استيعاب تلاشي الدولة، حتى من اللحظة التي يتعين عليه فيها تقويتها، ليتمكن من حل المهام الاشتراكية. وعليه رؤية السلطة باعتبارها وسيلة جماعية لتحقيق التغيير الثوري للمجتمع، وبأي حال من الأحوال، ليست غاية بحد ذاتها، فالثاني سيعني استعارة (ممارسة) شكل السلطة

الرأسمالية. لذلك يجب أن يكون اليسار دائما مستعدا للتغيير، ولفهم المشاكل الجديدة والبحث وإيجاد الحلول الجديدة التي تتطلبها.

على اليسار أن يكون مبدعًا

يجب أن يكون "فكر اليسار المناهض للرأسمالية، مصحوبا بالفعل. ان "اليسار" الذي يفكر فقط ويطور الحجج ووجهات النظر، لكنه لا ينشط سياسيا عمليا، ولا يخاطر، ويراقب المشاكل فقط، وآراؤه مثقلة بحكم الأمر الواقع بسبب الافتقار إلى الفهم العملي، تكون آراؤه قليلة الفائدة، أو لا تفيد المجتمع بل تؤدي في الغالب إلى نتائج عكسية.

لا جدوى من ملء الصفحات وإضاعة الوقت في صنع الثورات على الورق أو في الخطب (التي تلقى). ان العلاقة بين التفكير وممارسة الفعل تمثل مبدأ وجود اليسار كقوة تغيير".

وهذا يتعلق بشخصية الحركة الاجتماعية، التي لا تعني ابراز الأسماء كأعلام مرفوعة، أو الاطلاق الذاتي لتوصيف اليسار، بل تريد ان يفهم أن هناك مصالح متعارضة جذرياً في عالم اليوم تتطلب بالضرورة تحديد أهداف، وطرح بدائل. هذه الأهداف تتحول إلى توجهات عمل، وبالتالي على المرء التعامل على اساسها، واكتساب الخبرة، من النجاحات والفشل على حد سواء، والاستمرار في المضي قدماً. ان الهزائم والفشل لا تتحول الى تجارب مفيدة، الا في حالة مواصلة النضال فقط. عندما أتحدث عن تحديد معنى وهدف النضال، فأنا لا أعني أي برنامج معين أو أي طريقة معينة لتفسيره. على سبيل المثال، وفق ظروف عالم اليوم، فأن الدفاع عن السيادة أو استعادة الثروة، والدفاع عن الثقافة والهوية الوطنية، مطالب ثورية، وفي الوقت نفسه هي مطالب أولية تسمح لصانعي التغيير (قوى اليسار) جذب فئات اجتماعية قد لا تتبنى أهدافا ابعد.

هناك الكثير من الدوغما التي نشرتها الرأسمالية في أذهان الناس، وهي برامج يتم من خلالها "التعرف" تلقائيا تقريبًا إلى إشاراتها (الرأسمالية) والصور النمطية (التي يربطها بها الناس) والتي يجب على اليسار أن يخوض ضدها نضالا فكريا. تمثل المفاهيم الراهنة مثل دولة القانون، المجتمع المدني، حقوق الإنسان، الحرية، والديمقراطية، والسياسة، وما إلى ذلك، نهجاً ثورياً أولياً لليسار لتعزيز التفكير النقدي وتقديم توضيح للتفسيرات الغامضة المنبثقة عن الماكنة الأيديولوجية للرأسمالية المهيمنة. ويمثل ذلك تحديا لليسار، في أن يكون مبدعا من جديد، وأن يتعرف الى نفسه أكثر، وأن يعزز وعيه، على أساس المواجهة اليومية للروح النضالية الثورية مع الحياة اليومية للمجتمع. ولهذا لا خيار لهم، سوى مغادرة متاهة أساطيرهم وعيوبهم وشبكاتهم الذهنية (الجامدة). الإبداع يعني دائما قطيعة مع ما سبق، والاستمرارية ايضا. أن تكون مبدعا يعني أن يكون المرء نفسه،

وفي الوقت نفسه شخصا آخر. الإبداع هو رفض الخضوع للروتين، للمعرفة المكتسبة التي لم تعد صالحة. ان التفاؤل ضروري للإبداع والثقة بالناس ورفض الغطرسة التي تؤدي إلى العزلة والوحدة حتما. لا يمكن أن يكون الإبداع كافيا بذاته، لأنه لا ينشأ إلا من الواقع. في حين يمكن للافراد ان يكونوا كذلك، لأن سلوك الناس يمكن أن يسترشد بالانحراف والجهل والعادات السيئة. يمكن لليسار أن يجد طريقه إلى الإبداع، من خلال الارتباط الوثيق بالمجتمع فقط. حتى في خضم انتشار العادات الفاسدة التي رسخت نفسها في أوساط السكان نتيجة لعقود طويلة من ضبابية الوعي، للعثور على مرشد لإعادة ابتكار ذلك النسيج الذي يتوافق مع الوعي الجديد للناس في ظل الظروف الجديدة. لهذا، فإن الشيء الأول هو أن كل من لديه وعي يساري ومناهض للرأسمالية قادر على التحرر من أشباحه، من قيوده لمواجهة الجديد، والتعلم منه وبالتالي تغيير نفسه سوية مع الجميع. دمج اليسار في تأثيره اليومي، أي الناس الذين يعون مواقفهم المناهضة للرأسمالية، باشكالها المختلفة للعمل المشترك والتكامل ضد هذا النظام، بأفضل ما يمكن في مواقع الصراع السياسي، من أجل جمع الخبرات النضالية المتحققة في حياتهم اليومية. ليس من النادر أن يتمثل أكبر ضعف لليسار في القرن الماضي، وحتى يومنا هذا، في تقديم عالم يتعذر الوصول إليه تماما وغير مفهوم للآخرين، ليس لأن الآخرين غير مبالين، بل لأن اليسار كان غير مبال، ولم يكن بإمكانه إيضاح مسارات المشاعر الإنسانية لنفسه أو للآخرين. ان ما سبق قوله يعني جعل التأهيل السياسي في مقدمة الأولويات على ان يشمل كل الثوريين. يجب أن يكون التأهيل مبدعاً من جميع النواحي، سواء في محتواه أم في الشكل الذي يتم عرضه فيه. ولسوء الحظ، ليس من النادر الحصول على تأهيل سياسي، عبر تكرار العموميات بلغة قديمة، وكأن شيئاً لم يتغير في هذا العالم. وفي كثير من الأحيان لا يتم استخدام التقنيات والوسائل وامكانيات التواصل الجديدة. يبدو أن الأجيال الجديدة بقيت خارج هذه الممارسة. وفي إطار الابداع أيضا، يجب أن يصبح اليسار محط جذب للناس، وخاصة الشباب. ويجب على اليسار الجمع بين الإبداع والبهجة والفرح. يجب أن يكون اليسار مبتهجاً، فلديه أسباب كافية للتفاؤل التاريخي. ولا يمكن أن تكون النغمة الهرمية والطنانة والمقبولة في لحظات تاريخية قليلة هي أسلوب تواصل اليسار. تتضمن مسؤولية أي حركة اجتماعية تعد نفسها يسارية الحاجة إلى رؤية واقعها الثقافي ككل متجدد باستمرار، بدءا من واقعها الخاص، لإيجاد وسائل لمواجهة الرأسمالية المتأخرة بنجاح، وسائل تربط الوطني بالأممي بشكل وثيق غير قابل للانفصام.

أممية اليسار

إنّ محاربة الرأسمالية المتأخرة مهمة باتجاهين. إنها مشكلة وطنية، لكنها في نفس الوقت تعبير ملموس عن أزمة نظام عالمي. لا أحد يستطيع المضي قدماً في عالم اليوم إذا كان معزولاً تماماً، ولا أحد يتمتع بالاكتفاء الذاتي، لا اقتصادياً ولا سياسياً. ان المنطق الأممي للنضال ضد الرأسمالية يتوافق مع الواقع العالمي للنظام، الذي لم يترك جشعه عمليا أي مساحة لم يغزوها بقواعده وتعطشه للسلطة. ان ما حدث في العالم بعد زوال التوازن الثنائي القطب هو تعزيز القوى المؤسسية العالمية في مركز نصف الكرة الشمالي. ان سياسات مراكز العالم الرأسمالي، التي يعكسها أداء ممثلي الحكومات في الاجتماعات، وتصرفات القوى الليبرالية والاجتماعية الديمقراطية الدولية، عبر إجراءات الاتحاد الأوروبي، وتوسيع حلف الناتو، وهيمنة وسائل الإعلام وإحياء الأسطول الرابع وأشياء أخرى كثيرة تتعارض مع القوى المناهضة للرأسمالية وإن كانت ضعيفة. في مواجهة هذا الواقع، فان نبذ الأممية يعني التخلي عن ميدان استراتيجي للنضال ضد الرأسمالية. وبالنسبة لليسار، يعتبر مبدأ الأممية واجبا أخلاقيا وسياسيا نشأ من الحاجة الأساسية للدعم المتبادل؛ إنه ليس مبدأ عائما أثيريا (سريع التبخر)، ولكنه ضرورة بالمعنى الحقيقي للكلمة. ان التضامن الاممي هو مبدأ يعطي النضال جوهرا وبالتالي يجعله ذا مغزى، باعتباره شرطاً ضرورياً للنجاح. في الواقع، من الصعب جداً، بل ومن المستحيل اليوم تحقيق الأهداف الأساسية للتحرر، مثل استعادة الثروة من أيدي الشركات فوق القومية أو المتطلبات الأساسية للتنمية، ما لم يعمل المرء في تعاون وتكامل إقليمي متزايد. يجب أن يكون هذا التعاون متعدد الأطراف، وأن يشمل أشكالًا أخرى من التعاون الأممي، وعلى الأرجح تكامل سياسي. في منطق الإستراتيجية الثورية، تتعارض مواقف اليسار مع طبيعتها إذا لم تصبح أممية بشكل متزايد. وهذا يعني فهم اين يقف أعداء الشعوب الحقيقيون وبدون فقدان اتجاه البوصلة، التي تنشر استراتيجية المعرفة، وتصمم التعامل المتغير.

خاتمة

لقد حاولت توصيف سبع سمات أو خصائص قد تساعد في تحديد ما نسميه اليوم "يسارا". وغني عن القول، أن هذه الميزات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، ويكمل بعضها البعض، ولكن يمكن التمييز في ما بينها للمساعدة في توضيح الهيكل الذي كنت أحاول تحديده.

في نهاية هذا المقال، أعتقد أنه من المناسب التأكيد ان هدفي هو المساهمة في أسلوب أفضل للتحليل، وليس اثبات الفروق بين الجماعات السياسية. هناك قضيتان إحداهما وصف الاتجاه، والاخرى هي مطالب ونشاط هذه السياسة أو تلك. تمر الرأسمالية المتأخرة

الآن بأزمة جديدة ذات أبعاد لا يمكن التنبؤ بها، لكنها ما زالت حية وتكافح من أجل التعافي ثانية. إن النقد المطلوب والضروري لأخطاء الاشتراكية واليسار كتوجه سياسي، خاصة في القرن العشرين واليوم أيضاً، يمكن أن يسهم بطريقة ما في العمل السياسي ضد الرأسمالية المعولمة والتابعة نظريا بالكامل للمراكز الرأسمالية. انها رأسمالية تريد فرض طريقة تفكير واحدة، ولكنها تواجه مقاومة جماهيرية تتصاعد باستمرار. لا يوجد اتجاه فكري منفرد يستطيع مواجهة الرأسمالية كتيار فكري منفرد، وبالضبط لا يستطيع المرء هزيمة الراسمالية كنظام بادواتها المتنوعة، الاقتصادية والمالية والتجارية والسياسية والقانونية والأيديولوجية والنفسية والإعلامية والعسكرية، بدون رؤية منهجية لبديل، وبدون نظرية للتغيير، يجب أن يكون جزءا منها أيضاً دراسة ومعرفة خصائص القوى الاجتماعية التي تكافح الرأسمالية. تتضمن هذه الرؤية تحليلا يسمح للفاعلين الاجتماعيين - السياسيين بتوصيف كل مرحلة. ان هذا التحليل، الذي بدونه سيتعامل الفاعلون المذكورون مع بربرية الرأسمالية المتأخرة بردات الفعل فقط، يجب ألا يكون من المحرمات.

ان التعصب والانغلاق غير قادر على نقل المعرفة العميقة لهذه الحقيقة، وبالتالي يتعامل الناس بدونها. يجب صياغة سياسة تمكين القوى التقدمية بشكل جماعي، مع أوسع مشاركة ممكنة لجميع المناهج والمصالح، بروح شمول (هذه القوى)، دون قيود، دون مراتبية، والاعتراف بأن لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة وأنه يمكننا ويجب علينا جميعًا أن نتعلم من الجميع.

***الدكتور داريو إل ماتشادو رودريغيز هو أستاذ الفلسفة في الجامعات الكوبية وعضو هيئة تحرير مجلة "كوبا الاشتراكية"، والترجمة لبحثه المنشور في موقع "شيوعيون" الألماني في 25 تشرين الأول 2012. وسبق وان نُشر تعريف مختصر بالبحث في جريدة "طريق الشعب" أواخر شباط 2022.**

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور الدكتور ماهر الشريف

اجرى الحوار: سوران قحطان

ماهر الشريف

مؤرخ ومفكر فلسطيني يساري من مواليد 1950. ولد في دمشق لأب فلسطيني وأم سورية. حاصل على دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة باريس الأولى-/السوربون عام 1982، وكذلك على دكتوراه حلقة ثالثة في التاريخ المعاصر من الجامعة نفسها عام 1977. باحث في «المعهد الفرنسي للشرق الأدنى» في بيروت، وعضو اللجنة الدولية المشرفة على فصلية «أبحاث دولية» في باريس، وعضو لجنة تحرير «دفاتر مجموعة الأبحاث والدراسات حول المغرب العربي والشرق الأوسط» في باريس ايضا.

من مؤلفاته: (الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين 1919 - 1948)، بيروت 1981؛ (مقدمة في تاريخ فلسطين الاقتصادي والاجتماعي)، عن دار ابن خلدون، بيروت 1985؛ (البحث عن كيان: دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني 1908 - 1993)، عن مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، نيقوسيا/دمشق 1995؛ (رهانات النهضة في الفكر العربي)، عن دار المدى، دمشق 2000. ومن إصدارات دار المدى (فلسطين في الأرشيف السري للكومنترن)، دمشق 2004.

الثقافة الجديدة: منذ عقود والبشرية تواجه تحديات كبيرة. تحديات ذات طبيعة متنوعة سياسية واقتصادية، واجتماعية وبيئية. ويبدو ان الثقة بقدرة البشرية على التعامل مع هذه المعضلات يغلب عليها التشاؤم. هناك رأي ان هذا التشاؤم بإمكانيات الانسان إيجاد حلول حقيقية للتحديات التي تواجه مسيرته - او لا مبالاته تجاهها على اقل تقدير- ربما يعود اساسا الى غياب بديل واضح المعالم. فالبدائل المطروحة حاليا، ليست شمولية، وليست إنسانية جامعة. والكثير منها تمثل سياسات مغلقة على مجتمع او ثقافة محددة، وهي في غالبيتها تمثل هروبا شعبويا او اصوليا الى الامام. ولنأخذ كلمة أصولي بكل معانيها الثقافية والدينية والإثنية.. الخ.

اما الاشتراكية كحل انساني شمولي، فإن أطيافها ما عادت تجول العالم، ومن الجلي ان الاحلاف المقدسة انتصرت. فمن جهة، نجحت هذه الاحلاف في كتم انفاس "الاشتراكية الحقة". ومن جهة أخرى، نجد ان الدول "الاشتراكية" المتبقية الان اما تصارع لأجل البقاء، او هي ذات "اشتراكية" نستطيع ان ننسب لها ما نشاء من خصائص إلا الاشتراكية. ومن جهة ثالثة، هناك أحزاب وتنظيمات، ما زالت تندب الفردوس المفقود.

بالتأكيد، في العالم الآن هناك العديد من الأحزاب الاشتراكية وحركات اليسار الجذري، التي يتصاعد نشاطها في هذا البلد او ذاك من بلدان المركز الرأسمالي، او في بلدان الأطراف. ومن المهم جدا ان لا نبخس تأثيرها المهم في الكثير من المجالات.

لكن هناك من يرى ان ما يغيب عن مشروعها، ما هو مفقود في استراتيجيتها، ان الاشتراكية لم تعد ذلك المعيار النقدي لبؤس الواقع، لم تعد ذلك البديل الواضح، بل وربما فقدت مكانتها عند الكثير من الأحزاب والحركات والمثقفين بوصفها ذلك الغد الذي سيوّحد البشر.

ما رأيكم بوجهة النظر هذه؟ وهل يمكن ان تتعامل البشرية مع التحديات التي تواجهها بمنطق الرأسمالية مهما تصارعت تياراته؟ وهل ما زالت الاشتراكية كإمكانية تمثل بديلاً عن بربرية الواقع الحالي او أي بربرية أخرى ستنتج عنه كإمكانية مستقبلا؟

هل لك ان تتوقف امام هذه القضية بشيء من التفصيل؟

ماهر الشريف: إن ما أطلقت عليه في سؤالك اسم "بربرية الواقع الحالي"، حيث يعيش 1.2 مليار شخص تحت خط الفقر، ويقتل 8 ملايين رجل وامرأة وطفل كل عام في "حروب صغيرة"، وتنتشر الأمية في مناطق واسعة من العالم، إن هذه "البربرية" ناجمة عن استمرار استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، واستعباد شعب لشعب آخر، والتمييز بين المرأة والرجل، وتدمير الطبيعة؛ وفي ظني، فإن الاشتراكية هي البديل عن هذا "الواقع البربري"، بما يضمن تصفية جميع أشكال

اللامساواة الطبقية والقومية والجنسية، أو الحد منها على أقل تقدير، وخصوصاً أن أشكال اللامساواة هذه هي من أصل اجتماعي وليست طبيعية. أما الحاجة إلى هذه الاشتراكية فهي لم تعد تنبع من حتمية تاريخية، كما كنا نعتقد سابقاً، وإنما من حاجة أخلاقية.

لكننا نلاحظ أن القوى التي تتبنى الاشتراكية ما زالت، منذ سقوط ما سمي بنموذج "الاشتراكية الواقعية"، تواجه حالة من الارتباك الإيديولوجي وتعاني من قصور نظري عند الانتقال من هذا التعريف العام للاشتراكية إلى تحديد ملامح المجتمع الاشتراكي وبلورة استراتيجية كفاحية للنضال من أجل بلوغه، في ضوء التغيّرات التي طرأت على بنية الرأسمالية في العقود الأخيرة، والتحوّل الذي طرأ على الاقتصاد العالمي في ظل العولمة، وهيمنة الاحتكارات الرقمية على الاقتصاد، واندماج رأس المال الصناعي والمالي مع رأس المال الرقمي، وبروز ما أطلق عليه بعض المحللين اسم "الرأسمالية الخوارزمية" باعتبارها مرحلة جديدة من الرأسمالية ظهرت في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وتزامنت مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي والهواتف الذكية والبيانات الضخمة ونشر الخوارزميات والتعلم الآلي.

ففي ظل هذه التغيّرات البنيوية، هل يمكن بلوغ هذا المجتمع الاشتراكي على نطاق بلد واحد؟

إن تجارب البناء التي تحمل اسم اشتراكية والتي نشهدها حالياً، لا تزال في مرحلة التجريب، وتطرح أسئلة أكثر مما تقدم إجابات عن هذا السؤال.

فتجربة الصين الشعبية، على سبيل المثال، التي تبنت مشروع "بناء اشتراكية ذات خصائص صينية" على أساس الجمع بين الاشتراكية والسوق، ما زالت تطرح أسئلة حول ماهية هذه "الاشتراكية". فبينما قدّر رائد هذه التجربة، الزعيم الراحل دينغ تسياو بينغ، أنه لم يعد هناك إدراك لماهية الاشتراكية، وأن كل ما ينبغي تأكيده هو أن جوهر الاشتراكية يتمثّل في تطوير القوى المنتجة، وتعزيز إمكانات الدولة، والحد من الاستقطاب الاجتماعي والسعي من أجل ضمان رخاء الشعب وازدهاره، من خلال اعتماد طريق يسمح - في بلد شاسع المساحات ويضم أكثر من مليار و400 مليون نسمة - لبعض المناطق ولبعض الفئات الاجتماعية بأن تحقق الرخاء والازدهار قبل غيرها. أكد بعض المفكرين الماركسيين، ومنهم المفكر الراحل سمير أمين، أن الأمر لا يتعلق، في تجربة الصين، بالجمع بين الاشتراكية والسوق بصورة مجردة، وإنما بالجمع بين الاشتراكية والسوق الرأسمالية تحديداً، التي تقوم على الاستغلال، وتشجّع التراكم الخاص، وتضغط على عوامل الإنتاج من أجل خفض التكلفة، وتستنزف الموارد الطبيعية غير المتجددة، ليخلص إلى أن اشتراكية السوق الصينية ما هي في الواقع سوى شكل من الكينزية المتطبعة بطابع صيني، وتمتلك خصائص مشتركة

مع ما بات يعرف بالطريق الثالث، وأن الصين تتبع اليوم طريقاً رأسمالياً إلى حد كبير، يهدف إلى بناء الهياكل الأساسية للرأسمالية ومؤسساتها، مع التقليل قدر الإمكان من الاحتكاكات والآلام المصاحبة للتحوّل نحو الرأسمالية.

ومهما يكن، وإذا كان يتوجب على الماركسيين واليساريين العرب المساهمة في هذا النقاش الدائر على صعيد العالم لتحديد ماهية اشتراكية المستقبل وسبل بلوغها، فإن عليهم أن يدركوا، في الوقت نفسه، أن النضال من أجل بلوغ الاشتراكية في الدول العربية لن يكون سوى عبر التصدّي لحل المهمات التي بقيت معلّقة منذ عهد الاستقلال، وفي مقدمها إقامة دولة المواطنة الحديثة، القائمة على فصل الدين عن الدولة، والتي يحل فيها مفهوم المواطن، المستقل بشخصيته، محل مفهوم الرعية، ويكون فيها الولاء للوطن على حساب الولاء للطائفة أو للمذهب أو للمنطقة، ويتساوى فيها الجميع أمام القانون.

الثقافة الجديدة: لا نعرف حقيقة من استعار - أول مرة - مفردة الربيع من القاموس السياسي التاريخي الغربي، وصار تعبير "الربيع العربي" يطلق على الانتفاضات والحركات الاحتجاجية العربية التي اندلعت منذ نهاية عام 2010. وصارت تقرن ان لم تقارن بربيع أوربا الأول (1848) او ربيعها الثاني (1968). المقارنة على الرغم من التشابه الشكلي غير سليمة، كما انها ليست بريئة. فهي لم تحمل في طياتها المعاني الإيجابية فقط، وانما ركزت بوضوح او مواربة على تلك الدلالات السلبية المتشابهة، خصوصا من ناحية النتائج والمآلات. فإذا كانت خلاصة ربيع أوربا الأول بمعظمه باستثناء فرنسا هي توزع الثوريين في المنافي، واذا كان ربيعها الثاني قد انتهى بالعديد من المنتفضين الى أحضان اليمين؛ فإننا شهود عيان على محصلة انتفاضات الربيع العربي بعد أكثر 10 سنوات من اندلاع شرارتها الأولى.

في احد حوارات الثقافة الجديدة قبل مدة، صنفنا في أحد الأسئلة مآلات الربيع العربي وان بصورة تعسفية "الى المسارات الاتية:

انهيار الدولة الحديثة بهذا الشكل او ذاك، وبهذا الحجم او ذاك. غالبا بسبب خواء منظومة مؤسسات الدولة وايضا بسبب التدخلات الخارجية (ليبيا، سوريا، اليمن).

الاسلام السياسي التقليدي المنظم يقطف ثمار الحركة الاحتجاجية، انقلاب مؤسسات الدولة الراسخة على الاسلام السياسي، ثم اعادة تشكيل سلطة فردية شعبوية بدعم من مؤسسة عسكرية راسخة (مصر، الى حد كبير تونس كما بدا مؤخرا).

اصلاحات "رتوش" خارجية لم تمس جوهر المنظومة الحاكمة (المغرب، الجزائر، السعودية)".

دكتور ماهر، الحيز هنا، لا يسمح لنا الخوض بتفاصيل الاحداث، ولا بتتبع

مجرياتها والبحث في أسبابها وتفاعلاتها.. الخ. خصوصا وان مثل هذه القضايا تم اشباعها في مقالات وبحوث سابقة. لكن، ما يمكن ملاحظته في كل الانتفاضات العربية تقريبا، خصوصا عند انطلاقتها المبكرة، هو انشغالها - عن حق وضرورة بالتأكيد - بالداخل، بقضايا الحريات والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. أي بالصراع مع الحكام والدكتاتوريات. وما غاب عنها بصورة تكاد شبه كاملة تقريبا، هو ان أي عملية تغيير حقيقية، ان الثورة، يجب بل تشترط ضرورة إعادة هيكلة علاقة الدولة بالمنظومة الرأسمالية العالمية. بمعنى آخر، انها تستلزم إعادة تضبيط وتنظيم علاقة البلد المعني كجزء من منظومة بلدان الأطراف بالمركز الرأسمالي لصالح جماهير الشعب. ففي النهاية، كان بقاء الحكام والدكتاتوريين، مرتبطا بموقعهم في النظام العالمي، سواء كانوا مقربين ام منبوذين.

نستفسر دكتور ماهر: برأيك ما هي أسباب اختفاء بُعد التحرر الوطني بمعناه هذا لا عن اهداف الانتفاضات العربية بعمومها فحسب وانما غيابه الكبير حتى عن اذهان المثقفين من المنتفضين والثوريين؟ وهل كان للضعف المتأصل منذ فترة ليست بالقصيرة للحركات اليسارية وللأفول المزمن لبديلها دور في ذلك؟

ماهر الشريف: لا أعرف أنا أيضاً من هو أول من أطلق على الحراكات الشعبية التي انطلقت في أواخر سنة 2010 تعبير "الربيع العربي" الذي لا أحبذه. وكما ورد في سؤالك، فإن هذه الحراكات التي تصدرتها، عند انطلاقتها، مجموعات شبابية متعلمة، متواصلة مع العالم من خلال تملكها وسائل الاتصال الحديثة، وساهمت المرأة مساهمة فعالة في معظمها، كانت مطالبها التي لخصها شعار "خبز، حرية، كرامة"، مشروعة. بيد أنها سرعان ما هيمنت عليها في بعض الدول العربية حركات "إسلامية" تكفيرية فاقمت الانقسامات الطائفية، ومزقت النسيج الاجتماعي لشعوبها وهددت وحدة كياناتها الدولتية، واستجرت التدخل العسكري الإقليمي والدولي في أحداثها، بينما انتهت، في دول أخرى، إلى إعادة إنتاج النظام القديم بلبوس جديد.

وبغض النظر عن هذا التباين الذي طبع مجرى هذه الحراكات الشعبية، يمكننا أن نستخلص من أحداثها جملة من الاستخلاصات العامة، ومن أهمها: أولاً: إذا كانت هذه الحراكات قد أبرزت الحاجة الملحة إلى التغيير، فإنها بيّنت، في الوقت نفسه، أن الأزمة العامة التي تواجهها بلداننا العربية ليست أزمة نظام سياسي فحسب بل هي أزمة مجتمع كذلك، أزمة نظام تعليم ومناهج تربية، وخصوصاً دينية، أزمة مستقبل شباب يشكلون أكبر نسبة من المجتمعات العربية، ويعانون من الاغتراب الاجتماعي في قلب أوطانهم، أزمة نموذج تنمية قاصر، استند إلى سياسات التحرير الاقتصادي والخصخصة والخضوع لوصفات صندوق النقد الدولي،

وشكّل أرضية خصبة لانتشار الفساد والكسب غير المشروع؛ ثانياً: بيّنت هذه الحراكات أن الديمقراطية لا يمكن اختزالها إلى بعدها السياسي، فهي لا تنحصر في التنافس على انتخابات تمثيلية، بل هي نمط من التفكير والسلوك الذي يتخلل نسيج حياة المجتمع بكاملها، كما إنها لا يمكن أن تكون إيديولوجية جديدة وبلسماً شافياً لكل الأدواء العربية؛ ثالثا: لقد تبيّن أن تجربة القوى السياسية التي تلبست لبوس الدين في الحكم غير قابلة للنجاح؛ ففي مصر، على سبيل المثال، تهاوى حكم "الإخوان المسلمين" قبل أن تسقطه الاحتجاجات الشعبية المدعومة من الجيش، نتيجة السياسة التي اتّبعوها خلال سنة من حكمهم، إذ نزعوا إلى الانفراد بالسلطة والاستحواذ على كل مفاصلها، وسعوا إلى إضفاء طابع ديني على أجهزة الدولة كافة، ودخلوا في صراعات مع القضاء ومع الإعلام ومع مؤسسة الشرطة، وحاولوا فرض دستور يتوافق مع فهمهم للإسلام، كما أخفقوا في طرح حلول حقيقية لمشكلات المجتمع السياسية والاقتصادية، الأمر الذي أدّى إلى مفاقمة مشكلات البطالة ونقص الوقود والكهرباء وانعدام الأمن، وسمح للجيش بالعودة إلى تسلم زمام الحكم. وهذا الفشل، إن دلّ على شيء، فهو يدّل على عدم واقعية الدعوة إلى إقامة دولة دينية تستند إلى الشريعة، ويزكّي، في المقابل، الدعوة إلى العلمانية التي لا تعني مناهضة الدين، بل تبيح حرية الاعتقاد والضمير لكل مواطن في المجتمع، وتدعو إلى الابتعاد عن التكفير، وتضمن حرية التفكير والبحث في كل المسائل، وبضمنها المسائل الدينية؛ رابعاً: ما زالت المسألة الوطنية تحتل مكانة مهمة في مشروع التغيير، وإذا كان من عوامل قصور دعاة القومية العربية، الذين وصلوا إلى السلطة، عجزهم عن إدراك حقيقة العلاقة الجدلية بين حرية الوطن وحرية المواطن، فركّزوا على الأولى على حساب الثانية، متجاهلين حقيقة أن المواطن الحر هو ضمانة الوطن الحر، فإن القائمين على بعض هذه الحراكات عانوا من قصور معكوس عندما ركزوا على حرية المواطن وتجاهلوا حرية الوطن، بل راهنوا، في بعض الحالات، على التدخل الخارجي واستجروه.

الثقافة الجديدة: بعد هذه الجولة الواسعة من العام العالمي مرورا بالخاص العربي، نصل الى فلسطين. دكتور ماهر، ترى ما هي الابعاد والآثار التي ترتبت على كل هذه التحولات العالمية والعربية على واقع القضية الفلسطينية وتطور صراعها مع العدو الاسرائيلي؟ وما هو أثرها على اشكال النضال المختلفة؟ مثلا انحسار المقاومة المسلحة شبه الكامل وانطلاق اشكال أخرى من النضال مثل الانتفاضات (انتفاضة الحجارة وانتفاضة الأقصى الشعبيتان)، وصولا الى مباحثات اوسلو وما تلاها من مفاوضات. على اعتبار ان المفاوضات جوهريا وبغض النظر عن أي ملابسات او تفاصيل هي

في نهاية المطاف شكل من اشكال النضال وهي تكتيك مقبول في ظروف محددة.. ولكن المشكلة ليست هنا بل في ادارة هذه المفاوضات ووضوح الاهداف المطلوب تحقيقها من وراء تلك المفاوضات؟!

أيضا، ما هو أثرها على موازين القوى بين الفصائل الفلسطينية المختلفة خصوصا اليسارية والتقدمية منها؟ وعلى العلاقة في ما بينها، سواء تلك المنتمية لمنظمة التحرير او تلك التي تتموضع خارجها؟ وكذلك، على موازين القوى بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل؟ وموازين القوى داخل اجنحة السلطة نفسها؟

لاحظ دكتور ان قراءنا ينتظرون منكم فرشة واسعة عن تطور الصراع والوضع الفلسطيني خلال العقود الماضية.

ماهر الشريف: لقد راهنت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية التي خرجت ضعيفة من حرب الخليج الثانية، عندما عقدت "اتفاق أوسلو" مع حكومة رابين- بيريس، على أن الفترة الانتقالية من الحكم الذاتي التي حددها الاتفاق بخمس سنوات ستنتهي بإقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية، وقطاع غزة. بيد أن هذا الرهان سرعان ما خاب ووصلت "عملية السلام" إلى طريق مسدود جراء رفض الحكومات الإسرائيلية الوفاء بالتزاماتها بشأن الانسحاب من المناطق الفلسطينية المحتلة، ومواصلتها عمليات مصادرة الأراضي وبناء وتوسيع المستوطنات وتهويد القدس، وامتناعها عن إطلاق السجناء والمعتقلين الفلسطينيين، وفرضها الإغلاقات على المناطق الفلسطينية، الأمر الذي أدى إلى شلل في حياة الفلسطينيين الاقتصادية وزيادة أعداد الذين يعانون من الفقر والبطالة عما كانوا عليه عشية توقيع "اتفاق أوسلو"، ودعوتها إلى توطين اللاجئين الفلسطينيين في أماكن إقامتهم الحالية، وإلغاء قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 194، وتصفية وكالة الأونروا.

ونتيجة إخفاق "عملية السلام"، وخصوصاً بعد فشل مفاوضات كمب ديفيد في تموز 2000 بين الرئيس ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي ايهود باراك التي رعاها الرئيس الأميركي بيل كلينتون، كان من الطبيعي أن تندلع الانتفاضة الثانية في أواخر أيلول 2000، والتي كانت تعبيراً عن خيبة أمل الجمهور الفلسطيني وشعوره بأن التفاوض من دون ممارسة الضغط لن يجدي. وخلافاً للانتفاضة الشعبية الأولى، طغى على هذه الانتفاضة الثانية، ومنذ أسابيعها الأولى، الطابع العسكري الذي اتخذ أبعاداً خطيرة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 في الولايات المتحدة الأمريكية، وساعد في تمكين رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك أرييل شارون، بعد إعلان إدارة جورج بوش الابن "الحرب الشاملة على الإرهاب"، من الادعاء بأنه يقف في الخطوط الأمامية لـ "الحرب على الإرهاب"، ما جعله طليق اليدين ليعيد احتلال المدن الفلسطينية، في آذار 2002، ويفرض حصاراً على مقر رئيس السلطة

الوطنية ومنظمة التحرير ياسر عرفات في مدينة رام الله، انتهى باستشهاده في تشرين الثاني 2004.

والواقع، أن فشل "عملية السلام"، الذي غيّر موازين القوى في الساحة الفلسطينية وساعد على تصاعد نفوذ القوى الإسلامية وخصوصاً حركة "حماس"، تزامن مع هيمنة "صهيونية جديدة" على الساحة السياسية في إسرائيل، اتسمت بطابع قومي وديني، وأرادت فرض الاستسلام الكامل على الشعب الفلسطيني، وشنت خمس حروب دموية على قطاع غزة المحاصر، وراحت تشيع أن الصراع مع الفلسطينيين هو صراع وجودي لا حل له، كما تزامن، أو بالأحرى تسبب في اضمحلال حركة السلام الإسرائيلية، وتراجع التأييد للديمقراطية ومؤسساتها في المجتمع الإسرائيلي، وإعلاء شأن الطابع اليهودي للدولة وتهميش مكانة العرب الفلسطينيين في إسرائيل وإضفاء طابع قانوني على العنصرية الممارسة إزاءهم، كما دل على ذلك إقرار "قانون أساس: إسرائيل - الدولة القومية للشعب اليهودي" الذي تبناه الكنيست في سنة 2018. وقد استغل حكام إسرائيل السياسات التي انتهجتها إدارة الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب، خلال سنوات ولايتها الأربع، لخلق وقائع جديدة تكرس سيطرتها الكاملة على الأرض الفلسطينية، إذ انتقلت الولايات المتحدة الأميركية صراحة، في عهده، من نهج "إدارة الأزمة"، الذي انتهجته الإدارات السابقة منذ التوقيع على "اتفاق أوسلو"، إلى العمل على تصفية أهم مكوّناتها وهي قضية القدس وقضية اللاجئين وقضية التحرر من الاحتلال. ومع أن إدارة الرئيس جو بايدن الجديدة أرادت في الظاهر التمايز عن الإدارة السابقة عبر الانفتاح على الفلسطينيين واستئناف تقديم بعض المساعدات لهم، وأكدت تبنيها اللفظي "حل الدولتين"، إلا انها عادت، في الواقع، إلى نهج "إدارة الأزمة"، وامتنعت عن ممارسة ضغوط جدية على حكام إسرائيل.

ومن ناحية أخرى، فإن فشل "عملية السلام" سلّط الأضواء على عوامل الضعف في بنية الحركة الوطنية الفلسطينية، وهي عوامل نجمت، بصورة رئيسية، عن السياسات التي انتهجتها السلطة الوطنية الفلسطينية التي تشكّلت في سنة 1994، والتي أدت، في المحصلة، إلى انحسار دور منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها المظلة السياسية الجامعة للفلسطينيين وتحوّلها إلى ملحق للسلطة الوطنية، وتهميش دور اللاجئين الفلسطينيين في بلدان الشتات، وتعميق الانقسام بين تجمعات الشعب الفلسطيني الرئيسية الثلاثة، في الشتات، وفي المناطق التي احتلت سنة 1967، وفي المناطق التي احتلت سنة 1948، بحيث صار يبرز وكأن مهمة التحرر من الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة باتت منفصلة عن مهمة ضمان حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى وطنهم، وعن مهمة ضمان تمتع العرب الفلسطينيين من مواطني إسرائيل بحقهم

في الاعتراف بهم بصفتهم أقلية قومية في وطنهم ومساواتهم بسكان إسرائيل اليهود. بيد أن عامل الضعف الرئيسي في بنية الحركة الوطنية الفلسطينية ونظامها السياسي تمثّل في الانقسام السياسي والجغرافي بين الضفة الغربية وقطاع غزة، الذي نجم عن الخلاف بين حركتَي "فتح" و "حماس"، بعد الانقلاب الذي قامت به هذه الأخيرة في قطاع غزة، والذي طرح تساؤلات حول مستقبل المشروع الوطني الفلسطيني برمته. ومع أنه بذلت منذ وقوع الانقسام في سنة 2007 محاولات عديدة لإنهائه، إلا أن هذه المحاولات لم تنجح في استعادة وحدة النظام السياسي الفلسطيني، الأمر الذي كرس ثنائية قطبية في الساحة الفلسطينية، وهمّش دور القوى اليسارية التي عجزت عن تحقيق وحدتها وتشكيل قطب ثالث يكسر هذا الاستقطاب الثنائي. وفضلاً عن ذلك كله، ترافق فشل "عملية السلام" مع تكاثر الكوارث العربية، بحيث لم تعد النكبة الفلسطينية هي النكبة العربية الوحيدة، وخصوصاً بعد اندلاع الحراكات الشعبية في عدد من البلدان العربية. وكان من الطبيعي أن يستغل حكام إسرائيل هذه العوامل كلها للإمعان في مشروعهم الرامي إلى القضاء نهائياً على القضية الفلسطينية والترويج لحل "إقليمي"، يقوم على تهميش البعد الفلسطيني في الصراع، وإشاعة فكرة السلام الاقتصادي بحيث يتمّ الانتقال من اعتبار السلام مع الفلسطينيين هو الأساس إلى التركيز على المسار الإقليمي وعلى التطبيع مع الدول العربية.

أما بخصوص الشق الثاني من السؤال، فأنا من الذين يعتقدون أن السجال حول الدولة الفلسطينية المستقلة، إلى جانب إسرائيل، أو الدولة الواحدة، هو سجال لا طائل منه في الظروف الحالية. فالفلسطينيون لا يملكون اليوم شريكاً يصنعون معه ما أسميته في كتاباتي بسلام "العدل الممكن" في ظل توجه إسرائيل ومجتمعها، أكثر فأكثر، نحو مواقع اليمين القومي الديني المتطرف، وسعي حكامها إلى فرض الاستسلام على الشعب الفلسطيني من خلال التعامل مع السلطة الفلسطينية باعتبارها سلطة دائمة محدودة الصلاحيات تسيطر على السكان ولا تفرض سيادتها على الأرض، وتعمل على ضمان "الاستقرار" في المناطق الفلسطينية المحتلة، وتتعاون مع إسرائيل على "تحسين" حياة الفلسطينيين الاقتصادية. وأمام واقع كهذا، ليس أمام الفلسطينيين سوى تصعيد نضالهم وتوفير مقومات صمودهم على أرض وطنهم، آخذين بعين الاعتبار أن المشروع الصهيوني لم ينجح حتى الآن في تحقيق أهدافه الكاملة لأن نصف الشعب الفلسطيني ما زال مقيماً وصامداً فوق أرض فلسطين الانتدابية. ومن البديهي أنه لا يمكن ضمان صمود الفلسطينيين فوق أرضهم من دون تغيير النهج الاقتصادي الذي اعتمد بعد قيام السلطة الوطنية، والإقرار بأن لا تنمية في ظل استمرار الاحتلال والتبعية، والعودة إلى نهج اقتصاد الصمود، الذي يقوم على الالتزام الجماعي بالأرض والتوجه

نحو زرعها وفلاحتها، بما في ذلك في المناطق المسماة (ج)، الخاضعة إدارياً وأمنياً لإسرائيل بالكامل والتي تشكل نحو 60 في المئة من الضفة الغربية، وإقامة المزيد من التعاونيات الزراعية لسد الاحتياجات المحلية وتحقيق الاكتفاء الذاتي، وتشجيع الإنتاج الصناعي المحلي ودعم الاستثمارات الصغيرة والمتناهية الصغر والمتوسطة، وفرض المقاطعة الكاملة على البضائع الإسرائيلية، ومطالبة القطاع الخاص بالمساهمة الفعلية في المقاومة من خلال تركيزه على الاستثمار في القطاعات الإنتاجية عوضاً عن الاستثمار في المشاريع الاستهلاكية والعقارات والمؤسسات المالية، وتوظيف أرباحه في الداخل بدلاً من تحويلها إلى خارج فلسطين، وتوسيع المشاركة المجتمعية في صناعة القرار الاقتصادي. وفضلاً عن توفير مقومات الصمود، لا بدّ من إعادة ترتيب البيت الفلسطيني من خلال إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية وتوسيع طابعها التمثيلي وتفعيل دورها؛ فهذه المنظمة لا غنى عنها بالنسبة للشعب الفلسطيني، إذ هي "تمثّل رمزياً الشعب الفلسطيني، لا سكاناً متشرذمين ومنقسمين جغرافياً. ويتطلب إعادة بناء منظمة التحرير تحقيق المصالحة بين حركتَي "فتح" و "حماس" وإنهاء الانقسام السياسي والجغرافي بين الضفة الغربية وقطاع غزة، وتغيير وظائف السلطة الوطنية، بحيث تتحلل من التزاماتها، وخصوصاً الأمنية والاقتصادية، إزاء "اتفاق أوسلو" وتحصر مهماتها في توفير الخدمات الاجتماعية للمواطنين وتدعيم صمودهم.

الثقافة الجديدة: تعيش الأراضي الفلسطينية المحتلة حالة غليان خلال الاشهر الاخيرة وشهدنا تطور النضال المناهض للاحتلال، واتخذ اشكالا كفاحية متنوعة بما في ذلك الانتقال الى العمل المسلح وهذا الاخير تنوعت اشكاله وتعاظمت روح الاقتحام... كل هذا يهيئ الارضية لحدوث تطورات وانعطافات قد ترتقي الى مستوى الانتفاضة الشعبية وقد تكون بنوعية جديدة.

ما هو تقييمكم دكتورنا العزيز للحراك الجاري اليوم في مختلف الاراضي الفلسطينية المحتلة ومآلاته وماذا سينتج عنه؟

ماهر الشريف: في ظل غياب أفق سياسي، واستمرار حكام إسرائيل في ممارسة سياساتهم الاحتلالية والاستيطانية، تزداد حالة الغليان في الضفة الغربية المحتلة، بحيث باتت الأوضاع الأمنية المتفاقمة واحتمالات تطوّرها تشكّل هاجساً للمسؤولين السياسيين والأمنيين الإسرائيليين. ففضلاً عن أشكال المقاومة الشعبية المتنوعة، التي أثبتت فاعليتها في التصدي للمستوطنين الصهيونيين ولوحدات جيش الاحتلال الإسرائيلي التي تحميهم، وصارت تحظى بتضامن واسع على الصعيد الدولي وحتى من جانب مناهضي الاحتلال داخل إسرائيل نفسها،

راحت تبرز في الأشهر الأخيرة ظاهرة إطلاق النار على قوات الجيش الإسرائيلي من جانب شبان مخيمات وقرى وبلدات في الضفة الغربية، وخصوصاً في منطقتَي جنين ونابلس الشماليتين، تتراوح أعمارهم ما بين 17 و 25 عاماً وينتظمون في خلايا محلية ويخوضون، في أحيان كثيرة، معارك حتى الموت كي يثبتوا أن روح المقاومة ما زالت حية.

ويتخوف المسؤولون الإسرائيليون من أن تؤدي ظواهر المقاومة الجديدة هذه إلى تمهيد الطريق أمام انفجار شعبي واسع يتخذ شكل انتفاضة ثالثة، وهم يعتقدون أن أي انتهاك يقوم به غلاة المستوطنين في الحرم القدسي قد يكون بمثابة الشرارة التي تتسبب في هذا الانفجار، ذلك إنه من المسجد الأقصى انطلقت، في أيار 2021، شرارة الهبة الشعبية التي ربطت بين قطاع غزة والقدس والمواطنين العرب في إسرائيل.

ومن جهتي، أعتقد أن الشروط الموضوعية لاندلاع انتفاضة ثالثة متوافرة فعلاً، في ظل التغول الإسرائيلي الذي لا سابق له، وضعف السلطة الفلسطينية والتخلي الرسمي العربي عن النضال الفلسطيني، وهي انتفاضة قد لا تكون في شكلها مثل الانتفاضتين الأولى والثانية، بل من المحتمل أن تتخذ شكل احتجاجات شعبية، وتظاهرات واسعة أمام حواجز الجيش الإسرائيلي وبوابات المستوطنات، تدعو إلى إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، ثم تبدع، مع الوقت، أشكال تنظيمها، وتنحو نحو خلق حقائق جديدة ومراكمتها، بما يترك تأثيره داخل إسرائيل، ويفرض على المجتمع الدولي التحرك الجدي.

الثقافة الجديدة: بعد اتفاقات كمب ديفيد ومعاهدة وادي عربة، جاءت اتفاقية ابراهام لتنضم البحرين والامارات الى الأردن ومصر من قبله في تطبيع رسمي معلن مع إسرائيل. وأهداف هذه الاتفاقية واضحة: تأمين إسرائيل في شرق أوسط جديد ومن طراز آخر، وتهميش الفلسطينيين شعبا وسلطة وفصائل. وايضا تفكيك أي اصطفاف عربي حتى وان كان شكليا، وكذلك عزل او اضعاف إيران و"محور المقاومة".

ورغم مرور ما يقارب العقدين على اتفاق اوسلو، لم يتحقق للشعب الفلسطيني إلا النزر اليسر. فلم يتحقق حلم الدولة بعاصمتها القدس وبحدود 1967، ولم تطرح قضية اللاجئين بصورة جدية. ترى، ونحن في 2022، ما الذي بقي في مسار اوسلو 1993 الطويل هذا؟ خصوصا في ظل الظروف الدولية والعربية الحالية وواقع السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير المتفاعل معها؟ ما الذي بقي أساسا من حل الدولتين بحيث عاد الحديث يقوى من جديد حول الحل النقيض: الدولة الواحدة؟

ماهر الشريف: عندما قام الرئيس أنور السادات بزيارة القدس، بعد عشرة أعوام على "لاءات قمة الخرطوم" (لا للصلح، لا للاعتراف، لا للتفاوض)، ثم توصل في العام اللاحق إلى اتفاقيات كمب ديفيد،

قاطعت دول الجامعة العربية مصر ونقلت مقرها إلى تونس، لكن بعد قيام قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بتوقيع "اتفاق أوسلو" في سنة 1993، ثم توصل الأردن إلى "اتفاق وادي عربة" في سنة 1994، سارعت بعض الدول العربية في الخليج وفي المغرب العربي إلى افتتاح مكاتب تمثيلية، دبلوماسية وتجارية، في إسرائيل، اضطرت إلى إغلاقها إثر اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية في سنة 2000.

بيد أن الزمن العربي تغيّر اليوم، والنظام الرسمي العربي أصابه الشلل، والأنظمة العربية، أو بعضها، راحت تتخلى عن القضية الفلسطينية، وتسارع إلى إبرام اتفاقيات سلام مع إسرائيل، كما فعلت كلٌ من الإمارات العربية المتحدة والبحرين والمغرب والسودان، وهي اتفاقيات تجاوزت، في بعض الحالات، تطبيع العلاقات الدبلوماسية والتعاون الاقتصادي إلى توقيع اتفاقيات تعاون أمني معها. ويبدو أن هذه الأنظمة العربية صارت ترى في إسرائيل قوة عسكرية وتكنولوجية كبرى في الشرق الأوسط، يمكنها أن تكون حليفاً يُعتمد عليه في مواجهة تهديد "الراديكالية الإسلامية" والنفوذ الإقليمي المتعاظم لإيران، وفي ظل التخوف من انسحاب الولايات المتحدة الأميركية من المنطقة، وعدم استعدادها للدفاع المباشر عن هذه الأنظمة، وخصوصاً بعد أن امتنعت الإدارة الأميركية في عهد الرئيس السابق دونالد ترامب، في أيلول 2019، عن الرد على الهجمات التي استهدفت المنشآت النفطية في العربية السعودية، والتي تمّ اتهام إيران بالوقوف وراءها. ومهما يكن، فإن العديد من المحللين يشككون في قدرة إسرائيل على تأمين الحماية لهذه الأنظمة في حال واجهت فعلياً "خطراً" إيرانياً مباشراً.

وعلى الرغم من أن الأنظمة العربية التي وقعت اتفاقيات التطبيع مع إسرائيل قد تنكرت لبنود "مبادرة السلام العربية" التي تمّ إقرارها في قمة بيروت في سنة 2002، والتي نصت على أنه لن يكون هناك تطبيع للعلاقات مع إسرائيل قبل انسحابها من جميع الأراضي العربية التي احتلتها في سنة 1967، وإقامة دولة فلسطينية مستقلة وعاصمتها القدس الشرقية، والتوصل إلى حل عادل ومتفق عليه لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين، فإن الحقيقة الثابتة التي يتوجب على زعماء إسرائيل إدراكها هي أن السلام الحقيقي لن يُصنع في أبو ظبي ولا في الرباط وإنما على الأرض التي يقيم فوقها الشعب الفلسطيني والتي سيواصل منها نضاله ضد الاحتلال حتى تحقيق أهدافه الوطنية.

الثقافة الجديدة: بعيدا عن الشعارات العتيقة والخطط الرومانسية، برأيك ما هي أساليب النضال الملموسة المطلوبة حاليا من قبل التنظيمات والفصائل الفلسطينية اليسارية والتقدمية؟ وما هي آليات التنسيق مع الأحزاب والتنظيمات اليسارية الشقيقية والصديقة بغية تقوية ودعم الاصطفاف الشعبي العربي والإسلامي والعالمي مع الشعب الفلسطيني لانتزاع حقوقه ومطالبه العادلة؟ خصوصا

وان هذا الدعم يدب فيه الفتور بين فينة وأخرى، وكما هو حاصل في هذا الوقت؟

ماهر الشريف: أود أن أبدأ هنا من حيث انتهيت في الرد عن سؤالك السابق. فإذا كان بعض الأنظمة العربية قد تنكر للقضية الفلسطينية، فإن هذه القضية لا تزال القضية المركزية في نظر الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية كما تدل على ذلك العديد من استطلاعات الرأي. وحتى في دول الخليج، وعلى الرغم من بروز بعض الأصوات الشاذة، التي رحبت باتفاقيات التطبيع مع إسرائيل، فإن عددا كبيرا من المثقفين والإعلاميين يرفضون خطوات التطبيع مع إسرائيل، ويعبرون عن عدائهم لسياساتها الاحتلالية والعدوانية، ويحذرون من مخاطر المشروع الصهيوني على دولهم، مؤكدين تضامنهم مع نضال الشعب الفلسطيني من أجل حقوقه الوطنية. والواقع أنه منذ سنوات، تشهد منطقة الخليج نشاط جمعيات عدة لمقاومة مظاهر التطبيع بين دولها وإسرائيل، وهو نشاط سبق قيام دولة الإمارات العربية المتحدة ومملكة البحرين بتطبيع علاقاتهما مع إسرائيل، وكان قد عُقد، ما بين 17 و19 تشرين الثاني 2017، في مدينة الكويت مؤتمر "مقاومة التطبيع في الخليج العربي"، شارك فيه ممثلون عن حركات المقاطعة ومقاومة التطبيع في دول الخليج العربي كافة وعشرات الناشطين. كما كان مواطنون من قطر والكويت والبحرين قد أطلقوا، في سنة 2019، ائتلافاً لمناهضة التطبيع مع إسرائيل ودعم القضية الفلسطينية.

ويتوجب على فصائل منظمة التحرير الفلسطينية الانفتاح على هؤلاء الناشطين وجمعياتهم وتعزيز علاقات التعاون معهم، والابتعاد عن النزعة الخطيرة التي تخلط ما بين مواقف الأنظمة ومواقف الشعوب إزاء القضية الفلسطينية والنضال الوطني الفلسطيني، كما يجب على فصائل المنظمة تعزيز علاقاتها مع القوى الوطنية والديمقراطية في العالم العربي التي لا تزال ترى في سياسات حكام إسرائيل خطراً لا تهدد مستقبل الشعب الفلسطيني وحقوقه فحسب بل تهدد كياناتها الوطنية نفسها، وتنطوي على خطر تفتت النظام الرسمي العربي لصالح نظام شرق أوسطي جديد تكون إسرائيل هي حجر الزاوية فيه. وأود في الختام الإشارة إلى شرطين يساعدان على تعزيز التضامن الشعبي العربي مع نضال الشعب الفلسطيني: أولهما نفخ روح جديدة في منظمة التحرير الفلسطينية بحيث تستعيد صورتها الحقيقية بصفتها حركة تحرر وطني تواجه استعماراً استيطانياً يتمتع بقدرات كبيرة، وتحتاج في مواجهته إلى تعزيز علاقاتها مع الشعوب العربية وقواها الوطنية والديمقراطية في المقام الأول؛ وثانيهما أن التجربة دلت على أن التضامن الشعبي العربي يتصاعد مع الشعب الفلسطيني عندما تنتفض جماهير هذا الشعب على نطاق واسع كما حدث خلال الانتفاضتين الأولى والثانية.

أدب
و
فن

الشبيبة والقراءة..!

حسب الله يحيى

مؤسف جدا أن نطلق على هذا الجيل من الشبيبة العراقية، انه بعيد عن القراءة.. جيل صارت المسافة بين عدد غير قليل من شرائحه وبين الكتاب مسافة طويلة لا يمكن لأجهزة الاتصال المختلفة ان تملأها او تكون بديلة عنها.. بدليل ان عددا غير قليل من الشباب باتوا يعدون هذه الاجهزة الإلكترونية سبيلهم الثقافي والحضاري الوحيد الذي يمكن تداوله والاعتماد عليه في معرفة المعلومات ومتابعة الأحداث السياسية والاجتماعية والمعرفية.

صحيح ان هذه الاجهزة تمتلك مخزونا معرفيا عميقا وحديثا ومهما كذلك.. الا ان قسما غير قليل من الشبيبة ومن المثقفين كذلك لا يتواصلون مع الكتب الجديدة، ولا التعرف إلى مطالعة الصحف والمطبوعات الحديثة، ولا الى أحدث الابحاث بمختلف اللغات وهي من الوفرة بحيث لا يمكن رصدها جميعاً، وانما التعرف الى القليل منها فقط.. ومن المهم ان تعرف شبيبتنا كل ما يدور حولهم من متغيرات معرفية وإبداعية.

إنّ هذا الجيل.. جيل تتوفر أمامه كل مصادر العلوم والمعارف والآداب والفنون، وليس هناك من كتاب محظور ولا مطبوع غائب عن العيون في المكتبات وفي أجهزة الاتصال العديدة.

إلا أن البعض من هذا الجيل بات يقبل بالسهل والعابر والمؤقت ولا يتوقف عند أي مطبوع فكري معمق.. ذلك أننا لا نجد من بين هذه الشبيبة من يتناول بالرصد مناقشة اي كتاب فاعل ومؤثر ومثير للجدل، وانما هو جيل انصرف لاضاعة وقته فيما ليس بذي فائدة ذهنية وروحية وصار يتوجه إلى الممتع والمسلي الذي يبعد الانسان عن التفكير المعمق او ينشغل ذهنيا بما هو مغاير لقناعاته السهلة والعابرة.

ولدى عدد كبير من المثقفين نظرة نحو مقاطعة كل فكر او حتى رأي يختلف عن قناعاتهم الثابتة وكأن الكون خال من التغيير ومن الجديد الذي يعبر عن رؤى وقناعات أخرى.

ولو قارنا البعض من ابناء هذا الجيل مع الاجيال السابقة لتبينا ان تلك الاجيال متعددة وهي دائمة البحث عن كل جديد، وهو الذي جعلها اجيالا تتجاوز المحن والصعاب.. حتى أن كثرة من ذاك الجيل يغامر بحياته من أجل قراءة كتاب ممنوع، مثلما يغامر اكثر من ذلك بمناقشة ما ورد من اخطار في هذا الكتاب.

وفي وقت كانت الفاقة تضرب في حياة المثقفين، كانت تلك الأجيال المتعددة الرؤى تضحي بنفسها من أجل اقتناء كتاب مثير للجدل.

ترى كيف ننهض بالشبيبة العراقية والعربية الراهنة عموماً ونعمل على تحفيزها وتوجيهها للقراءة بوصف هذا التوجه هو الذي يقودها إلى الوعي وينقذها من الجهل المحيط بها والذي تعتمده وتريده كل السلطات الدكتاتورية التي تخشى من وعي الناس، لأن هذا الوعي يهدد سلطتها ويكشف عن ظلمها وفسادها.

إن الأمر الأساس هو قدرة تشغيل الفكر والفن والمعرفة والتفاعل معها وذلك عن طريق عقد ندوات عنها، والبحث عن المعرفة لدى الناس، لأن هذه المعرفة هي التي تقودهم إلى التغيير والى الثورة على كل الأنظمة الفاسدة أياً كانت الهويات المخادعة التي تعمل على وفقها...

أسئلة الفلسفة
وإشكالية النظرية النقدية الأدبية العربية الحديثة

مؤيد عليوي

بدءاً لا بدّ من ذكر أن النظرية النقدية الأدبية عالمياً بدأت في أروبا بوصفها نظرية لها منهاج نقدي له شروطـهُ الموضوعيّة وقواعدهُ الفنيّة للأدب فكان ذلك سنة 1750 عندما صار التحوّل في أروبا من الرأي الأدبي الذي يحمل نفَسا نقديا مبعثرا غير ممنهج الى نظرية نقدية لها منهاج نقدي كما يحدد هذا التأريخ "رنينه ويليك" في كتابه (تأريخ النقد الأدبي الحديث 1750 - 1950م) لكن المهم واللافت في القراءة لهذا التاريخ النقدي الأدبي الحديث في العالم: أن النقاد الاوربيين في ذلك الوقت عندما كتبوا نظرية نقديةً للأدب وضعوه على وفق معطيات الواقع الأدبي فاعتمدوا على إبداع الأدب من الواقع المعاصر لهم، شعر فولتير وغيره في عصر تدوين النظرية النقدية تلك ألا وهي "الكلاسيكة الجديدة" والتي مِن سماتها:

- ((محاكاة الطبيعة، والمحاكاة هنا لا تعني النسخ ولا النزعة الطبيعية الفوتوغرافية بل في التمثيل. وإن ما يطرحه الشاعر عبر هذا المصطلح ليس الطبيعة نفسها بل قصده أن يمثلها. ومصطلح الطبيعة لا يعني "الطبيعة الميتة" (الطبيعة الصامتة أو منظر خارجي) على نحو ما يستخدم كثيرا اليوم بل المقصود به الطبيعة الإنسانية. ويضيف حول المقصود بالطبيعة في النظرية الكلاسيكية الجديدة: "إن المصطلح يعني أشياء مختلفة جدا بالنسبة لمختلف الناس. فمحاكاة الطبيعة كثيرا ما فهمت على أنها تعني الواقعية...". لكنه يخالف هذا ويقول: إن التفسير لـ"محاكاة الطبيعة على أنها نزعة طبيعية أو نسخ لم يكن سوى تيار واحد من النقد الكلاسيكي الجديد".

– تجاوزت النظرة القاصرة التي اعتقدت أن الفن مجرد عبارة عقلية عن القواعد الأخلاقية، وقد فهم النقاد -في أحسن الأحوال وأسوئها- أن الأدب هو جزء من السياسة بالمعنى الواسع للكلمة، وأن الشاعر شاء أم أبى هو مشكل وصائغ النفوس الإنسانية.

– إن أهم ما جاءت به النظرية الكلاسيكية الجديدة هو في تحول الاهتمام النقدي إلى رد فعل الجمهور، ما أفضى إلى تحلل الكلاسيكية الجديدة إلى (النزعة الانفعالية والنزعة العاطفية)[1].

فالاهم من فحوى هذه النظرية هو إنها جاءت معاصرة لقراءة الابداع في وقتها وانطلقتْ من النص الادبي في بناء المنهج النقدي وقواعده.. وهذا التفكير

الممنهج لبناء نظرية نقدية متطوّرة على الآراء النقدية المتشظية هنا وهناك وغير المحكومة بمنهاج نقدي أدبي للشعوب والامم كافة قبل أوربا، كان هذا التفكير النقدي الناجز متصلا بالعصر الصناعي في أوربا التي سبقت بهِ العالم الذي ظل يعيش مرحلة الاقطاع والزراعة، وهذه منطقة مهمة من جغرافيا العقل البشري النقدي، إذ أثرتْ عوامل التطور الصناعي العلمي، في تحريك الساكن والالتفات الى طريقة تفكير جديدة، والسؤال لماذا لم يكن في أوربا نظرية نقدية لها منهاج نقدي أدبي قبل 1750 قبل التطور الصناعي العلمي على الرغم من وجود نهضة أدبية وفنية في أوربا، وأطلق على عصرها "عصر النهضة الاوربية" قبل هذا التاريخ كما هو معلوم وجلي للقارئ؟

الجواب في "عصر النهضة" لم تكن الصناعة سوى في المرحلة البدائية من تطوّرها إذ لم تبلغ ذروة التطور الصناعي العلمي إلا في القرن الثامن عشر وتحديدا في منتصفه 1750، كما نرى من أثر هذا التطور الصناعي على المجتمع والتأليف في اختصاصات جديدة لم يسبق التأليف فيها، منها كتاب في علم الاقتصاد – للرأسمالية - (ثروة الأمم) لآدم سمث في بريطانيا سنة 1776، كما ظهرت بعده الاكتشافات العلمية لخلية الكائن الحي وغيرها بسبب التطور الصناعي، كما أثّرت الثورة الفرنسية تأثيراً كبيراً في تطور الأدب والنقد الادبي بعد 1750، فلنحظ اختلاف طريقة التفكير الممنهجة لتأسيس نظرية نقدية في أوروبا، عن الخيال الأدبي والفني الذي أنتجه "عصر النهضة الاوربية"، وهذا بفعل التطور الصناعي العلمي وأثره على مناحي حياة الانسان في أروبا كافة، ثم بقيت هذه النقطة من المنهاج النقدي الأدبي في قراءة الواقع الأدبي المعاصر للنقاد الاوربيين وشعوب أخرى مستمرة الى اليوم، وعندما صارت الفلسفة الحديثة متنوعة في أوربا من مثالية هيغل ومادية ماركس ووجودية سارتر في ما بعد وغيرها، صار المنهاج الجمالي في النظرية النقدية الأدبية يأخذ من هذه الفلسفة أو تلك، إذ الامر فلسفي والقضية في مشغل العقل الحر الناقد الذي يمتلك حرية القراءة الكاشفة للنص الأدبي الحديث والمعاصر، بحسب مرجعياته الفلسفية وخزينه المعرفي المتنوع، ليناسب فيها العقل الناقد الحر بما يمتلك من المعرفة المجردة مع النص الأدبي من حيث الانسجام مع خصوصية النص الأدبي الفلسفي، وقد كشف تاريخ النقد الادبي في أوربا بعض الظواهر النقدية التي خالفت النظرية النقدية والمنهاج الموضوعي له، وانطلقت من ذاتية الناقد غير الحر بقراءته للواقع الادبي، فتبنى بعض النقاد الايديولوجيا بدلاً من الجماليات الفلسفية في النص الادبي، وابتعدوا عن النظرية النقدية والجماليات الفلسفية في منهاجها، ولا بّد من توضيح القصد بالايديولوجيا هنا - هو الثابت الذي يشبه التابو- فيما يقوم الإبداع على المتحرك فالشاعر مثلاً عليه أن يكسر القواعد الشعرية السابقة لعصره ويبتدع قواعد شعرية جديدة في نصه، تُبنى عليها نظرية نقدية جديدة أو يكتشف الناقد الحر منهاجه النقدي المعاصر في ظل فلسفة ما لها جمالياتها عن طريق النص الابداعي الجديد.

أما في منظومة اللغة العربية والناطقين

بها والمُشتغلين في حقولها الادبية، واللغوية - دي سوسر-، واللسانيات، فقد بدأ النقد الادبي الحديث العربي بـ"طه حسين" كما قال "سعيد عدنان "، وذلك من حيث إتبّاع "طه حسين" النظرية النقدية الأدبية الحديثة اكتسبها من تعلمه في باريس، والسؤال لو رجعنا الى النقطة المهمة في جغرافيا العقل وعلاقتها بالتطور الصناعي لمصر لوجدنا أن "طه حسين" كان طفرة نوعية بإيجابية للنقد الادبي العربي الحديث في مصر بفعل القرار الحكومي الذي ارسله للتعلم في فرنسا، وليس بسبب التطور الصناعي فكانت بعثات طلبة العلم من مصر الى فرنسا، طريقة خطها "محمد علي باشا" من اجل اللحاق بركب التطور في أوربا، ثم تبع تلك الطريقة الحكومة العراقية في العهد الملكي فأرسلوا علي جواد الطاهر الى مصر ثم الى فرنسا، فيما أفاد نقاد الادب في اللغة العربية من المغاربة – تونس والجزائر والمغرب- من تعلمهم للغة الفرنسية في بلادهم كنتيجة للاحتلال الفرنسي، فدرسوا بسهولةٍ النظريات النقدية الأدبية الحديثة باللغة الفرنسية، ومثلهم في سهولة التعلم أيضا مَمن كتبوا النقد الادبي العربي الحديث في المهجر.. فصارت النظرية النقدية الادبية العربية التي يتبناها الناقد العربي مكتوباً عليها "صنع في أوربا" أو "صنع في أمريكا" بعيدة عن الواقع اليومي للشعوب العربية وتطورها الاقتصادي الصناعي، بمعنى ظل العقل النقدي العربي مقلدا لما انتجه العقل الغربي الاروبي وغيره في ما بعد او في تنافذ معرفي بين الناقد والنقد الادبي الغربي، بما رافقه من خلل في طريقة التناول للمنهاج النقدي عند البعض، والبعض الآخر راح يُسقط ما في عقله من أيديولوجيا على النص الادبي، من دون معرفة بأن الفلسفة وجمالياتها شيء في النقد الادبي، والايديولوجيا شيء آخر.. فترى الوجودية الادبية وفلسفة سارتر التي غزت العراق إبان الستينات بفعل النظام السياسي الذي تحكم بكل شيء بعد عبد الكريم قاسم، ومنها دخول المطبوعات الى العراق ونوعها- الوجودية- لأسباب سياسية الغرض منها مناهضة الماركسية وفلسفتها في الجو الثقافي العراقي، والسبب في هذا أن القومية العربية الحاكمة في العراق حينها ليس لها فلسفة حديثة تقوم عليها لكي تستطيع أن تواجه الماركسية، إذ من أفكار القومية العربية أن تحيي التراث والموروث العربي لكن هذا الموروث لا يحمل فلسفة حديثة لها علاقة بالواقع الثقافي والفلسفي الإنساني بمعنى ثمة قطيعة فلسفية بين الموروث العربي وبين العالم الذي انتج الفلسفة الحديثة وصارت من جماليات الادب . كذلك الحال مع النظرية النقدية الأدبية لذلك قال عدنان سعيد ان النقد الادبي العربي بدأ بـ"طه حسين"، فلا وجود لنظرية نقدية ولا لفلسفة معاصرة تناسب الواقع وحركة العالم المتحضر والمتسارع في الانتاج الأدبي المبدع من وجهة نظر الايديولوجيا القومية الحاكمة في العراق واغلب الدول العربية، ولذلك أيضا كان ذهاب طه حسين وعلي جواد الطاهر وغيرهما الى باريس لغرض دراسة المناهج النقدية الادبية الحديثة.. لذا كان

السبب الرئيسي الذي مارسته السلطة في العراق في مدة مابعد شباط 1963 سببا سياسيا لترى الفلسفة الوجودية وأدبها قد غزت العراق والدول العربية في الستينات، لأن الفلسفة الماركسية تهتم بالصراع الطبقي وتحاول تغيير الواقع بينما الفلسفة الوجودية لا تعمل على تغيير الواقع ولا علاقة لها بالصراع الطبقي، لتصير الوجودية ايديولوجيا أدبية تلقي بظلالها على النص الادبي، فيما كانت ردة الفعل الماركسية وجمالياتها تلقي ايضا بظلالها على النص الادبي، ثم ذهب النقاد من القوميين العرب الى ايديولوجيا سياسية توافق الانظمة العربية في مصر والعراق وسوريا، فصاروا مثل غيرهم يلقون ظلال القومية على النص الادبي، ما أثر على توجهات النقد الادبي وقراءته للمشهد الثقافي والإبداع الادبي، وهنا ايضا كانت ظاهرة التقليد للمدارس والنظريات الادبية مستمرة لكنها اخذت شكل صراع في ساحته النقد الادبي كل ينحاز الى فكرته وموقفه بين القومية والوجودية والماركسية. وهذا لا يعني خلو النقد الادبي العربي من ناقد حر بل هناك من يسلط الضوء عليه، ولكن اذا كانت الانظمة واعلامها تريد من الناقد الذي يتقرب من ايديولوجياتها السياسية الحاكمة فتقربه وتبعد من لا يتفق في متبنياته النظامية.. لذا يظل تأثير الناقد الحر محسورا عن الاغلب الثقافي وهو ايضا جاء بالنظرية النقدية الادبية من خارج واقعه من أوربا كمن سبقه طه حسين وعلي جواد الطاهر الذي نرى عنده عبارة ذكية مُدركة للواقع النقدي الادبي العربي الحديث والمعاصر والواقع الثقافي برمته اطلقها علي جواد الطاهر إلا وهي عبارة "الناقد المُنقذ".

واذا رجعنا الى مرحلة الستينات نجد النقد الادبي في العراق قد خاض غمار تجربة فكرية عنيفة جدا في ظل تلك الاجواء التي ذكرتها السطور السابقة، عندما صار التنظير النقدي للشعر العربي في العراق، لم يلتزم به أغلب ممن نظّروا له، تنظيرا يركن في اغلبه الى النظريات والمناهج النقدية الادبية الاوربية، والسبب في عدم تطبيق هذا التنظير على الشعر أو القصيدة الحديثة أنهم وضعوا القواعد النقدية الادبية قالبا جاهزا وأرادوا من انفسهم أن تطبقه وكأن العملية الابداعية صب قوالب جاهزة، فيما الإبداع الشعري يسبق النظريات النقدية عن طريق التجربة الانسانية للشعر ونشأة النقد الادبي الحديث بوصفه نظرية ومنهاجا، بينما إذا رجعنا الى النقد الادبي الاوربي الحديث فهو يركن الى النص الابداعي شعرا ونثرا في استخلاص النظرية النقدية والمنهاج النقدي له. بمعنى أن الابداع هو تجاوز للقيود والشروط الابداعية التي سبقت عصره وعليه أن يخلق قواعد إبداعية جديدة بواسطة نصه الادبي نفسه، وليس كما حدث في الستينات بأن جعلوا النظرية النقدية لشعرهم قبل الشعر وأجهدوا انفسهم في اتباع تلك القواعد، ومع الاسف مازال البعض يرى هذا صحيحا من حيث يعلم أو لا يعلم، فيسير بخطى واثقة وكأنه يحقق المستحيل عندما يضع قواعد مجرّدة يريد أن يطبقها الأديب شاعرا أو ساردا ناثرا؟! ثم النقد الاكاديمي في مراحله المختلفة كان وما زال مقلدا للنظريات النقدية الأدبية

الغربية في حداثتها وما بعد الحداثة، فيما نرى القلّة اليوم يتخذ طريقا بعيدا عن الجامعات، ويريد النقد الادبي العربي القديم كما يحبون ان يطلقوا عليه مع العلم في عدم وجود نظرية نقدية أدبية عربية في الموروث الأدبي العربي بل توجد آراء مختلفة هنا وهناك قد تناسب هذا الحقل النقدي الادبي المعاصر وقد لا يوجد لها مكان فيه..

بعد هذا العرض وهذا الاستذكار المطوّل والتحليل فيه لم نجد نظرية نقدية أدبية عربية فتكون الاسئلة هنا هل ممكن؟ كيف؟ متى؟

وقبل التحفز للإجابة على هذه الاسئلة علينا جميعا أن نعي عدة أمور:

إن أغلب الموروث الادبي العربي هو إنتاج المرحلة العقلية الشفاهية منذ ما قبل الاسلام الى ما بعد الحرب العالمية الاولى، بمعنى أننا نملك موروثاً أدبياً شفاهياً تتجلى فيه العقلية الشفاهية على الرغم من تدوينه وكتابته في مرحلة التدوين العربية، بينما العقلية النقدية الأدبية تنبثق من عقلية كتابية تمارس وتعيش حياة يومية كتابية، من نتاجاتها التقدم الصناعي وهذا يتصل بعقلية الانسان وتحرره من عبودية التاريخ في مرحلة الزراعة، إذ يرى أبن خلدون: أن أخلاق الناس وتفكيرهم متصل بنوع عملهم، فيما يؤكد توماس الأكويني بدقة أكثر: أن عمل يد الانسان على آلة يطور تفكيره، والنقد الأدبي متصل بتطور طريقة التفكير عندنا على وفق تطور المجتمع وعلاقة يد الانسان بالآلة فتكون حياة المجتمع كتابية، حياة مدن حقيقية هادئة، حينها سيكون الموروث الأدبي الشفاهي لا علاقة له بحياة ذلك المجتمع، فالنظرية النقدية الأدبية في المجتمع ينجزها العقل المُفكر لكنه هو أحد أفراد المجتمع وهو ثمرة تطور تراكمي فيه من الزراعة الى الصناعة، إذ يفكر الناقد بطريقة انسانية بين أقران عصره في حرية كاملة لا تمنعها سلطة تابو أو سلطة نظام سياسي.

وللاجابة على متى؟

اذا كانت الانظمة العربية اليوم بين أقتصاد ريعي متطور لدول الخليج العربي، والإنسان العربي لا يعمل على آلة في مصنع بل يعيش المواطن بما يشبه حياة زعيم القبيلة قبل الاسلام يحمل تلك الصفات الاصيلة في الحياة الشفاهية لكن يؤدي وظيفة في مكتب. كيف سوف تتطور طريقة التفكير عنده بما ينتج نظرية نقدية أدبية؟ وبين الانظمة العربية التي تمنح قليلا من حرية التعبير عن الرأي، ومنها العراق ويظل الاقتصاد ريعيا من بيع النفط والسياحة، أو لديها مصانع قديمة لكنها تظل مرهونة بشروط صندق النقد الدولي الرأسمالي - المالي، بمعنى لا يشجع على إقامة مصانع جديدة حديثة في الدول النامية كما كانت تسمى. فكيف سوف يتطور المجتمع وتتغير طريقة التفكير بما ينجز نظرية نقدية أدبية؟ كما في مصر والمغرب وغيرهما.

وإذا كانت بعض الدول العربية لا توجد فيها أنظمة سياسية واضحة المعالم للتطور المدني والعلمي وداخلة في دوامات سياسية خارجية وداخلية كثيرة اضف اليها أزمات اقتصادية تعصف بقيم مجتمعاتها مثل اليمن والعراق وسوريا ولبنان وليبيا، أو بعض الأنظمة العربية التي تدار بطريقة

تجعل تفكير المجتمع وكذلك تفكير الناقد الحر مرتبكة، بدعوى الحريات العامة والخاصة لكنها تبث مفاهيم ثقافية أدبية هي في الاصل غير متبعة في دولها أو أنها أفكار مهملة، من مثل محاولة التأصيل لنظرية عدم إتباع منهاج نقدي في النقد الادبي العربي على اساس من مفاهيم رأسمالية - مالية، بذريعة أنها من نقد ما بعد - منها محاربة طريقة التفكير الممنهج المنتج في النقد الادبي .. لكن الجواب على هذه الفكرة هو لعدم إتباع منهاج نقدي هو منهاج قائم بحد ذاته، وهذا يحدث ومثله في بعض الدول العربية من شمال إفريقيا العربية، وغير المتطورة صناعيا أيضاً مقارنة بالصين مثلا، وهي ايضا خاضعة لشروط صندوق النقد الدولي.

أما التطور المنشود في هذه الورقة فيكون في مراجعة الموروث الادبي العربي وللاجابة على كيف وهل ممكن؟ فقد وجدتُ أن كتاب "طبقات الشعراء" أو التسمية الثانية له "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي المتوفى في بغداد (سنة 231 هـ // سنة 846 م)، على الرغم من الشفاهية التي فيه إلا أنه يمكن أن يسهم بتطوير القصيدة العربية (العمودية – ذي الشطرين) والسبب في ذكره وذكرها هنا على الرغم من ان تلك القصيدة تمثل الحياة الشفاهية للعرب ببنائها الفني وشكلها الادبي إلا أن الواقع الشعري العربي اليوم ما زال ينتج تلك القصيدة، إذن الواقع يتطلب المساهمة بتطويرها من خلال إيجاد نظرية نقدية عربية خاصة بها على ان نضع في الحسبان ان القصيدة العربية العمودية تسمع ولا تقرأ في كتاب ورقي لأن الشاعر الذي انتج تلك القصيدة لم يدونها بل كان يقولها مشافهة من لسانه الى أذن المتلقي، وهذه متصلة ببنائها وشكلها الفني وهي متصلة بالحياة الشفاهية التي مازالت مستمرة اليوم.

أما غير هذا من الادب العربي الحديث والمعاصر فلا نظرية نقدية أدبية له إلا عن طريق النظريات النقدية الحديثة الغربية بما يناسب النص الادبي العربي دون قيود مسبقة من حيث "الناقد الحر" الذي يمتلك اطلاعاً واسعاً على الفلسفة ومدارسها وجميع النظريات النقدية الادبية الغربية او اغلبها ومناهجها والفرق بينها، أن يكون له معرفة بـ الموروث الادبي، فيتعامل ذلك الناقد مع النص الابداعي بما فيه، فيستل نقده للنص من خلال عقله وطريقة تفكيره الموضوعية بما يناسب.

أو عدم الارتكان او الاعتماد على تلك النظريات الغربية شرط التطور الصناعي السريع ونهضة عمل صناعية حقيقية وحرية كاملة في التعبير والكتابة للشعوب العربية، وربما نجد الجواب الانجع على الاسئلة: هل ممكن؟ كيف؟ متى؟ عبر الواقع ومتغيراته الاقتصادية والاجتماعية.

هوامش:

1. وليليك، رنيه، (تأريخ النقد الأدبي الحديث 1750 – 1950 م)، ترجمة، مجاهد منعم مجاهد، الكتاب في الانترنت.

مفهوم الصمت وإشكالية الجنوسة في النقد الثقافي

نجاة تميم

في كتابه الموسوم "عصر المرأة، كيف تُحَرِر النَّسَوية الرجل أيضا"، يقول الكاتب ألكسندر دو كْرُو، رئيس وزراء بلجيكا الحالي منذ الأول من أكتوبر/ تشرين الأول 2020، "أن المساواة بين الجنسين تعني تحُّررَ المرأةِ، وهذا غني عن القول. لكن يمكن لهذه المساواة أن تحرِّرَ أيضا الرجل. فالرجال يصبحون أفضل مثل أخواتهم النساء ولا يحتاجون أن يصطدموا كل يوم مع الظلم وعدم المساواة. وفي رأيه، هذا هو ان التحدي؛ إقناع الرجال بأن المساواة بين الجنسين ليست خطوة إلى الوراء بالنسبة لهم، ولكنها خطوة إلى الأمام بالنسبة للمرأة والرجل معا، وإقناع الرجال بأن حريتَهم مرتبطةٌ ارتباطا وثيقا بحرية النساء. كما قال مارتن لوتر كينج عن الأسود والأبيض. ووضَّح للرجال أن المساواة بين الجنسين هي شرط مسبق لجودة حياة أطفالهم وأحفادهم."[1].

ففي رواية دُنى غالي الموسومة "منازل الوحشة"، تلخص لنا الجملة الاستهلالية التي تخبرنا من خلالها الساردة تيمة النص السردي؛ "أتسلل من دون أن يشعرا بي لأستريح" ثمة موضوع تكتمه الأم وتعجز عن تسميته ومشاركة زوجها أسعد وابنهما سلوان أو بالأحرى فهم يتجنبون الحديث حوله. فهل أسعد فعلا سعيد في حياته وهل ابنهما سلوان يجسد معنى اسمه؟

إنها قصة عائلة عراقية مثقفة، تعيش وضعا صعبا، سياسيا واجتماعيا ونفسيا. وتغطي أحداث هذه الرواية فترة تمتد ما بين مطلع 2006 ونهاية عام 2008. كما أن هناك عودة إلى الوراء تسجل أحداث تسعينيات القرن الماضي.

مفهوم الصمت في النقد الثقافي

نلاحظ أن الصمت يخيم على حياة هذه العائلة أو بالأحرى يهيمن عليها. لكننا نعرف جيدا أن هذا "الصمت يتكلم" وأن بلاغته تلعب دورا حيويا في التواصل ويمكن أن تكون مخيفة مثل الصراخ. فبحسب بيير فان دين هوفل، يمكننا أن نميز بين نوعين من الصمت النصي. الصمت الطوعي والصمت غير الطوعي. فالفراغ الذي يتم تقديمه، عن قصد، كحيلة استطرادية والافتقار الذي يشير في النص إلى ما لا يوصف ولا يمكن

تسميته. الأول يشير إلى ما لا يريد الكاتب قوله، والثاني إلى ما لا يستطيع قوله"[2].

هنا لن نتطرق إلى الصمت الطوعي كأسلوب في الكتابة عن طريق الجمل غير المكتملة أو الصفحات البيضاء إلخ، بل سنتطرق إلى ما اختارته كاتبة روايتنا؛ وهو الخطاب المبتور والحوار المشفر وغير الواضح. فهذا الصمت يدفع القارئ لتعبئة هذا الفراغ في الخطاب. أما الشخصيات فتتواصل، في هذه الحوارات، عن طريق صمت مسموع. وأحيانا تلجأ الكاتبة إلى وصف الصمت فيصبح مرئيا. "صمت له لون دخان ينزل ويتكثف في جوانب المطبخ، على الخزانات والجوارير والساعة المعطلة على الجدار، الوطن بات مقبرة." (م47) "صمت يتكرس يوما بعد يوم تصونه حيطان هذا البيت. تقشف في التعبير والتوصيل... وحتى الحيطان بدت وكأنها تصرخ لتحتمي بنا..." (م51)

ففي هذه الحالة، السؤال المطروح على الكاتبة ليس أن تقول، بل أن تصمت، لا أن تتكلم، بل أن تجعل المتلقي يتكلم. يبدو أن الزمن قد توقف بالنسبة لها. الراوية هي رمز الأرض/ الأم التي أُهملت وأصابها العطب والخلل والدمار وأغرقت في الظلمات تحت التهديد والخوف والمساومة. فهي أم تحمي ابنها وزوجها من سخط المتنمرين والجهلة.

وضعية الرجل: الذكر

إننا نرى الصمت غير الطوعي يتجلى في نظرات سلوان المعجونة بشيء لا تعرف والدته كيف لها أن تحدده. "هو لا يوجهها مباشرة بل يعمد إلى تركها واضحة كل مرة وينهض مغادرا المطبخ، كأنه يناولها إياها مع الصحن الذي انتهى منه (...) وفي قدرته العجيبة على جعل الصمت حاضرا، قويا، بينهم الثلاثة. لا يجيب ولا يعلق. يتناولون طعامهم بصمت بينما يبقى ينتظر، بلا حراك وكأنه يراقب والديه خفية. أحيانا تشعر به والدته أنه يتعمد إيذاءهم، يمعن في جرحهم، وكأنه يجبر أباه على إبقاء وجهه في الصحن حتى ينهيه لينهض على عجلة من مكانه. يبدو ناقما، يبدع بإيلامه من أجل أن يكون لهذا الصمت لسان ساخر فاضح يدين بقوة عجزهما." (م27).

أما الصمت غير الطوعي، فإن القارئ لا يراه. فهو صمت نصي. تحجب الكاتبة عن نفسها، عن وعي أو بدونه، جهلَها بما يشغلها وما لا تجرؤ البوح به أو حتى التفكير فيه. إن للصمت في الخطاب اليومي، بحسب فان دين هوفل، قيمة لا تقدر بثمن، وله إمكانيات تعبيرية كثيرة جدا. فهو يشمل ما نعرف وما لا نريد قوله أو ما لا نتجرأ البوح به. وهو يفصح أيضا عن ما يمكن للكلام أن يُدمِّره.

فهذا الصمت يحسِّسنا بثقل الكلام، وقد ينقذ هذا الأخير من الخطر والفشل. "ويعد أيضا ميزة حسب تساؤل ريلكة: "فكيف لنا أن ندعم وننقذ المرئي، إذا لم نستعمل لغة الغياب، لغة اللامرئي."[3]

الراوية وزوجها أسعد يعجزان عن التحدث مع ابنهما. فهذا الفراغ يعبر عن عدم قدرتهما على التواصل مع ابنهما وعدم التمكن من وصف ما يشعران به والتطرق بوضوح لما يفكران به. فوظيفة هذه الكلمة المفقودة وكونها غير معبَّرة عنها، تعلمنا قيمة بقية كلمات النص المرئية والمقروءة.

إن اتخاذ هذا الصمت يكمن في حجتين، العجز أو الرفض أو هما معا. "يأتي العجز

أي عدم قدرة الشخص على تلبية الحاجة التي أوجدها الموقف، إما عدم كفاية اللغة، أو من فقدان القدرة على الكلام. أما الرفض فيقوم على أساس تمردٍ موجَّهٍ إما ضد الخطاب الاجتماعي الذي يستبعد موضوعُه الاستخدامَ النمطي، أو ضد المُحاور الذي يرفض عرضَه للتواصل."[4]. وفي روايتنا هذه، نجد شخصياتها تستخدم الحجتين. وتجاوزا لترتيب اللغة المرئية، فإن الصمت يحل محل اللغة، التي يصعب التعبير بها وتصبح الشخصيات تخمينية، بحسب ما يسميه جيرار جنيت "الفضيلة الإرشادية للمربع الفارغ"[5] هذا المربع الفارغ الذي تُرك لحرية المتلقي لكي يستنتج مفرداته ويعطيها معنى ويساهم في ملء هذا الفراغ الذي عجزت الشخصيات عن إكماله.

لقد تأزم وضع سلوان النفسي خصوصا بعد عام 2003. وفقد والده أسعد كل وسائل التواصل مع ابنه الذي اقترب آنذاك من الثلاثين من عمره. وبدأ يهرب إلى الكتابة والرسم. أما الراوية، (أم سلوان)، فتحار كيف تشرح حالة ابنها ذي الوضعية الخاصة منذ طفولته لزوجها، فتلوذ إلى الصمت. والشيء الأكيد أن هذا الصمت يُسمعُ. ففي النص الادبي، نلاحظه ونحسُّه. فتأثير ظهور هذا الصمت يتجسد في غير المعبّر عنه في النص. وعادة عندما لا يحضر الكلام، يتم تحويل ما هو غير منطوق إلى قول من قبل القارئ اليقظ بفضل الافتراضات المسبقة والسياق الضمني.

كان أسعد قريبا من الشيوعيين لكنه ابتعد وانزوى، كما والد الراوية الذي هو أيضا ابتعد عن السياسة ساخرا منها وكان لا يحلو له السهر إلا مع سجناء سياسيين من ستينيات القرن الماضي. فبعد مغادرتهم السجون، عاشوا منعزلين، مهمشين، واختار أن يشاركهم ذلك. أما أسعد، المصنف ضمن مجموعة اليسار الصامتة أو الفئة المستقلة، فقد حاول الابتعاد والمغادرة وابنه إلى عمان عام 1991؛ وذلك لإيجاد فرصة عمل أفضل ومساعدة سلوان في بدء حياة أخرى جديدة.

الصمت، يتجسد أيضا في إهمال الراوية لنفسها ولنظافة بيتها والاعتناء بالحديقة وبأسلوب حياتهم كاملة. فكل شيء يدور حول وضعية سلوان. لا يجرؤ أحد على التطرق إلى المشكلة الأساسية التي تؤرقهم؛ هي ماهية الرجولة! فسلوان المنزوي في غرفته مرعوب من مجرد فكرة التواصل مع العالم الخارجي. ويتذكر: لقد "التذ الأولاد في تعذيبي وفي التحرش والتنكيل بي، حتى ظننت أن الجميع يعرف سري أينما ذهبت" (م 173)

لذلك فضلت والدته البقاء بالبيت والاعتناء به. أما والده أسعد فباع قطعة أرض ليعفيه من الخدمة العسكرية. لكنه، حتى في عمّان، لم يسلم من التنمر. فشلّة مراهقين عراقيين ضايقوه واعتدوا عليه في الفندق. فمرض على أثرها وكان يتقيأ باستمرار. فهذه الحادثة وهو طفل أثرت فيه كثيرا. كما صعُب عليه سرد تفاصيل ما حدث لأمه. فحاول الانتحار مرتين. كانت المحاولة الأولى بعد أسبوعين من نجاة والده أسعد من الاختطاف وعودته إلى البيت وقد وجده والده آنذاك مُمدَّدا في المطبخ، أما المحاولة الثانية فقد أمسكته أمه وفي يده موسى الحلاقة. وتتساءل: "أين اختبأ كل هذا ليبرر لنا فجأة ويشلّ ألسنَتنا؟ لماذا نحن؟ لماذا في هذه البقعة من العالم؟") م 28)

فبعد الاحتلال الأمريكي للعراق وسقوط النظام البائد، عاد اسعد إلى وظيفته في معهد الفنون. لكن بعد سنة من العمل عادت له مخاوفه. لم يكن سياسيا. لكنه كان يدقق في القضايا بمقاييس العدالة وبمقياس الصح والخطأ الأخلاقيين. أحسَّ أنه لم يعد ينسجم مع وسط بدا له غريبا هجينا. لكن بعد اختطافه لم يستطع العودة إلى العمل.

لقد أفلت أسعد للتو من موت كان قريبا باختطافه وأصبح انسانا معطوبا، يسير في البيت مثل آلة. فإن تمكن في فترة ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي من التواري عن طريق عمله كموظف في مكتب مدفون في قبر، بين أكداس الأضابير والملفات أو كعنصر يساري مستقل، فإنهم لم يكونوا بعدها في أمان. لقد انتكس أسعد، بينما "آخرون عادوا ليتماشوا مع الوضع بشكله الجديد القديم. لكن هو لا، لن يستطيع أن يقاوم" (م51)

كانت العائلة تلجأ للصمت ليس فقط عن ما يحدث في البلد لكن أيضا عن حياتهم الشخصية. لقد كان أسعد يرفض أن يسأل. كان يريد أن يرى ابنه شابا يصادق البنات ويتبضع ويسهر مع الأصدقاء ويجامل الضيوف. كان يريده أن يكون رجلا. فالساردة - الأم أيضا تحاكي نفسها: "لكننا لم نكن لا أنا ولا هو ولا سلوان نعرف معنى أن يكون رجلا حقا" (م 62) فكانت تنظر إلى عينيه طويلا لتستفهم ما يقصده. لكنه ينسل حائرا في وجهته. وبصمتهما الطوعي يتجنبا الاجهار حتى مع نفسيهما بوضعية ابنهما وتقبله كما هو. والسؤال كيف يصبح الذكر رجلا؟ ماهي مقومات تكوين شخصية الرجل؟ ماذا ينتظر المجتمع من الرجل؟ أيجب أن " يسرع ليكبر وأن يظهر خشونة وأن يتماشى مع الكبار...وهو الذي يلقبونه بابن أمه..." (م173) واسئلة كثيرة يصعب عليهما ذكرها وتطبيقها على شخصية ابنهما. فضَّلا استراتيجية الصمت الطوعي، لأن الخطاب حُكمَ عليه بالصمت، الذي تفرضه التقاليد والموروث الثقافي الديني في مجتمع تقليدي.

ففي صيف عام 2006، عاد أسعد للمرة الثانية، اختياريا، إلى عمان. التقى صديقا كان قد غادر العراق إلى براغ في ثمانينيات القرن الماضي. فاسترجعا الحماسة الوطنية التي دفعت بالصديق إلى أن يكون شيوعيا، ذاق مرارة السجن وهذه الحماسة نفسها دفعت أسعد إلى التوقف والتراجع. لقد كان يحس أيضا بالفشل ويسأل زوجته فيما إذا كانت تريد أن يعود إلى ما كانوا عليه جميعا بعدما أدار ظهره للعالم. وهو لا يدري ماذا سيفعل لا لشخصه ولا لمساعدة ابنه. يحس بأنه خذل زوجته. لكنه يعترف أن لكل منهما طاقة محدودة. يعلم أنه جعلها تختار بينه وبين ابنهما. وأنه لا يعد نفسه بطلا ولم تكن له قوة جبارة لكي يحتمل لجوء سلوان لها في سريرهما. فتجيبه بأن سلوان مازال طفلا. لكن أسعد يحسب ابنه رجلا ويقول لها بأنها تتستر عليه بما يفعل وما يقول إنهما يختلفان في تقبل وضعية سلوان. وكانا يفضلان الصمت. فأسعد يتساءل أيضا عن ماهية الأبوة، وأنه فكر كثيرا في ما تشعر به هي كأم. واعترف لها أمام نفسه أنه لا طاقة لديه على تحمل ذلك كرجل. لكن الأم لم تكن تريد أن تبدو له كما يراها الآن. لقد كانت تريد أن توفر عليه عبء المسؤولية. أما سلوان الذي يفكر في جيناته المعطوبة (م178)، فكان يقارن

نفسه بفأره الذي يؤنسه في وحدته. ويخلص "أن على الابن أن يثبت لأبيه أنه رجل وعلى الرجل أن يثبت لزوجته أنه رجل، بينما الفأر...هههه... يحاول أن يُثبت لي جُبنَه ليسلمَ، أين تختبئ؟ يا لك من كائن مسكين."(م166) يبدو أن أسعد تغيَّر؛ فربما الوحدة في غربته ساعدته على التفكير. لقد احسَّت زوجته أنه بدأ يفهمها. فبحسبه، "من المؤسف أنهما لم ينشآ في محيط أكبر من هذا الذي تربيا عليه ليتمكنا من توسيع عقولهما وتحليل الأمور من زاوية أخرى، غير تقليدية. ويستطيعا أن يفهما ويقدرا الدوافع بشكل افضل، أو على الأقل يزناها بشكل غير غريزي." (م96)

ونخلص أن "الصمت، إذا جاز التعبير هو الأرضية التي ينضج فيها الزمن."[6] وصدقِ جوزيف رسام عندما قال: "إن الصمت يكمّلُ الكلامَ، سواء حاولنا إضعافَه أو تعطيلَه."[7]

الشخصية الذكورية الأخرى هو الدكتور حسام الذي يزور العائلة ويزودها بالدواء لسلوان. لكن سلوان لا يحب مخالطته ولا يرتاح لوجوده في البيت. فينسحب إلى غرفته وما أن يطرق الباب. حتى أحرجه وعندما ذكر له نعتا دارجا، كان الأولاد يطلقونه عليه. كانت والدة سلوان فكانت ترتاح للحديث مع الدكتور حسام. لقد تلقيا دروسا في الموسيقى والعزف على البيانو أوائل السبعينات من المُدرّسة الروسية نفسها. مع هذا، كانت تشعر خلال التحدث معه أنه ينتظر أن تشجعه على الحديث في ما يرغب. "وأنه كل مرة يغادر من دون قول ما يريد. كما أنها تلاحظ انكسارا في عينيه يثير عاطفة ما تجاهه." (م108) فبعد أحد الزيارات، أخبرها سلوان بأن صديقها الدكتور حسام مِثْلي (هومو) وأنها ستكون غبية إن لم تلحظ ذلك." (م110).

وضعية المرأة: الأنثى

يبدو أن وضعية المرأة في هذه الرواية أفضل بكثير من مكانة الرجل في المجتمع. فالشخصيات النسائية الثلاثة المهمة هن الراوية – والدة سلوان والجدة - ذهب وسأل.

الراوية – الأم تسْقيل من عملها كممثلة مسرحية لكي تهتم بابنها الوحيد سلوان وبزوجها وبوالدها، فترة مرضه. فتحاول أن تحمي ابنها حتى من أبيه. تتحمل كل الأعباء داخل وخارج البيت وكذلك بُعد زوجها عنها. وبذلك تنسى نفسها و تهملها. كان زوجها، أحيانا، يواسيها. لكنها ترفض، ناقمة على عجزها وتخبره أن حياتها لا قيمة لها ولا قيمة لهم وهو يعيشون في جحيم الخوف. وتضيف: " أتمنى أن أختفي من حياتي. ما الذي تفكر فيه أمٌّ مِثْلي؟ ما الذي تقوله الأمهات عني؟ لعلي كنت قد سلمت بالأمر لو ولدته مشوها أو معوقا، أو لو كانت الحروب هي التي أعادته إلي معطوبا منخورا كما أعادت باقي الأبناء إلى أمهاتهم." (م67) فكل الخلل الذي يشوب حياتهم له علاقة بابنهما سلوان، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فبعد طلاق والديها، عاشت بعيدة عن والدتها ولم تحس يوما بحنانها. والدتها - الجدة التي لم تخشى شيئا في حياتها، "ولم ترتجف لا لأمريكي ولا لعراقي ولا لإيراني،" (م103) امرأة قوية تهتم بنفسها، إن كانت متزوجة أو مطلقة. فكل ما تفعله تفعله لنفسها. ولها طقوس تلتزم بها لتجعل حياتها احتفالا يميزها عن البشر. فهي تعرف ما تريد وتصمم على أخذ حقها بإصرار ونفس طويل. وبمعيَّتها ، فالجدة "ذهب" هي التي أنقذت أسعد من

هلاك إبان اختطافه. كان أسعد يسميها ابنة الحياة، لأنها هي المتحركة وزوجته هي التي تتقوقع وتتخلف. كما كانت أيضا تعاتب ابنتها لإهمالها نفسها ولحمايتها المفرطة لحفيدها سلوان. وتذكِّر ابنتَها بأن " الرجل ينتكس بشكل عام من دون قضيبه وفلوسه و..."(م62) ولكي تخرج حفيدها من قوقعته، أتت يوما بأسَل. هذه الشابة الحالمة بالحرية والهروب من الوسط الضيق الذي يخنقها إلى خارج العراق؛ وهي التي ترملت بعد اشهر من زواجها تطمح ان تكون شاعرة، فأبرمت عقدا مع سلوان لكي ينقذا بعضهما البعض. فدبرت الأم عقد زواج لهما من أجل استخراج جوازي سفر. كانت أمنيتها أن يغادر ابنها إلى مكان أكثر رحمة به. وأخيرا، أكمل سلوان ديوانه الشعري الذي كتبه من أجل أبيه، الذي لم يشعر يوما بأنه فرح بابنه أو وثق به. مع هذا ترك ديوانه لأسل. فما يهمُّ هذه الأخيرة هو اسمها على هذا الديوان الشعري. فهي أقوى منه. وعلى الرغم من أنها هي التي انتشلته من غرقه المحتوم وأعادته إلى العالم فهي أيضا التي تخلَّصت منه. لكن رُبَّ ضارة نافعة! لقد كان سلوان به حاجة إلى الاختلاء، فبُعده عن وسطه الاجتماعي الضيق وغربته جعلاه يفكِّر ليعثر على نفسه بنفسه. وأخيرا، اطمأنت والدته بعد أن عرفت أنه في رعاية صديق عراقي شاب، يشاركه كتابة الشعر وأفكاره المجنونة.

ففي هذه الرواية، نرى كيف يمكن للصمت أن يلعب دورا رئيسيا في حياة عائلة عراقية مثقفة، تتكون من فنانين، أسعد والراوية وابنهما الوحيد، سلوان. يعيشون في ظروف صعبة، على الصعيد الشخصي والعام. آنذاك، كان الوضع الأمني متأزما؛ فوثقت بأن بغداد كانت "مثل ذبيحة خرجت أحشاؤها ..." (م46)، وأن الوضع بالبصرة مسخّم (م 52) وأن سامراء العراق شهدت تفجير ضريح العسكريين، الإمامين علي الهادي والحسن العسكري مرتين، عامي 2006 و2007. وأننا صُعقنا، عام 2008، بخبر اغتيال الباحث والمثقف كامل شياع، كما غادرنا، في العام نفسه ، الكاتب والروائي فؤاد التكرلي.

هوامش:

الرمز: (م) يشير إلى الرواية الموسومة "منازل الوحشة" لدُنى غالي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2013.

1. Alexander De Croo، De eeuw van de vrouw، hoe feminisme ook mannen bevrijdt، Polis، Amsterdam، 2018، p.192
2. Pierre van den Heuvel، Parole، Mot، Silence، pour une poétique de l'énonciation، Jone Corti، Paris، 1984، p.94
3. Rilke Rainer Maria، Briefe، Frankfurd، Insel Verlag، 1980، Cf Van den heuvel، Parole، Mot، Silence، p.80
4. Van den Heuvel، op. cit.، p.79
5. Ibid.، p.96
6. Max Picard، De Wereld van het zwijgen، De tijdstroom، Lochem، 1950، p.10
7. Joseph Rassam، Le silence comme introduction à la métaphysique، le Mirail série A-Tome 44، Toulouse، 1980، p. 30

الايحاء في السينما: اشتغال ذهني سابق في منظومة المعنى

د. صالح الصحن

ورد في معجم المعاني الجامع ان المصدر هو أوحى، وهو تلميح بشيء قريب الحدوث، هناك ايحاء بسقوط الطائرة في المحيط، ويرد ايضاً على انه تأثير في تفكير الشخص وسلوكه بغير استخدام اساليب الاقناع. كأن كلامه كله بايحاءٍ من زوجته، وفي المعجم الوسيط[1]، هناك ايحاء ذاتي وهو عملية عقلية تنتهي بقبول الفرد للأفكار التي تنجم في ذات نفسه دون نقد او تحقق. او ايحاء لنفسه باتخاذ موقف او سلوك من غير نقد او تحقق. وفي معجم الاصوات يأتي الايحاء من أوحى أي: الهمهُ بهِ/ كلَّمهُ بكلام يخفى على غيره/ القاه اليه/ أشار/ كتب اليهِ/.

وجاء في معجم المعاني الجامع[2] أن الفعل أوحى، أوحى إلي/ أوحى لـ يوحي أوح إيحاءً، فهو موحٍ والمفعول موحى.. وأوحى اليه بسرٍ إي أفشاه ويوحي الله باياتهِ الى انبيائهِ، يلهمهم إياها".

ويأتي في معجم اللغة العربية المعاصر[3].. وحي..

الوحي: الاشارة والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفي، وكل ما القيته الى غيرك.

وحي الشعراء: ما يوحى به اليهم فيلهمهم الشعر، والوحي في القرآن: هو وحي من

أمين الوحي جبريل عليه السلام. وهو ما يلقيه الله تعالى على قلب نبي من الانبياء بواسطة ملك او غير ملك وأمين الوحي هو جبريل عليه السلام.

والايحاء في الحقول المعرفية هو ما يمت بصلة لإشارةٍ ذهنية لثمة شيء قد يرد الى الذاكرة او قد يحدث او قد يأتي على المسامع والأنظار وهو حالة تسبق الوقوع والرؤية والسماع وبقدر قد يلجأ اليها الكاتب او المخرج او الرسام والنحات عبر ادواته المختلفة المتعددة كالضوء والكلمة واللون والشكل والحركة في الصورة والصوت. وما الى ذلك من حدود تعبيرية قد تأتي كشفرة او رسالة مسبقة قد تُدرَكْ وقد تكون خارجة عن الوعي، وقد يعبر الايحاء عن ايجازٍ لفكرة ما، يراد الاشارة اليها دون ابتذالٍ واستهلاك ويشتغل

الايحاء على مستويات التوقع والاحتمالات في مشاهد القصة الفيلمية، ذلك ما يتطلب في متابعتنا لمجريات الأحداث الفيلمية ان لا تكون سهلة الفهم والتفسير دون عناء، ودون تأمل، ودون اشتباك وتداخل ودون غموض، ولهذا نرى ان مستويات التشويق والتوتر والانجذاب تأتي من حالات الغموض والاسرار والعقد واخفاء الخيوط التي تقود الى حقيقة الافعال والاحداث وكسر التوقع لجعل المتلقي اكثر تفاعلاً واكثر فهماً واستيعاباً.

وفي السينما يعد الايحاء اشتغالا سابقا في منظومة المعنى، فهو يشتغل في كثير من الأفلام بتمثلات مختلفة، وكأنه جزء مهم ومثير تتضمنه معطيات السرد الفيلمي وأدواته الحاملة للمعنى، فهو تأثير في منطقة التلقي وتستهدف اللاوعي ويتبنى رسائل وعلامات وموجودات مرافقة للشعور والاحساس الذي يقود الى معانٍ معينة ومحددة، ويأتي الايحاء احياناً لغرض كشف وإظهار اثر شيء يسعى المتلقي لمعرفته او ثمة شيء او حدث قد اختفى ولم يعد يُرى، الا بما يشير او يدل عليه الايحاء، وقد ورد في كتاب علم جمال وعلم نفس السينما لجان ميتري بعض الأمثلة منها:

● فيلم وجدان انتقامي 1914 المستوحى من بعض قصص إدغار الن بو القصيرة، كان غريفيث يوحي بواسطة اللقطات المجسمة بما يدور في ذهن الاشخاص وبالحركة السرية الدفينة فيهم، وبسلوكهم النفسي، على غرار المنديل الذي تقبض اليد بتشنج عليه تحت المنضدة في حين يتردد الشباب وهو نهب الانفعال في الاجابة على اسئلة قاضي التحقيق، والقلم الذي ينقر به هذا الأخير على مكتبه دلالة على نفاد الصبر.. الخ.

● فيلم الهارب (ت. إنيس، 1914) ويظهر أحد المشاهد بعض جنود الصِدام الأمريكيين وهم يلعبون الورق في حانة، احدهم يغش في اللعب، وخلال العراك الذي اعقب ذلك، وتعرّض طاولة اللعب لبعض التدافع، اختلطت اوراق اللعب بعضاً ببعض وانقلبت زجاجة الويسكي التي عليها آلة التصوير التي ظلت ملازمة موقعها، وبدلاً من ملاحقة الحركة الجارية بلقطات مروحية، لم تعد ترينا الا المنضدة الخالية، واوراق اللعب المبعثرة والزجاجة تستكمل إفراغ ما بقي فيها ببضع بقبقات حشرجة مرافقة. وهذا ما يوضح سمة الإيحاء لما تدل وتقود اليه حيثيات هذا المشهد من فوضى وعراك وضجيج وبعثرة الورق وتدافع وشجار وما الى ذلك من اجواء غير متوازنة، وموحية لما قد تنجم اليه من آثار وتداعيات، ويقول مارسيل مارتن "فكل صورة يمكنها أن تعني اكثر مما تظهر، والسينما لكونها قادرة على اظهار كل شيء، مضطرة الى أن تحصر نفسها في الإيحاء، لكن هذا الاضطرار بعيد عن أن يكون عائقاً، بل هو على العكس من ذلك تفوق وسر من اسرار قوة السينما المدهشة"[4].

وحينما يكون الايحاء عن طريق الضوء فهذا سبيل لتجسيد شكل حركي له قواه التعبيرية الدالة على المعنى والتبدل، ففي فيلم أماديوس للمخرج ميلوش فورمان

1984 – والذي يتناول حياة الموسيقار موتزارت يتعامل المخرج مع الاضاءة بمستويات تعبيرية مختلفة ومرافقة للحالة النفسية للموسيقار العجوز سيليري وهو في حالة احباط، حيث نرى خفوت الاضاءة وكذلك تشتد الاضاءة في حالة الراحة النفسية، فالمخرج اراد في هذا الايحاء عن طريق الضوء متابعة حالة الشخصية والتبدلات التي تحصل، وانتاج المعنى المكثف المشار اليه ايحاء دون شرح وسرد واطالة، اما ان يلجأ المخرج للتعامل مع اللون فتلك حالة لا تخلو من ايحاء، فنجد في افلام كثيرة يكون اللون فيها حاملاً دلالاته الايحائية لفهم ما وحالةٍ ما، ففي افلام رعب واثارة كثيرة استخدمت اللون الازرق لغرض الايحاء بالوحشة والخوف والقلق والبرودة، فيما تعاملت بقية الالوان الاخرى لأغراض معروفة.

وفي عالم الصوت يقول بيلا بيلاج ".. أما في السينما فقد يكون الصمت شديد الحيوية والتنوع محملاً بالايحاءات والتعابير على الرغم من غياب الصوت، وقد توحي نظرة صامتة بالكثير ويجعلها صمتها اكثر تعبيراً لأنها ستدفعنا الى قراءة ايماءات وجه الشخص الصامت التي تشعرنا بثقلهِ، وتوترهِ، وما يحمله من ترهيب، والصمت لا يوقف العمل في الفيلم بل يضيف اليه وجهاً حيّاً"[5].

في فيلم شمال – شمال غربي يستعمل هيتشكوك لقطة الرافعة للايحاء بما ينتظر إحدى الشخصيات، فحين يكتشف فيليب فاندام (جيمس ميسون) ان عشيقته عميلة امريكية، يقرر قتلها على ظهر طائرة، ويعلق قائلاً: "افضل طريقة للتخلص من هذه المسألة هي من ارتفاع شاهق – فوق الماء" وحين يذكر الارتفاع، تتحرك آلة التصوير على رافعة نحو الأعلى[6].

استخدم كاتبا سيناريو فيلم (الدكتور سترينجلاف) العديد من الرموز والاسماء والنكات والمواقف الهزلية ذات الايحاءات الجنسية في الفيلم، وذلك في محاولة للربط بين الحرب وهوس الجنس ومن ضمن ذلك

ان الاسماء المستخدمة لجميع شخصيات الفيلم الرئيسية ذات ايحاءات جنسية مباشرة، او غير مباشرة، مثل (الدكتور سترينجلاف) الذي يعني (الحب المنحرف) والكولونيل جاك ريبر المأخوذة عن اسم جاك السفاح، والميجر كنج كونج وهو اسم القرد العملاق الذي يعشق امرأة شقراء في فيلم الخيال العلمي الشهير كنج كونج.

● فيلم ليون (لوك بيسون)

فيلم يتناول فتاة مفجوعة بمقتل عائلتها، وتلجأ الى صديق قناص ماهر (ليون) يدربها على طريقه الأخذ بثأر عائلتها، ففي بداية الفيلم تخطو الفتاة (ناتالي بورتمان) باتجاه شقة الجار (ليون) متجاهلة باب شقتها وما رأته من جثث عائلتها، وكأن باب شقة الجار هو ما تقصده وهو منزلها، وهي تسير وشحنات القلق والرعب والتوتر يغلف وجهها وجسدها وهي ترتجف، ولن تتوقع ان باب الجار سيفتح دون عناء، ولكن عند فتح الباب والكاميرا تلاحق وجهها وقد رافقه سطوع الضوء الذي طبع على وجهها تعبيراً عن (ايحاء) يحمل دلالة نتنفس الحياة بدلاً من الموت، وهو ذات التعبير والدلالة التي يشعر به المشاهد وهو يتابع سير الفتاة، بشعور خفي، من خلال الإضاءة، دون وسائل اخرى لإيصال المعنى ادراكاً، وهنا استغلت الإضاءة (موحية) بما يمكن ان يتبدل بفعل دلالة الضوء دون العتمة التي تمر بها (ناتالي).

● فيلم أماديوس (ميلوش فورمان) 1984.

في التحفة السينمائية اماديوس Am-deus كان هناك استغلال للاضاءة بشكل رائع للغاية، ويبرز هذا في مشاهد اعتراف الموسيقار العجوز (سيلييري) للقسيس، إذ نلاحظ في هذه المشاهد تغييراً في الإضاءة من الشدة الى الخفوت، وتغّير الضوء يتماشى مع تغّير الحالة النفسية للموسيقار، ارتفاعاً وهبوطاً، فعندما يكون محبط تظلم الغرفة وعند انشراحه تضيء، وهكذا احتل الضوء موقع (الايحاء) فأصبح دليلاً معبراً عن مشاعر بطل الفيلم، والحاجة الى استخدام (الإيحاء) كهذا تنبع من رغبة المخرج في تكثيف المعنى، وايصاله بشكل مركز، دون مزيد من الشرح والاطالة، فالمعنى سيتسرب ويستقر في نفس المشاهد بطريقة غير مباشرة دون أن يدرك كيف والى متى، ولو اراد ادراك ذلك، فهو بحاجة الى التركيز في كافة عناصر المشهد من ديكور واداء ولون وموسيقى وإضاءة، لأن هناك دلالات خفيّة ستكون ملقاة هنا وهناك لن نراها عياناً لكننا نحس ونشعر بها[7].

هوامش:

1. المعجم الوسيط.
2. معجم المعاني الجامع.
3. معجم اللغة العربية المعاصر.
4. مارسيل مارتن، (اللغة السينمائية والكتابة بالصور، ترجمة: سعد مكاوي، الفن السابع، دمشق، 2009)، ص70.
5. لويس جاكوب، (الوسيط السينمائي، الفن السابع، دمشق، 2006)، ص315.
6. تشريح الافلام – برنارد ف.ديك – الفن السابع – ص109.
7. رجا سايرا المطيري، (الإيحاء في السينما، جريدة الرياض، العدد 14038، الرياض، 2006).

أسطورة السكن في المنابت

ناجح المعموري

يثير حضور الصورة في لوحة د.عاصم عبد الامير الاندهاش خصوصاً إذا تحقق التكرر، لأنه يعني اليومي الذي يفضي للواقعي المعقول والمدهش. هذا المعاود للمشهد أثار لوجود الصورة وعناصرها المكونة للاكتمال اعتماداً على شكل له طريقة تكرس علاقة ذات تماثل طبيعي شبيه بالموجود. ويعرف عاصم عبد الامير الغاية المرادة وكأنها الحلم، غاية لها طاقة تومئ للصورة التي لا تذهب نحو التماثلي، والمماثل للاستنساخ على الرغم من أن عاصم يكرر دائماً، هذا ما يريده عندما يعيد ما تراه العين. وفي مثل هذا الحلم أو اللحظي السريع، من أجل الحفاظ على الخاطف البصري وهذا ما يولد سحراً لدى الفنان. لأنه لا يفك العلاقة مع الشبيه، لأن في هذا استعادة للبدئية وطقوس السحرية. والتقطت وأنا أعاود القراءة لعاصم نوعاً من الطقسية الصامتة، الكلام لا صوت له، لكن مكونات الصورة توحي بنوع من الضجيج الذي تستولده الطقوس ناشرة سحريته. هذه العناصر البنائية داخل الصورة والوحدات الجزئية ترسم نسقاً دائماً ما توحي به السيميائية لتصل الى قصد جمالي أو تحقق دلالي كما قال سعيد بنكراد الذي دائماً ما يؤكد على أن العلامات هي أدوات تعبيرية شبيهة بكل أدوات التعبير الانساني وعلى

رأسها اللسان. إنها غاية في ذاتها ، وليست ممراً نحو عالم خارجي خال من الدلالات. هذا القصد ذاته هو الذي يثير الكثير من القضايا الخاصة بطبيعة الفكر وعلاقته بالمواد الحاملة. ذلك أن المجرد يتجانس ويتجسد في المفاهيم، لا من خلال "تمثيلات" مباشرة قصدها المنافذ الحسية وحدها. وهي صيغة أخرى للقول أن العالم الوحيد القادر على التسرب الى الذهن هو العالم الذي تصفه اللغة. وأضاف سعيد بنكراد قائلاً: فحدوده وظواهره وأبعاده وكائناته تتحد داخل اللغة لا خارجها، استناداً الى طريقها في تقطيع المدرك ... ولا وجود لرابط مشترك ومشترك بين العين التي تبصر وبين موضوعاتها. فقد تكون لها القدرة على الابصار وتلك وظيفتها الأصلية، ولكنها في غياب هذه المفاهيم، ستكون عاجزة عن التنويع من حضورها في العالم الذي تقوم بتمثيله.

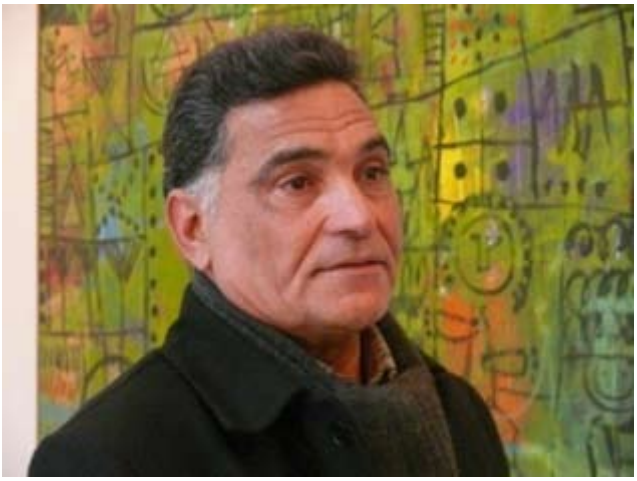

وهذا ما يؤكد تنوع الأفعال عندها، فهي ناظرة ورانية وحادجة وباصة وشائفة ومحدقة ومحملقة. وأفعال اخرى تصنف ضمن المضاف الثقافي فيها. ففي كل فعل ليس هناك ابصار فقط، بل هناك أيضاً تقطيع مسبق للموضوع المدرك استناداً الى كم دلالي يميز هذا الفعل البصري عن ذلك.

الانثى فوّارة، مبتهجة فاردة ذراعيها، لاعبة لاهية بطائرة ورقية مدورة وكأنها شمس ساطعة وامتداد خيوط وكأن الانثى تحلم بالهروب، أو الطيران بملابس مثيرة وجاذبة مع خصلة شعر سوداء داكنة تعطي طاقة مع مجاورة الوجه الأبيض. عالم الانثى مرصود بالعين أسقطت صورة عنه داخل الذهن. وهذه الصورة هي التي تشكل المادة الأولية، التي ستعالج لاحقاً وتفرز ويعاد تنظيمها وتخزينها. إن تدبر المعطيات الخارجية شأن من اختصاص المفاهيم، فهي وحدها قادرة على تحويل كل ما يتسرب الى الذهن من خارجه الى حقائق جديدة تعاد صياغتها في التجريد المفهومي. اللغة مكتملة الطاقة والتحفيز عندما تتمكن في تداولاتها وتصوغ الأفكار والمفاهيم التي للذهن كل ما هو به حاجة اليه، حتى يجعل من الحياة مرنة ، متجددة ، مانحة للباحث عن الخلاص هدوءاً واستقراراً حتى تصبح تعادلاً مع اللغة ويعاود الذهن نشاطه وطاقته وذا الشأن بعلاقته مع العقل والحضور الجبار هو الذي اكد عليه رولان بارت المدافع القوي عن تبعية البصري واللفظي، فالسيمولوجيا هي قطاع معترف يهتم بالمناطق اللفظية في الغالب ليست هي في الأصل، إنها تابعة للسانيات التي تستوعب داخلها كل الأنساق الأخرى وهكذا قد تكون الصورة في نظره حمالة لكل المعاني الممكنة ولكنها لن تسلم الا ما يسمح به اللفظ الذي يشرحها ويميز بين مستويات بناء المعنى داخلها/ سعيد بنكراد / سبق ذكره / ص68.

لم يكن اهتمام عاصم عبد الامير بالعلامات اعتباطاً بل هو تعبير عن الطاقة الكامنة بالعلامة بوصفها الإشارة

الأولى في الحضارة، لذا انتشر التداول الثقافي بمصطلح حضارة الصورة، لأنها عتبة مبكرة وكما قال مالارميه بأن المبادرة للكلمات الأول وهي العلامة والرمز، وهي وحدها التي تعرف اين يكون الشعر والجمال. الكلمات الحقيقية هي التي نراها لأول مرة ونندهش بها، تسحرنا وتقودنا الى حيث تريد وليس لما علم به، نحن نتدرب معها ونمارس ما يتوفر من الجنون الكامن فيها.

قام التعاشق الثنائي بين العلامة والرمز في اللوحة المتداخلة بالتاريخ والأساطير والرموز والأشكال الهندسية. لوحة قادها عاصم الى قلب الانتظام وأسس التضاد، فالزقورة صاعدة بالقلوب وأخضعها الى التثليث مع صعود خطين من البرق البرتقالي حتى الزقورة برتقالية اللون ولذلك تبرير مقنع، لأن عاصم يدرك جيداً بأن هذا اللون روحي وشبقي. والزقورة مكان لنظام الروح والعلاقة مع الاله الاكبر، والقمة العليا هي التي تقيم علاقة الاتصال الذي عن طريق طقس/ عيد الزواج الالهي المقدس. هذا هو الكشف الذي ذهب اليه الفنانون ضمن حفريات عميقة وجعلوا من المكشوف لغة جديدة مطواعة تمتلك مؤهلات للكلام والتعبير عن اللحظة التاريخية.

أنا قريب جدا من الفنان عاصم وأستطيع الاهتداء الى لوحة له وسط عشرات الاعمال لفنانين، ودائماً ما يحصل هذا مع غيره، لا بسبب سيادة النمطية والطريقة الجاهزة وإنما للتماثل بالثيمات والوحدات والنقل ووحدة الأسلوب، ودائماً ما تكون اللوحة هي الوسيط الكاشف عن الفنان أو الحوار مع المبدع. وتكرر المفردات التي تتحول بالتدريج قاسماً مشتركاً للتعبير عن رؤيته ولعل أهم المزاولات المساعدة على إضافة الحوار مع الفنان والتعرف على منجزه هي الحرية الفردية وتكوّن العقل والوعي، الذي يأخذه للتعرف على تفاصيل العناصر والمجالات، ولعل أكثر المشابهات هي تكون الألوان أو الزوايا والنقاط اللونية التي تخضع لمكان محدود جداً. وأكثر العوامل المساعدة للتعرف على ملامح الفنان عبر لوحاته كما قال الفنان نوري الراوي. استعادته للحرية في التأمل وزوال حالة الأمية في قراءة الفن وتذوقه، وهي حالة لم تعد ممكنة حتى تنشأ حالة التوازن الحر بين الجانبين. الاعتياد على اللغة السائدة حتى تتحول الى وسيط كلامي اجتماعي متداول.

أنا ارتبط بعلاقة ثقافية وفنية مع عاصم، حتى تشربت بتنوع تجاربه منذ زمان قديم، أنا متحاور معه ومحاضر عنه وكاتب آراء وأعتقد بأني نشرت مقالاً مبكراً عنه. والمثير في مثل هذه التجربة ما تميزت به وسط جماعة فنية عاشت تاريخاً وظل هو تلميح خاص به وعاصم حريص على سلامة تجربته، لا يلوذ بالآخر، ويحوز منه مثلما يتكرر لغيره.. لديه شخصية وتحكم بالألوان والرموز وتكرس الموروثات. وارادة للذاكرة تستعيد صحوة الماضي وتقوده للحاضر. الذي يمثل خزانا للذاكرة والالوان.

للمكان دور جوهري وبارز في ترسيم شخصية الفنان منذ طفولته، ودائماً ما تظل الطفولة هي المرمى كما قال جان جينيه، تغذيه. وتختزن ذاكرته أهم

الصور والمعالم والمشاهدات لذا ودائماً ما نجد لهذه المرحلة ترددات وانعكاسات مع استعارة رموز ريفية وعلامات هي المغذي للغة البدئية، ولأن عاصم الامير ولد في الريف ونشأ وتكونت ملامحه، اختزنت ذاكرته كثيراً من الموروثات ولم يقو على مفارقتها ولأنها خزانه الثقافي. وأشار لها مراراً واستفاد من التناصات الموروثة والتراث الفني للأفراد والجماعات، ولائقة بالرأي الذي يجرد الفنان الفطري من امكانات توفره على الحرية. لم يتنكر عاصم لأصوله الأولى وعناصره البدئية وتجسد ذلك بامتداد البيئة وخصوصاً لوحته الخاصة عن المزمار، ليس التي تحدثت عنها الآن بل هي مبكرة جداً في تجربته وأشار في شهادة له من احدى لوحاته وقال: لوحة تستمد قوامها من الأجواء الجمالية التي تزخر بها البسط الشعبية العراقية، لكنها هنا مرحلة لمنطقة تصويرية أخرى يؤدي فيها اللون الأسود والأحمر دوراً نشيطاً والمعالجة هنا تمثل جانباً من اهتماماتي في اعادة قراءة انتاج الموروث الشعبي والتراث التصويري العربي والاسلامي. لكني افترض قناعة ما قاله عاصم باستثمار الموروث والتراث العربي الاسلامي، لكني لم التقط مشتركات في لوحته مثلما أكد عليه واستعين برأي الفنان نوري الراوي: نقف اليوم على خط مفترض من خطوط الدفاع عن الوطن إذا لم يكن واضحاً على الارض فإنما هو واضح في أعماق ضمائرنا ونفوسنا وكحد السيف، لا بد لنا حين الاجتياز أن نحس به دوماً.

نشر د. عاصم عبدالامير مقالاً في (الاديب) بوصفه عدداً مكرساً عن تجربتي العدد 133 - 13 /9 /2006 وما قاله عاصم / ناجح المعموري / الاسطورة التي تبقى وحدها كافية لمن يطلع عليها ويتفحصها بدقة سيدرك بلا شك أن عاصم الامير خلقته الالهة العراقية القديمة من عجينة الاسطورة وسحريات الشعائر، لذا اختار طريقاً صعباً ومعقداً، مشاكساً ومعانداً. ومن تأثيرها مارس حضوراً ذكياً وبالغ الأهمية في الوسط الذي لم يستطع مقاومة انعكاسات مهاراته وتنوع خبراته وتوظيف ما استوطن الذاكرة الكبرى للجماعات وهذا ما اتضح بالمقالة التي هي من أهم الشهادات المكتوبة عن تجربتي، لأنه نجح في قراءته وكشف عن ثقافته عن العلوم الانسانية والانثربولوجيا والأساطير، وما ساعدني أكثر على الاقتراب اليه هو رصانته الثقافية والمعرفية اللتين فاضتا على عدد من الفنانين الذين حاولوا تضبيب منجزاته وتجاهلها وعرقلة كل ما يميزها، لكن قوة عاصم وتفرغه والهدوء في انجازات مشغله الذي تعرفت عليه بشكل جيد وهو يعمل ووفر لي فرصة سعيدة لحظة دعوتي للحديث عنه لفضائية (الحرة) وفعلاً تشكلت لي ملاحظات جديدة عن تجربة فريدة لم يبتعد فيها عن الأسطورة، بل اقترب اليها من خلال يحيى الواسطي .

أنا مبتهج بعوالم عاصم عبدالامير الغنية التي لا تتعطل ولا تتقشر بل هي تكبر متغذية بثقافة رصينة ومعرفة استعانت بالفلسفة وما عرفته جماليات الحداثة وهو يكتب عن جواد سليم حيث تمكن من انجاز

اهم ما كتب عن تجربة جواد سليم وتعمقه ببدئيات سومر الفنية وكذلك أكد بعد أن تشكلت متغذية من سومر وأضافت لها ومكنتها معلماً فنياً عظيماً ومكرساً. ولأن عاصم الامير كما ذكرت مثقف من طراز خاص استطاع بمهارات لديه من توظيف مفارقة عن حضارة البدئيات الاولى التي وظفها بمهارة عالية في الفن التشكيلي العراقي من هنا كانت وظلت تجربة مميزة ومتفردة في المتحقق التشكيلي.

وأجد ضرورة ملحة التقاط بعض مما قاله د. عاصم الامير عن مشروعي الثقافي والمعرفي وما تحقق لي من انجازات في منهج النقد الاسطوري، وما سأستعين به عاملا مساعدا للتعرف على ما اختزنه عاصم ولأن له انعكاسا كبيرا لان الثقافة والتعرف العميق على ما اختزنته النصوص والملاحم وتفاصيل الديانات ومبتدأ الشعائر السحرية تبديات متمنية وهي بارزة فما عرفنا من تفاصيل عاصم الفنية التي ازاحت كل ما هو متكتم عليه وحضرت صور لائقة، لان عاصم الامير يدرك جيدا ضرورة الذهاب الى الاسطورة والسحرية واهمية وضع الملتقي امام ما توصلت له التجربة العراقية، عاصم الامير منشغل كليا بالعناصر المكونة للأسطورة وتمظهر ذلك في الزمان والمكان، والتحققات الفنية كاشفة عن مخاوف عاصم الحقيقية على الاسطورة فبذل جهدا جبارا من اجل وضعها وسط المشهد الفني من مفاهيم عاصم المركزية دعوته لضرورة عزل وطرد العموديات في كشوفاته الثقافية والاعتماد على الحركة المرنة في كل المجالات التي يعمل فيها

المثقف منتجا للأدب او قارئا له. وهذه رؤية جديدة تنطوي على موقف شجاع وجريء، والتوجه نحو فاعل حفريات ومنقب حيوي في فضاء العناصر الثقافية التي تؤدي بالتالي الى وحدات مترابطة، تؤسس وتشكل بؤر جذب وتكون مصد إلهام حيوي. مثل هذه العقلية التوليدية لم ترض بالكتابات ذات الوجهة التفسيرية، والتي ظلت تكتسب المهابة والجلالة لكل هذه الحقب التاريخية. وعرف مثل هذا المثقف ما يذهب اليه ويحتفظ به من أنظمة ورموز وعلامات خصبة جاذباً بمعنى الوقف لحركيات ونزاعات النقد الحديثة ليضيء بها تلك البنى العميقة والغائبة في الموروثات والاساطير، متعالياً باشعاعاته التي ظلت لعصرنا هذا، تضرب بشدة مفاصل من أجناس الأدب والفنون علاوة على العقائد، ومثل هذا المثقف الاسطوري يظهر تفهما عميقا لمغزى هذه التبادلية وحساسيتها ما يجعل منها سبيلا تصل به الى الهوية الثقافية في

ظل تداخل المسارب وتقاطع الاتجاهات فما نريد الثقة في ان ما يفعله في الحقل النقدي شيء ذو اهمية ويعطي للقارئ انطباعا واضحا، راسخا في مصادر خيالاتنا وثقافاتنا على تباين مداخلها المفاهيمية، لهذا ظلت الاسطورة تعرض اغواءاتها على خيال الابداع المعاصر. ولهذا ايضا سيعمق مثل هذا الباحث تلك السلطة ليسقط فردية الاعتقاد من ان عصر الاسطورة قد ولى دونما رجعة. لقد تمكن هنا المثقف المجتهد عبر دراساته القصيرة منها والطويلة الانتقال ميدان الشغف بعوالم الميثولوجية السحرية الى ميدان انتاج الرأي فيها، مع التصحيح لمقولات بدت بحكم التداول، كما لو انها وثوقيات لا حياد عنها. أضف الى الطاقة الداعمة للربط الخلاق بين الاصول الاسطورية وتكملاتها البعدية، وهو ما ابعده عن النزعة الاخبارية والوصفية في النقد ليلقي خطابه النقدي. جملة في نية الجدل الخلاق بما لا يفكك اسلوبيته او يبعثرها وسط متاهة الميثولوجية وعوالمها المتراكمة. لذا يبدو المنهج النقدي للمعموري ذا وجهة خلافية اعتدنا عليها في ميدان الدراسات الاسطورية، لذا فهو غير مستعد لخيانة قيمتها الى نمط من القراءات تأخذ على عاتقها استشراق حقب تاريخية متعاقبة، ربما تبدأ من محطات التنوير الحضاري الاولى مع بداية الالف الرابع حين نمت واستطاعت حضارة سومر والقت الظلال مهابتها الروحية وانجازاتها المعرفية الباهرة مع بلاد الشرق الادنى، صعودا الى عالمنا المعاصر عبر ما حملته الاديان السماوية.

لهذا كله تنطوي اطروحات هذا المثقف على بطولة من نوع ما لأنها ركبت موج الاسطورة المائي الذي ضرب بعده كتاب الخطابات الابداعية تجعلها تدور في فلك العقل التبشيري الاول يوم صاغ لنا كل اماني الفكر. والتأملات في اصل الكون، والالهة، والملاحم، والاساطير ما بعد الموت مرورا بالتراتيل والادعية والابتهالات والصلوات... الخ.

لقد اثمرت المجهودات النقدية لمثقف جاد عن شخصيات ذات اهمية وبمقدور القارئ الوقوف على انشغالاته المثمرة عبر دراساته ... وهي دون شك امثلة عنايته بمشروعه الثقافي الذي كشف عن ترابط في حلقاته. ويشي بسفر ابداعي متفرد ضمن مسار مجايليه ممن ركبهم هوس القص. وكان ان نجا من السقوط في حبائل التخليط والانقياد دون توازن وسط متاهة المناهج وتيهها، او بالضرورة تداخلات عوالم الاسطورة وطلاسمها. وأرى استكمال الانطباعي عن تراث هذا المثقف النقدي، انه تزعم خطا معرفيا ذا نزعة ربما تكون ناتجة عن ضرورة احياء الجواهر المعرفية التي فيها الاسطورة، وهي بعض ما حملته حضارة وادي الرافدين وفيما بعد. حيوية حضارات واشراقات الشرق التي ظلت متوهجة رغم التجاذبات الساعية الى علمية الاسطورة بالمعنى الذي يضعنا في ركب عصر الاساطير الجديدة منها الانترنيت والثقافة الصورية وما الى ذلك. وفي كل الاحوال ان هذا المثقف يقيم في المنابت الاولى لكأنه يردد مع بيكاسو، ان الاسطورة هي التي تبقى دائم.

(الدار الكبيرة) لمحمد ديب رواية فكرية تاريخية

شكيب كاظم

تدور حوادث رواية (الدار الكبيرة) في مدينة تلمسان الجزائرية أواخر عقد الثلاثينات من القرن العشرين، وهي الجزء الأول من ثلاثية روائية أبدعها الروائي الجزائري الرائد محمود ديب المولود في المدينة عينها سنة 1922، والمتوفى في فرنسا عام 2003، إذ ترد إشارات واضحة إلى رجل تولى قيادة ألمانية ويريد الاستيلاء على العالم! كما أن سلطات الاحتلال الفرنسي، تجري اختبارات على صفارات الإنذار في أيلول/ 1939، مما يعني أن حرباً على وشك الاندلاع.

تدور احداث الرواية في (الدار الكبيرة)؛ (دار سبيطار)، حيث تعيش عدد من الأسر الفقيرة في هذه الدار الواسعة، إذ حشرت كل أسرة نفسها في إحدى غرف هذه الدار، التي تشيع في أوساطها النميمة والفضول، وتسقّط أخبار الناس، هذه الهواجس تدفع الأسر إلى الاستعانة بالكتمان والتكتم على قضاء حوائجها، خشية الفضول، وخشية العين الحاسدة، إذ وَقَرَ في نفوسهم تفشي ظاهرة الحسد، ويكاد (عمر) يمثل الشخصية المركزية في رواية دار سبيطار؛ ابن ذلك العامل الذي توفي بمرض السل، وترك لزوجته (عيني) ولدين وبنتين هما (عيوشة) و(مريم)، في حين ظل عمر وحده بعد وفاة أخيه صغيراً، حيث تفتك

الأمراض والفقر والجوع بحيوات هذه الأسر الفقيرة، التي أضحى أعلى مطامحها الحصول على الخبز؛ الخبز وحده، وعلى الرغم من الأعمال العديدة التي مارستها (عيني) فإنها ما استطاعت أن توفر لأسرتها غير الخبز، وكثيرا ما كانت الفتاتان ترنوان نحو قطعة لحم أو بيضة، لكن يخيب الظن إزاء الدخل المتواضع الذي تحصل عليه أمُهما من عملها بالخياطة؛ إنها تعمل ساعات مديدة نهاراً وحتى في الليل، مما يثير حنق الجيران بسبب الضوضاء التي تحدثها ماكنة الخياطة وتؤثر على رقادهم.

قسوة الإنسان:

يكاد عمر، على الرغم من صغر سنه، يمثل الشخصية المركزية الأهم في رواية دار سبيطار، وقد امتاز بصفات أهّلته لأن يأتي بما لم يستطعه الكبار، وكثيرا

ما أسندت إليه أمه (عيني) مهمات صعبة ليس بِمِكنة الصغار القيام بها، لكن عمر كان لها، كما كان يتحلى بصفات طيبة، فهو وقف دائما إلى جانب جدته، التي تحشرها أمه؛ ابنتها ، في المطبخ، بعد أن تخلص منها ابنها البكر خضوعا لرغبة زوجته، وتحللت البنتان الأخريان من تبعات القيام بواجب البنوة إزاء أمهما، التي عصف بها الكبر والمرض؛ تحللت اختا (عيني) من واجب الإقامة الدورية لأمهما عند كل واحد من أبنائها الأربعة؛ الأخ والأخوات الثلاث، تحللتا من هذا الواجب، من خلال نفحهما شقيقتهما (عيني) شيئاً من مال لقاء أن تقيم أمهم عندها دائماً، مستغلين ثلاثتهم وضعها المالي الصعب، ولا سيما بعد وفاة زوجها المعيل.

كان عمر يعطف على جدته ويساعدها على القيام بأمورها الخاصة، وكثيرا ما عاتب أمه التي كانت تُسمِع أمها المسكينة، بذيء القول وقارصه، لا بل يصل الأمر بهذه الابنة العاقة أن تضرب أمها "وفي وسط هذا الهذيان، هذيان الظلمات وآلام العالم، كانت (عيني) تصيح بأمها أن أسكتي. فتجيبها الجدة.

-- أهكذا يا بنتي؟

- اسكتي يا عجوز النحس.

- أليس لك قلب؟ - ألست تشفقين على أمك التي ولدتك؟ أتنامين وتتركينني؟

وتنادي الجدة عمر وتقول له في أنين:

- أنت وحدك ترحمني.

ثم تسأله أن يجيء إلى قربها" ص127

تصور هذه الرواية، عسف سلطات الاحتلال الفرنسي تجاه الجزائريين، وتركهم يحيون من غير عناية طبية، ولا تعليم وإن علموهم، فيعلمونهم بالفرنسية في محاولة لوأد اللغة القومية، فتفشت الأمراض بينهم، فضلاً عن الأمراض الاجتماعية مثل؛ التواكل والتخاذل والتكاسل، والرضا بالحال كما هو على الرغم من قسوته، حتى أن من يعمل على انتشالهم من هذه الأوضاع المزرية، يُرْمى بشتى الصفات السلبية، فهو الكسول الذي لا يجيد سوى إطلاق الكلام، تاركاً العمل وجلب الرزق لأهله.

كما تصور الرواية تعسف قوات الشرطة الفرنسية، وفظاظتها في تفتيش غرف هذه الدار بحثا عن المثقف السياسي (حميد سراج) فتبعثر كتبه وأوراقه وكل ما هو خاص به.

سامي الدروبي مترجماً :

لقد تولى ترجمة هذه الرواية عن الفرنسية

-لان محمد ديب لم يعرف العربية، بسبب قرارات سلطة الاحتلال، فنشأ معقود اللسان والقلم والبيان، وتولى ترجمتها المترجم السوري الضليع سامي الدروبي، في ثلاثة أجزاء حملت عناوين (الدار الكبيرة) و(الحريق) و(النول) وامتدت هذه الأجزاء الثلاثة إلى (501) صفحة، وبيدي طبعة (روايات الهلال) المصرية الصادرة سنة 1970، كما ترجمها أيضا المترجم السوري الراحل صالح علماني 2020 .

وتألق سامي الدروبي مترجماً، بمشروعه الترجمي الرائع بنقل روايات ثيودور ديستو يفسكي إلى العربية، حتى

إذا فرغ من ذلك ثنّاه بترجمة روايات ليو تولستوي، لكن طائر الموت لم يمهله فتوفي في 1976.

وإذا كان (عمر) شخصية الجزء الأول المحورية من الثلاثية الروائية هذه، التي أبدعها الروائي الجزائري محمد ديب، فإن (حميد سراج) هو محور الجزء الثاني منها، والذي سماه محمد ديب (الحريق) إشارة إلى الحريق الذي أتى على أكواخ الفلاحين، الذين تحركوا للمطالبة بحقوقهم، لا بل أبسط هذه الحقوق؛ وهو عيش الكفاف المتمثل بالحصول على الخبز؛ الخبز فقط! الحريق المعروف من كان يقف وراءه، إنهم أذيال المستوطنين الفرنسيين الذين يسرقون جهد الفلاح الجزائري، عن طريق إعطائه أبخس الأجور.

حميد سراج الذي نال تعليما جيدا، ونال ثقة الفلاحين، وكان شخصا مؤثرا فيهم، أدى إلى إعلان الإضراب؛ إضراب الفلاحين، والعمال الزراعيين، فشنت سلطة الاحتلال حملات اعتقال واسعة، وكان في المقدمة منهم (حميد سراج) ويتألق محمد ديب، و في نقل خلجات وتشوفات حميد سراج في سجنه الانفرادي بعد تعذيب شديد.

تداعيات الحرب:

في (الحريق) ج2 من هذه الثلاثية الروائية ينقل المؤلف ما تركه نشوب الحرب العالمية الثانية من آثار مؤلمة على الشباب الجزائري، الذي تستدعيه سلطة الاحتلال الفرنسية لأداء الخدمة العسكرية، الحرب ما شأننا بها؟ إنها

تنشب في بلاد بعيدة، في فرنسة ومن يدري إلى أين تمتد؟

" في اليوم الذي تلقى فيه (جلالي) إبن أيوب الأمر بالسفر، لبست زوجته الحداد، وكذلك فعلت أمه، فارتدت ثوبا قاتما، رجلان ينتزعان دفعة واحدة، وقد دق القدر نفسه باب أسرة محمد أيضاً. انتحبت النساء في البيتين انتحاباً طويلاً وهن يلطمن حزناً وحسرة، وصرخت (صفية) أم الشابين، نادبة ناعية، لاطمة.

- أولادي، أولادي، أخذوا أولادي.

وعادت تلطم، وتمزق وجهها."".

ص107ص110

وإذ شاء الروائي محمد ديب أن يخلي (عمر) محوريته السردية إلى (حميد سراج) في الجزء الثاني من هذه الثلاثية الروائية (الدار الكبيرة) (دار سبيطار) فإن عمر وقد شّب عن الطوق، ويكاد يبلغ مبلغ الفتيان، عاد لمحوريته السردية في الجزء الثالث (النول) فلقد ترك المدرسة

بسبب سوء الوضع المالي للأسرة، وتأخذه أمه إلى (ماحي بوعنان) صاحب معمل نسيج في المدينة عسى أن يجد له مكاناً، وينخرط (عمر) في معمل النسيج هذا، الشبيه بكهف حيث يمضي عمال عديدون، ساعات عمل طويلة، لقاء أجر بخس، يماطلهم في تسديده لهم (ماحي بو عنان) صاحب هذا المعمل البدين السكير، ومن خلال هؤلاء العمال الذين يعملون في ظروف قاسية، ينقل لنا محمد ديب آراء الناس في الحياة والسياسة والأوضاع عامة، ولعل محمد ديب قد استوحاها من عمله في معامل السجاد، إذ يظهر معرفة واسعة في عالم النسج والحياكة والأنوال والأصواف.

هذه الحوارات التي أجراها محمد ديب على السِنة العمال توحي بالآتي من الحوادث، إنها محاولات لتنظيم الشباب الجزائري أنفسهم في مجموعات تعمل على بلورة رأي عام مناوىء لسلطات الاحتلال، إنها إرهاص بالآتي؛ انطلاق الثورة الجزائرية، ممثلة بجبهة التحرير الوطني الجزائرية، في إطلاق رصاصتها الأولى في صدر العدو المستعمر في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1954، والذي تكلل بالنصر في تموز/ يوليو 1962.

إن (الدار الكبيرة) التي أبدعها محمد ديب، تأرخة للحياة الجزائرية على مدى نحو ست سنوات، هي أيام الحرب العالمية الثانية، وما تركته من آثار مدمرة على الحياة الجزائرية، إذ يبدأ الجزء الأول بإشارات إلى الفوهرر هتلر زعيم الرايخ الثالث، وعزمه شن حرب، وتنتهي بوصول طلائع الجيش الأمريكي إلى الجزائر، مما يعني سقوط حكومة فيشي الموالية لهتلر ونهاية الحرب، لذا أدار محمد ديب حواراً مكثفاً وطويلاً على لسان شخوص الرواية، ولاسيما حميد سراج، وعكاشة، وحمدوش، وزبيش، والفلاح بادعدوش، الذي عمل في مزارع المستوطنين الفرنسيين، حتى إذا أسن وما عاد قادرا على العمل، استغنوا عنه، وأخرجوه من الكوخ الذي كان يؤيه وأسرته.

إن (الدار الكبيرة) التي نشرت أول مرة سنة 1952، كانت إرهاصاً بالثورة الجزائرية، كانت بشرى بانطلاق هذه الثورة خريف سنة 1954.

(في المشهد) باب جديد، ننشره بين فترة واخرى، يعتمد على تقديم أديب له حضوره الابداعي ومنجزه المؤثر، وتسليط الضوء على عطائه ورؤيته وذلك عن طريق نشر كتابات نقدية عن أحدث أعماله، الى جانب نشر آخر كتاباته التي لم تنشر من قبل.

محرر (أدب وفن)

حسن العاني
سرديات التخيّل وأوهام الشخصية

علي حسن الفواز

حين نتكئ على السرد لقراءة الواقع أو لمقاربة التاريخ، فإننا سنجد أنفسنا أمام لعبة التخيّل، كونه مجالا مفتوحا يتجاوز المعرفة كما يقول اينشتاين، ويمنح السرد طاقته، ويتيح له الذهاب الى الكشف عن "المسكوت عنه" بوصفه ضدا للواقع، وحتى للتاريخ.

الحفر في رواية "نساء يوسف الحلو"* للكاتب حسن العاني، هو استدعاء لتلك الطاقة، وإدراك يقوم على تقانة الكشف، وعلى القراءة الرائية، بوصفها قراءة فاحصة للمحمول الرمزي، ولعلاقة هذا المحمول بالسيرة وبحياة الكاتب، فالكاتب عبر السرد يتخيّلُ سيرة ما، ربما تشبه سيرته الحقيقية، أو ربما يصطنع لها نوعا من النرجسية السردية، والإيهام الذي يجعل من بطله "يوسف" عنوانا دالاً، ومتناً سردياً تتحرك فيه أحداث الرواية..

فالعنوان/ الثريا يقوم على فكرة استهلالية، أو جملة توصيفية تستدعي المناصة مع ذلك الكشف، إذ يكوّن دالاً يستكنه عن طريقه المخفي والمفارق، وعبر احالات جنسية، مثلما يقوم على كشف نسق يضمر توصيفاً مرضيا لشخصية البطل، وكأنها، أي "جملة

العنوان" تُحيل الى امتلاك سحر السلطة الذكورية، وهذا الإمتلاك هو ما يدفع الى استمراء جوهر اللعبة السردية، تلك التي تقوم على حركة البطل في عالم صاخب بالنساء اللائي يعشقهنّ، ويعيش معهنّ شغفاً توصيفياً، وإشباعاً جنسياً، وكأنه يجد في فكرة الحرمان "اليوسفي/ دالته الإسمية في التعويض عبر اشباعات نفسية وايروسية في الواقع الذي يتخيّله، ومع ما يسترجع معه بعضا من طفولته وشبابه وسنوات دراسته وعمله الوظيفي..

تعالق العنوان مع الحدث، يربط مابين "النساء" وبين شخصية يوسف التي تعاني من عقد تخيّلية، ولا يجد إلّا في شفرة "الإمتلاك" وفي "المقدّس" تمثيلا رمزيا لهوسه بالنساء، بوصفهن فضاء رمزياً، وكشفاً عن حرمانٍ ما، وهذا ما يجعل توصيف أي علاقةً له مع نسائه المتخيلات ذات طابع جنسي، لإن الجنس في جوهره امتلاك وتعويض وايهام بالاشباع الرمزي..

السرد ولعبة الحكاية:

الجَنْبة الحكواتية في الرواية تكشف عن مهارة الكاتب في مواجهة "عالم النساء" وعلاقتهن بسيرته، إذ يضع طفولته وعلاقته بالعائلة "الغنية" مقابلا لعلاقته ب"ماما منيرة" وهي علاقة تستدعي "الإشباع" مثلما هي استفزاز للجسد في نشوئه، وفي تمثيل حاجاته، وشهواته، إذ يبدو مسار تلك العلاقتين محكوما بعامل ذلك "الاستفزاز" فهو الذي يقوده الى كشوفاته النسائية، أو الى تخيلاته عنهنّ، والتي تتكشف عن مستويات متعددة، لتلك العلاقات العابرة والمُستفِزة، مع "اندلس" التي تتركه، ومع "خلود" التي يعيش معها هوسا جنسيا، ومع "عفاف" التي تتزوج غيره بسبب التأويل الديني ورفض الأب لشكّه بحرمة ذلك الزواج، ومع ميادة الزوجة الافتراضية، لكن تبقى علاقته مع "منيرة" هي الأقوى بسبب طابعها "الأمومي" والباعث على اشباعات رمزية، أكثر مما هي ايروسية، عبر ما توقظه شفرة "الماما" أوما تُحيل إليه، وعبر ثبات علاقتها في واقعه العائلي والنفسي والاجتماعي، فعلى الرغم من حضور عنصر الغواية سرديا في هذه العلاقة، فإنّ توصيفها الواقعي والنفسي يكشف عن أزمة شخصيته، وعن عقدته الإشباعية، وعن "حرمانه الجنسي" وهو ما بدا واضحاً في القسم الثاني القصير من الرواية، حيث نسف الشاهد/ إبنته "منيرة" عالم التخيّل الذي صممه الكاتب في القسم الأول، الكاتب لتضعنا أمام "واقعية الحكي" الكاشف لأوهام شخصيته، ولتخيلاتها، ولعلاقتها المضطربة مع نساء متعاليات يسكن واقعه، لكنهنّ يتحولنّ الى نساء يستفّزنّ وعيه الشبقي في التخيّل..

السيرة وتاريخ الشخصية:

لا أحسب أن رواية "نساء يوسف الحلو" هي رواية سيرة بالمعنى الاتوبيوغرافي، لكنها تستمد كثيرا من عناصر بنائها من تلك السيرة، لاسيما في بعدها الطفولي والوظيفي، وحتى تاريخ شخصية "البطل" تستعين بعوالم وامكنة، وتفاصيل حسية تجعله أكثر إقتراباً للواقعية تلك السيرة، عبر الطابع

الساخر، وروح الدعابة، لكن مهارة الكاتب وحيوته تبرز واضحة في تحبيك المبنى السردي، باعتماد تقانة المفارقة في البناء الحكائي، وعبر تلاعبه بالزمن، فهو لم يكتف بالزمن السردي، بل اصطنع له ''زمانات مجاورة'' ينشط فيها الزمن النفسي، والزمن الإيهامي، حدّ أنه اخترع لحكاياته النسائية، علاقات وأمكنة وحتى سفرات خارج الزمن الواقعي، وعلى نحوٍ اغنى حيوية السرد، وترك قارئها يعيش ارهاصات تحول تلك ''الزمانات'' بشغف من يتقصى تتبع الأحداث، و''النهايات السعيدة'' أو يتوهمها.

الفصل الأول من الرواية قد يبدو وكأنه فصلٌ استفزازي لتلك''السيرة'' عبر تشكيل ماهو سردي في بناء الشخصية، وعبر واسطة الراوي العليم، والذي يترصّد علاقات تلك الشخصية بتتبع تحولاتها، وعبر سردنة وجودها في الأمكنة المتعددة، وبما يُعطى لتلك التحولات مساحة مفتوحة تراقبها عين الراوي العليم، ويتقانة ''مونتاج'' دقيقة، لم يُشعِر قارئه بإنتقالات تلك العين الرائية، في الاسترجاع، والاستقدام، وهذا مايحسب للروائي ولخبرته في اصطناع عالم الحكاية التي تصلح أن تكون سيرة بالمعنى التوصيفي، مثلما تصلح أن تكون تخيّلا بالمعنى السردي.

إنكسار التخيّل في القسم الثاني بعزل الراوي العليم، وحضور البنت ''منيرة'' كراوٍ ضدي، يكسر لعبة التخيّل، إذ تصطنع لنا هيكلاً آخر، يناقض ما ورد في حكاية الراوي العليم في القسم الأول، ويكشف عن عيوبه، وعن تسريباته النسقية، تلك

التي تكشف في جوهرها أزمة البطل النفسية.

هذا التحوّل في مقاربة البناء السردي لا ''موت السيرة'' بقدر مايعني تعرية ما أحاطها من تخيلات اغترابية، وانقطاعات لا يؤلف بينها سوى رغبة البطل وتخيلاته، فضلا عن كشفها العميق لتشوهاته الداخلية، ولأزمة وجوده، بوصفها أزمة تتجوهر حول البحث عن الذات والهوية، وعن المعنى المضطرب في شخصيته، وفي علاقته مع الآخرين/ الأخريات.

إعادة توصيف الشخصية في سياق علاقتها الاغترابية، يتطلب مقاربة سايكوباثية لهذه الشخصية، بوصفها تمثيلا لكائن يتخيل أو يتهيأ له، كما يقول صديقه ''المثقف'' صباح. ومابين هذا التخيّل والتهيّؤ ينكشف الخفي والمُضمر واللاواعي في تلك الشخصية، فهي تقيم بهذا التخيّل علاقات يقول عنها فرويد بأنها تتوخى البحث عن الإشباع، بالتهيؤ

فإنها تصطنع ايهامات بالتعالي، وربما بتقليد شخصيات تسربت عبر أنساق قراءاته، والتي تضعنا أمام توصيف آخر لتلك الشخصية، كونها "شخصية وجودية" تعاني من احباط واقعي ونفسي ولا انتمائي، وتجدّ في التخيّل الايروسي مجالا للتعويض وللتفريغ النفسي، وهو ما نجده في عدد من الروايات العراقية ذات النفسي، والتي يعيش عن طريقها البطل استغراقات مواجهة هزائمه السياسية، وانكساراته النفسية والوجودية، فـ"يوسف" صاحب القناع المقدس، وصاحب الغواية، يصطنع تلك التخيلات ليواجه أزمته الداخلية، وليجد نفسه متمردا على ذلك المقدس، وكاسرا لنسقه المتعالي، فهو يستجيب الى الغواية، ولم ينفر منها، مثلما يعيش علاقة مركبة مع "ماما منيرة" يختلط فيها الرغبوي مع الشعور بالإثم في تدنيس المُحرّم، وفي خرق المألوف، مقابل ضعفه امام "الزواج" من ابنة خالته كما تقول احدى حكاياته المتخيلة، بسبب وجود السلطة التي يمثلها العم ابو صفية، وهي سلطة خارجة عن النسق ومحكومة بعامل المقدّس ايضا.

الجنس وشفرة التعويض:

ليس الجنس في رواية "نساء يوسف الحلو" باعثا على توصيف ايهامي للعلاقة التي يقترحها العنوان، بل ينطوي على احالات مُركّبة يدخل فيها الرمزي، مثلما يدخل فيها النفسي، كشفاً عن أوهامه، وتهيؤاته، وعن اضطراب مشاعره، وكذلك عن الشغف الذي يتجوهر حول فرادة الشخصية، والتي يتركها العنوان لاستكناه ما وراءها، إذ تعني مفردة الحلو إثارة، واستفزاز، لا يحكمها سوى فضح ماهو إحالي الى العلاقة مع النساء، والى توظيف الأسطورة كدال اشباعي لتجاوز عقدة الإحباط والعجز، والى أنسنة المغامرة والغواية، والتي يكشف لنا القسم الثاني من الرواية خدعتها وبطلانها، وكأن الروائي يضعنا أمام صراع اشكالي ووجودي مابين الواقع والسرد، أو بين التاريخ والسرد، او بين الاسطورة والسرد، وهي ثنائيات تستدعي مقاربات رهابية من المُقدّس، ومن إقامة تعالقات ضدية بين التاريخي بالسردي. واحسب أن الروائي وجد في ثيمة الجنس عنوانا خفيا لتأطير تلك التعالقات، ولتوجيه أحداث الرواية، وبما يجعل هواجس البطل الجنسية دوافع نفسية لإستفزاز الواقع والتاريخ والمقدس، ولكسر التابو العائلي والنفسي، وليقترح لنا - مقابل ذلك- صراعا لايبدو واضحا إلا بعد الانتهاء من قراءة الرواية بين شخصيتين يمثلها الحلو يوسف، والمريض يوسف، إذ لا نجد امامنا سوى حكاية يرويها يوسف عبر الراوي العليم المنحاز الى تخيلات البطل، وحكاية أخرى ترويها البنت "منيرة" تعرّي فيها أوهام البطل، وتكشف عن علله النفسية وهلاوسه التي تجعله مضطربا ومسكونا بأوهام الماضي..

• نساء يوسف الحلو/ رواية: حسن العاني – اصدار : اتحاد الادباء والكتاب في العراق 2022

مدونات رجل الثلج

حسن العاني

قبيل الغروب بأربعين دقيقة، وبعد الغروب بأربعين دقيقة، يكون قد انتهى تماماً من جولته اليومية التي تبدأ من منزله الواقع الى يمين المقبرة الملكية بأمتار قليلة، مروراً بساحة عنتر فشارع المشاتل وحيوانات الزينة، وانتهاء ببناية المجمع العلمي، ثم العودة في الطريق نفسها، وكل يوم كذلك ما بين الساعة الحادية عشرة حتى الثانية بعد منتصف الليل، يجلس الى منضدته في غرفة المكتبة ثلاث ساعات متواصلة يكتب ما تمليه عليه اللحظة التي تتحكم فيه، ربما مشاهداته بغض النظر عن اهميتها، او خاطرة او فكرة او يستكمل مشروع روايته التي شرع بها منذ خمس سنوات، وقد لا يكتب حرفاً واحداً، ولهذا كان صفوة اصدقائه ينعتونه (الانسان الالي) مزاحاً او سخرية، على ان اشد ما كان يغريه في تلك الجولة اليومية تتمثل في المسافة التي تمتد الى يمينه بضعة مئات من الامتار ما بين الساحة ونهاية الشارع العابق برائحة الورد واختلاط الالوان وضجيج الحيوانات العابثة، ولكن تشرين الثاني في تلك الاربعين دقيقة التي تسبق الغروب، وفي ذلك اليوم على وجه التحديد، كان مجنوناً بمطر عنيف مفاجئ دفعه مهرولاً الى عبور الشارع، صوب الجهة المقابلة حيث الصف الطويل من البيوت المتجاورة ذات الشرفات العريضة، في محاولة للاحتماء، وكاد يسقط لولا يد المرأة التي سبقته الى الاحتماء، حيث سارعت وانتشلت كبوته وانقذته من التدحرج في البرك الطافحة بمياه الامطار، وسوف يكتب– بعد أن أنتهى من تدوين خاطرة رومانسية سريعة مفحمة بخيال خصب في دفتر يومياته، وهو المكان الوحيد الذي لا يرقى اليه الكذب او النفاق – ان تشرين الثاني في ذلك الوقت الذي يسبق الغروب لم يكن ممطراً، وإنه رأى تلك المرأة والتقاها عن قرب في اثناء

عبوره الى الجانب الاخر من الشارع، لأن احساساً غريباً شدّه اليها، ذات ليلة سيكتب (ما الذي يجعلني اعتقد اعتقاداً ساذجاً، بأنني في زمن ما، ربما قبل ألف سنة قد تزوجت هذه السيدة المنحوتة من الرخام الاشد بياضاً وكأنها آلهة يونانية)، وتكرر لقاؤه بها على مدى تسعين يوماً، وإنه قادر على ملاحظة الطريقة التي كانت تراقبه فيها، وإنه بعد تلك الاشهر الثلاثة استقبل منها ابتسامة هزّت أعماقه، ردّاً على وجهه الذي بعث لها رسالة غزل سرية، وفي يومياته – الشاهد الوحيد على مصداقيته – قرر أن يعبر الشارع في حضرتها ويخبرها بأن شيئاً ما شدّه اليها، لعلها الالهة اليونانية، وهذا ما حصل في اليوم الواحد والتسعين، لولا المفاجأة التي لم يتحسب لها بينما كان يهم بالعبور من رصيف المشاتل الى رصيف الدور السكنية، كانت تسبقه الى عبور الشارع من الدور الى المشاتل- ذلك ما تضمنته إحدى مدوناته- ولهذا اسرع الخطى والتقيا عند منتصف الشارع الذي اربك مرور المركبات، ولأنه مازال منشغلاً بوقع الدهشة، فقد امسكتْ بكفه وعبرا باتجاه محل اسماك الزينة، كانت هرولتها اقرب الى الركض، ولحظتها بشيء من الحزن، ظنّ بأنها ستفلتُ كفه بمجرد التحرر من محنة المركبات، غير انها، المرأة التي لم تتجاوز عقدها الثالث كما جاء في يومياته، ثم صوّب تلك المعلومة في اليوم السابع والتسعين على ملامسة كفها التي بعثتْ في كفه التي أتعبها البرد، نشوة اثارتْ استغرابه، لم يسبق له ان تحول الى ضحية انتشاء غير مسبوق يكمن في كف، وقد قفز الى ذهنه سؤال لم يكن من طبعه: أية نشوة كانت ستفجر الكون الاحدب لو انتفضت حلمة نهدها بين اصابعه، قبل ان يكتشف انها من مواليد 29/11، وإنها في مثل هذا اليوم من السنة الجديدة ستكون في السادسة والاربعين من عمرها، ومع ذلك لم يعر كبير اهمية عندما اكتشف مصادفة انها ستكون في السادسة والخمسين، فذلك على حد العبارة التي تضمنتها احدى مدوناته (المرأة التي تتحايل على عمرها تحترم انوثتها)، ولكن صفوة اصدقائه زعموا انه لم يكن يشعرها بتلك السلسلة الطويلة من الاعذار المفتعلة والاكاذيب الصغيرة التي لا تليق بامرأة من ذرية الالهة اليونانية، اما زعمهم الاكثر خطورة، والذي كان يرفضه بانزعاج مع انه ورد غير مرة في يومياته، فيذهب الى ان السيدة تزوجت في سن مبكرة (لم اسألها ان كانت مرغمة- نص حرفي من اليوميات) ودفعت زوجها الى الانتحار لانها لم تعد تحتمل معاشرته، وبطريقة غامضة هي وحدها من يحسنها، جعلته يشرب السم، كلام لم يرد في اية مدونة، ولكنه يقرب من اليقين الثابت لدى الصفوة، وعلى مدى ثلاث سنوات كانا يلتقيان عند اسماك الزينة، ويقطعان الطريق معاً الى ساحة عنتر ثم ينحرفان يميناً الى الاعظمية وبعدها يعبران جسر

الأئمة صوب المطعم الذي استحوذ على اعجابهما عند كورنيش الكاظمية، وكان مع بداية كل شهر هجري – هذا مدون في اليوميات – يقدم لها هدية (هي التي تحدد نوع الهدية من غير ان تطلبها ابداً.. امرأة تتحلى بذكاء انثى استثنائية)- هذا المقطع منقول حرفياً من الصفحة -124 وبعد تسع صفحات نقرأ نصاً حرفياً آخر (حتى هذه اللحظة بعد 728 يوماً على أول لقاء بيننا تحت الشرفة وأنا لا اعرف أين تسكن على وجه الدقة)، وعند آخر سطرين من الصفحة نفسها هناك مدونة تعود في الغالب الى تاريخ قديم جاء فيها (كانت صادقة يوم فاجأتني وأنا أتلذذ بملمس كفها، إن شيئاً لم تستطع وصفه هو الذي شدّها نحوي بحيث هزّ أعماقها وارغمها على العبور الى رصيف المشاتل)، وفي آخر قصة كتبها هناك اشارة الى البطل – صفوة اصدقائه يجزمون بأنه بطل قصته – مفادها ان السيدة شبيهة الآلهات اليونانية التي عشقها بطريقة غامضة كما يفهم من سلوكه، وافقتْ فجأة على الزواج منه، وفجأة رفضت رفضاً لا مجال فيه للتراجع، اي مشروع للزواج ... هي لم تذكر ابداً، ان ذلك من باب الوفاء لزوجها ولكنها كررت غير مرة مفردتي الحياء والحرج من الاخرين، حتى ان خضير الحميري اقرب الصفوة الى روحه قالت مرة في وجهه (إنها مهووسة بحبك الى الحد الذي يصعب عليك ادراك ذلك)، وتفيد مدونة الصفحتين 532/533، إنها في لحظة تحرر من مشاعرها المسكونة بالرعب اخبرت صديقتها (جنّة) ، وهي ابنة خالها: إن هذا الرجل الذي يعشق على طريقة البدو يستحق ما هو اعظم من الحب، ولكنني – هي التي وصفتْ نفسها – امرأة مجنونة او سيئة منذ اقمت بيني وبينه حاجزاً، ولعلها مطابقة نادرة تلك التي حدثت بين احدى المدونات وبين معلومة تمت الاشارة اليها في واحدة من القصص التي لم تكتمل: إن البطل لموقف لم يفصح عنه خسر كل شيء حتى وظيفته، وإنه توقف عن ليالي العشاء اليومية وتقديم الهدايا التي كانت تريدها من دون ان تطلبها، ومع ذلك فقد كانت ليلة رأس السنة تلك غريبة، إنه على عادته منذ اللقاء الذي اربك سواق المركبات، ينتظرها امام اسماك الزينة وهي تأتي في الموعد تماماً، ومع مرور اكثر من ساعتين على انتظاره، الا انها في تلك الليلة الغريبة حيث لم يسبق ان هطلت الثلوج بهذه الغزارة لم تحضر، وواضح بأنه لم يدون ذلك في اية خاطرة او يومية، ولكنه اصر بعناد رجل شرقي متخلف ان يواصل الانتظار، فيما كانت الثلوج تزداد هطولاً، وحين هدأت السماء مع اطلالة اضواء الفجر، كانت مناسيب الثلوج قد ارتفعت الى 30 سنتمتراً، فيما تحولت الاشجار واعمدة الكهرباء والمركبات المركونة عند الفروع المؤدية الى (راغبة خاتون) وجسد الرجل الواقف على مبعدة مترين من الاسماك الى تكوينات بيض ذات لمسات

فنية مفعمة بالرومانسية، ولهذا تسابقت وسائل الاعلام الى تغطيتها، غير ان مساء اليوم الاول من السنة الجديدة شهد موجة اعنف من البرد والثلج بحيث تراجعت الحياة في الشوارع، وبحلول اليوم الاول من العام الجديد، وهو آخر اعوامه، إرتفعت كتلة ثلجية بارتفاع ثلاثة امتار فوق جسده، وهو مُصِرٌّ – هذا ما زعمته الصفوة – على عدم مغادرة المكان، غير إن احداً منهم، حتى الحميري لم يستطع الجزم، فربما كانت الكتلة الثلجية ذات الحجم الهائل هي التي اعاقت حركته، وهذا ما تأكد في اليوم السادس وتحديداً قبيل الغروب بأربعين دقيقة، حيث ترنحت الكتلة ثم هوت فوق الارض، كانت المرأة -التي مازال ملمس كفها الناعم يستقر في كفه اليمنى ويملأ روحه بالانتشاء- وهو يحدثها (ما كان عليه ان يفعل ذلك باتفاق الصفوة) عن حلم راوده مع إبنة خالتها طوال ليلة كاملة، كانت عارية بين ذراعيه، وإنه قاوم اغراءها فوق طاقته قبل أن يستسلم لجنون رغبتها الجامحة، وعلى رواية الصفوة فأن المقاومة مجرد زعم كاذب حيث رأى الغيرة الغاضبة ترسم صورة عينيها، كان الملمس الناعم يواصل نشوته في كفه اليمنى على الرغم من كفها التي غادرت مكانها عنوة، ومازالا يقطعان الطريق من اسماك الزينة الى جسر الأئمة صوب المطعم المطل على دجلة الكاظمية، ولكن شيئاً من احاديث الصفوة لا وجود له في اليوميات ولا القصص او الخواطر ولو من باب الاشارة، غير إنه ما عاد قادراً على شراء الهدايا التي لا تطلبها، هكذا قالت له ذات ليلة: اعرف انه عرض مجنون وقد اقتل نفسي بعده، فضحك حتى دمعت عيناه لانها – اليوميات والمدونات جميعها خالية من هذه المعلومات – تطلب منه الزواج ، على وجه الدقة، الموافقة على الزواج من (جنة) فهي معجبة بك، وكان وقِطَعُ الثلج لم تتوقف عن التساقط قبيل الغروب، قد افتقد لاول مرة ملمس كفها المستقرة في كف رجل لا يجهله ولكنه لا يعرفه على وجه اليقين، هو من اوحى لنفسه ان كفها لا تتوهج نشوة الا حين تكون في كفه، ولم يكن وهما الكف بالكف يمران قريباً من مرمى بصره، ومستغرباً او مندهشاً او حزيناً، إنه كما بدا في ذلك (الوقت الذي يسبق الغروب)

- في مدونة صغيرة بين يومياته ترك العبارة التالية (قبيل الغروب هو الشيء الحقيقي الوحيد في حياتي، أعني انه حياتي وتاريخي ومستقبلي، لقد وُلدتُ ذات مساء هنا – كائناً مفرغاً من أية مشاعر، يعرف كل شيء ولا يعرف اي شيء ولا يريد ان يعرف شيئاً، فيما كان الثلاثة، هي وملمس كفها والرجل الذي لا يجهله يقطعون الطريق نحو ساحة عنتر، وحين انعطفوا يميناً بأتجاه الائمة واصبحت رؤيتهم متعذرة، استعاد رزانه وقفته وموقفه الى ان انتصف الليل وبدأت ثلوج العام الجديد تتساقط

بغزارة غير معهودة، حيث ورد على لسان بعض الصفوة – الحقيقة جميعهم- بأن عمود الثلج الذي ارتفع فوقه راح ينافس منارة "النداء"، ومع حلول شمس نيسان الدافئة، وحماوة حزيران وجحيم تموز، تعرّت الاشجار وخلعت لونها الابيض... بدت وكأنها اغتسلت من متاعب الخريف، ولكن عمود الثلج قاوم الذوبان، وكما زعمت الصفوة: باتت الناس تدعوه "رجل الثلج"، والاطفال يسمونه "بابا نوئيل" وانتهى كل شيء في ذلك العام، غير ان أعواماً لاحقة لم يستطع أحد تحديدها جعلت المرتفع الثلجي موطناً لطلب المتعة، فيما ابتدعت نساء المدينة حكايات عجيبة حوله حظيت بتصديق الصفوة، وقد اتفقت رواية النسوة والصفوة وشهود العيان من "الوزيرية والشعب وراغبة خاتون والقاهرة والجريدة اليومية وأم عباس – موظفة تعمل معها في الجريدة، وهي أول من رأتهما متلبسين بالحب في مكان قريب من اسماك الزينة، واكتفت بابتسامة يصعب الجزم ببراءتها، وكأنها لم ترصد وجودهما الغريب معاً في ذلك الوقت الذي يسبق الغروب على إن المرأة التي افزعتها حكاية ابنة خالتها –هي التي أخبرت (جنة)، في لحظة تحرر من مشاعرها المسكونة بالرعب: إن هذا الرجل يستحق ما هو أعظم من الحب-، كانت تزور عمود الثلج كل يوم قبيل الغروب بأربعين دقيقة وتبكي بصمت...

نصوص

عامر الطيّب

قبل أن أحبكِ اختبرتُ أن
أتخيل جسدي مترهلاً
فبدا كل ما كنتُ أراه من العالم مرتعشاً .
في القصة الصغيرة
من قصص الحب
حيث الشموع تنطفئ مثل الآلام
و الشجيرات تتآلف مع الريح
اختبرتُ أن أوفّرَ من نسيانكِ شيئاً للذكرى!

و السلال الفارغة
على قبري !

هنا يرقدُ مَن لم يهده أحد
سلة زهور بنفسجية
اللون.
ها هو يبلغ كل شيء
بعد فوات الأوان
أنا الذي أقول ذلك الآن
راجياً من زواري
أن يضعوا الأزهار على قبور الغرباء

يا له من حبٍّ ينال
القوة قبل نهاية هذه السنة
نقابل كل ضعف فيه
بعدم اكتراث
ومثل بيت
كنا قد شيّدناه من أجل السكن
و الدفء
ها هو يكاد أن يقع

فنرممه من أجل الأسرار !

في هذه الحياة نظرتُ للسيجارة
كما يفعل الرعاة
نحو تلالهم البعيدة .
بدوتُ
أشد لامبالاة تجاه كل شيء .
أحببتُ السيجار لكني أقلعتُ عنه
مثلما سأقلع
عن حبٍّ يستزف قواي
مرةً عبر قذف العلبة كاملة
أما هذه المرة فعبر إخفاء القداحات!

××

أقيس نفسي مع هذا القمر
الذي يبدو غافلاً
عما أفعله.
عند اكتمال القمر
أخسر شيئاً
أما مع اختفائه تماماً
فلعلي أربح الليل كله فقط!

××

بلدتي هادئة طوال اليوم وأنا مثلها
مع أننا بانتظار ما يزلزلنا
أحكُّ جسدي
و أعي ما للصيف من إهانة
للجسد الوحيد
في معقله.
بلدتي مع حلول المساء
ستعود مقبرة كما تقول الحكاية
أننا على أية حال
لن نصل أبعد من أحلام الموتى !

××

لا يستدل على موتي
إلا عبر جثتي وهي تتعفن
و ما يكفي من الرجال الذي يحملون
الجنازة .
أنني ميت بما في المجاز
من تهوين للموت ،
نافذتي موصدة
من أجل المستقبل
و بابي مفتوح من أجل الماضي!

××

لو تيسر لي أن أكون
لكنتُ النهار الذي يفتح
غيماته البيضاء ،
المدن التي يدوم عمرها ،
الطيور التي لا تستريح الا
في أعشاشها.
و بالكاد سيكون لي في البرد المعتم
مصير تلك الحشرة التي تستدفئ
بالأزهار!

××

وددتُ لو تكون قبعتي
الأرض فتمشين حافية
هناك
بينما يندب الجميع مصائرهم
تمرحين فحسب
أن حبك في تلك اللحظة المنتبذة
يتقاربُ من فروة
رأسي !

××

يسوء العالم فيبدو وجهي
أشد سطوعاً، يداي رحيمتين حتى عندما
لا يكون ثمة ما أتناوله،
رأسي حزيناً
و دربي ممر شجرة .
تسوء المدن المجهولة
وما نحلم بقطف أزهاره يصير حجراً.
تسوء الطرق أيضاً
تلك التي نقطعها في قمة كسلنا
فيزداد حبي خيبة
و وحدة و سلاما
لكل هؤلاء الذين يلوحون
مصغين للمطر ..
يسوء الحب فيظل قلبي قديساً أو شحاذاً
لا فرق
ومثل الآلهة البرية
أموت منتظراً أن تتحسن أحوالُ
العالم فأفتح عيني !

××

لم أبلغ الأربعين بعد لكن الناس
يسمونني حكيماً
إذ استطعتُ منذ الصغر
أن أقود رفاقي نحو محاكاة

العشاق الكبار
الناس هنا يبجلون الألم رغم فداحة
الأمر يعني ذلك أنّ لي قدرة
على أن أنشف دموع البصلة الصغيرة
بالسكين !
××
أطلب من الشاعر الصبي أن يؤلف كتابه الآن
حتى عندما يبدو هذا سيئاً
فيما بعد.
الشعراء الذين لا يؤلفون الكتب
السيئة مبكراً
سيهرمون في الغد البعيد
و يؤلفون الكتب الأسوأ !
××
قلتُ:
أرني أين جُرحتَ؟
رفع الطفل بيجامته و أراني
بقع
الدم .
في اليوم التالي

سألت الطفل
أين جُرحتَ؟
أراني ركبته فحسب .
اليوم سيعيد التاريخ نفسه
سيسألني الطفل
أين جُرحتَ ؟
فأطلب منه أن يريني ركبته
لأشير إلى قلبي!
××
اتخذت مما يلامس يدي
الآن شيئاً لأكتب عليه مثل صاحب
طريقة الزن
مستغرقاً في الجلوس
قصائدي ليس إلا ما يتخفى
في البيت القديم حيث ولدتُ،
ما نتبادله من الصمت العابر
أحياناً،
حيث توجد غُريفة واحدة
ومعتمة
فأنا بطلُ العالم في التجوال!

محمد علي شمس الدين: طائر الجنوب الذي رحل

فاضل ثامر

لبنان الارز
ولبنان الجبل
ولبنان الحرية
ولبنان المقاومة
ولبنان الحب

هي الايقونات التي تتألق مثل قناديل متوهجة بين تضاريس التجربة الشعرية الخصبة للشاعر الكبير الذي فقدناه، محمد علي شمس الدين (1942 - 2022) الذي رحل فجأة في الحادي عشر من أيلول 2022 عن ثمانين عاماً. لقد ظل الشاعر يغني طيلة حياته، مثل عندليب، غناءه الرومانسي المتفائل، المفعم بالحياة والأمل والجمال، وهو يمد يداً نحو الغيب، ليصافح بحرارة ومودة كل الأيدي البيض الممتدة نحوه، ويوصل بصوته العذب صوت لبنان الشجي ومحبة أهله وأشواقهم.

وعندما أطل الشاعر محمد علي شمس الدين على المشهد الشعري العربي في السبعينات، وتحديداً عام 1973، واجه مشهداً شعرياً عربياً، يمور وتلتحم فيه العديد من الرؤى والأصوات الشعرية والمتعارضة. فقد كان صوت الجواهري

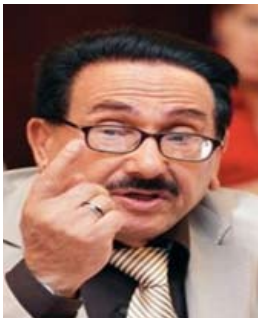

حاضراً أبداً، وكانت الرومانسية اللبنانية ما زالت تضوع في تجارب جبران خليل جبران، وايليا أبي ماضي، والياس أبو شبكة، وعمر ابو ريشة، وميخائيل نعيمة، وغيرهم، كما كان صوت السياب ورموزه وأساطيره تطل في الكثير من تفاصيل هذه التجربة، كما كانت أصوات صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي وأمل دنقل، تعبر المسافات من أرض الكنانة الى شواطئ لبنان، وما زالت أصداء قصائد نازك الملائكة الأنثوية والرومانسية تتسلل برفق بين حشد الأصوات الذكورية العنيفة، وكان الشاعر جليل حاوي، بقامته الشعرية الشامخة، حاضراً بقوة في المشهد الشعري اللبناني والعربي، وشكل ثنائي

قصيدة النثر (أنسي الحاج) و(محمد الماغوط)، علامة مؤثرة مشعة، لكن صوت أدونيس في تلك الفترة كان هو الأقوى والاكثر جاذبية وتأثيراً، بين هذه الأصوات، لأنه ما زال يحمل حرارة المخاض الشعري الحداثي، ويفاجئ الشعراء والقراء، معاً بفضاءات شعرية لم تطأها أقدامهم من قبل. وكان لابد للشاعر (محمد علي شمس الدين) شأنه شأن معظم شعراء جيله، أن يقع تحت تأثير أدونيس اولاً ويدخل تحت معطفه بعض الوقت، كما تأثر وبدرجات متفاوتة ببعض شعراء الحداثة العربية في الخمسينات والستينات، ففي قصيدة (أمي) نسمع صوت ادونيس واضحاً:

"هو القلب أم حفنة من دخان القرى،
قال لي صاحبي نشأنا معاً،
وضحكنا معاً،
وشربنا معاً".

أو كما في المقطع التالي من قصيدة (طلل) من ديوانه الاول" قصائد مهربة الى حبيبتي آسيا" الصادر عام 1975:

"للنسر الجائع
للبلبل في المطر الوحشي
وللطفل المذبوح على عتبات النهر
لموسيقى الأفلاك
وللفوضى الكونية
أنزف من رئتي الشعر
وأرفعه كالجرح الشاخب في نافورة هذا العصر".

لكنه سرعان ما نفض عن كاهله كل المعاطف الشعرية المختلفة، وانطلق ليعيد تشكيل تجربته وصوته وتأملاته بخصوصية تامة، فكان محمد علي شمس الدين الذي عرفناه ، شاعراً يعرف كيف يدخل قلوب قرائه وينتزعهم من غفوتهم، وهو يتمسك بالكثير من ثوابت القصيدة الغنائية. كما ظل أميناً في الكثير من تجاربه لقصيدة الشطرين، أو القصيدة العمودية الحديثة، وهو ينهض بغنائيتها وايقاعيتها برومانسية عذبة ومتفائلة، وهو يحلق بجناحي التراث والحداثة معاً:

"طللٌ على جبلٍ، وكان غرابه
يبكي، فيضحك سقفه وترابه
عزفت علي الجن بعض غنائها
فتمازجت اعراسه وخرابه
ومشت عليه الريح مشية خائفٍ
فتخلعت من حسرةٍ أبوابه".

في شعره العمودي، حافظ الشاعر، الى درجة كبيرة، على قيم الموروث الشعري كالايقاع والتقفية واحياناً التطريب، ولكنه فعل ذلك بذائقة حداثية وعصرية.

وتطورت تجربته نحو قصيدة التفعيلة أو قصيدة الشعر الحر، كما جرب قليلاً الكتابة بقصيدة النثر، وكان في كل ذلك، هو، هو، الشاعر الذي لا يُشَبه أحداً، فقصيدة "وجه ليلى" مثلاً إنموذج لقصيدة التفعيلة أو الشعر الحر التي كتبها الشاعر:

"هو العشق

ما تفعل الآن ليلى
أتنسى مواعيدها؟
بين وقع الخلاخيل
هذا دمي غائراً في الخطى
شاحباً كارتحال اليمام".

في "قصائد قصيرة" اعتمد الشاعر على ضربات سريعة، مثل ضربات رسام محترف يرسم بالزيت: ففي قصيدة "أخاف" نقرأ:

"أخاف أن يكون قاتلي
بداخلي".

وفي قصائده سخرية سوداء لاذعة من رموز الاستبداد:

ملكٌ
"سلمه ابوه صولجان الملك ثم مات
لم يمت
فشعبه يموت دونه".

وفي قصيدة مماثلة هي "ملكٌ. ظلٌّ .":

"أشار نحو ظله
وقال آمراً:أنا الملك.
لكنه في الليل زال ملكه. "

وفي صورة ذاتية ، يقول

" رسمت وجهي من تراكم الثلوج فوقه
وساعدي من شقائق النعمانْ
وكلما إستطار بيرقٌ على حصانْ
حملت ريشتي
رسمتني كأنني اسير في الهواء
رسمت في الأثير فتنتي".

والشاعر هنا يرسم هذه " البورتريه" الشخصية من عناصر الطبيعة مثل تراكم الثلوج. وشقائق النعمان، والهواء وغيرها من مكونات الطبيعة اللبنانية الضاجة بالحياة وهو ما يجعل شعره يكتسب مسحة رعوية.

وتدفع الغنائية الشاعر، أحياناً، الى لونٍ من الشعر الذاتي، بتطرف أحياناً نحو النرجسية. فالشاعر يبدو مفتوناً بذاته. فهو مركز الكون، وكل الأشياء تدور حوله، وهو يلعب أحياناً لعبة القرين من خلال المرأة ، عبر وجهين ،وليس عبر وجه واحد كما جرت العادة في تجارب الشعراء الآخرين:

" أطلقت صراخاً وحشياً
حتى تسمعه الأرض
فتسمعه أمي،
لكن البابْ
فهرعت الى المرأة
لأبصر آثار الخوفِ على وجهي
فوجدت بصفحتها وجهين
يقول الأول للثاني:
- من أنت؟
فيسأله
- من أنت؟"

وتجتاح الأسئلة قصائد الشاعر فتشتعل حرائق السؤال الوجودي عن الحياة والموت والحب والخلود والكون، ويظل طيلة حياته محاصراً بوجع الأسئلة. فها هي الأسئلة تتعالى في قصيدة " وجه ليلى":

"هو العشق
ما تفعل الآن ليلى ،
أتنسى مواعيدها ؟ "

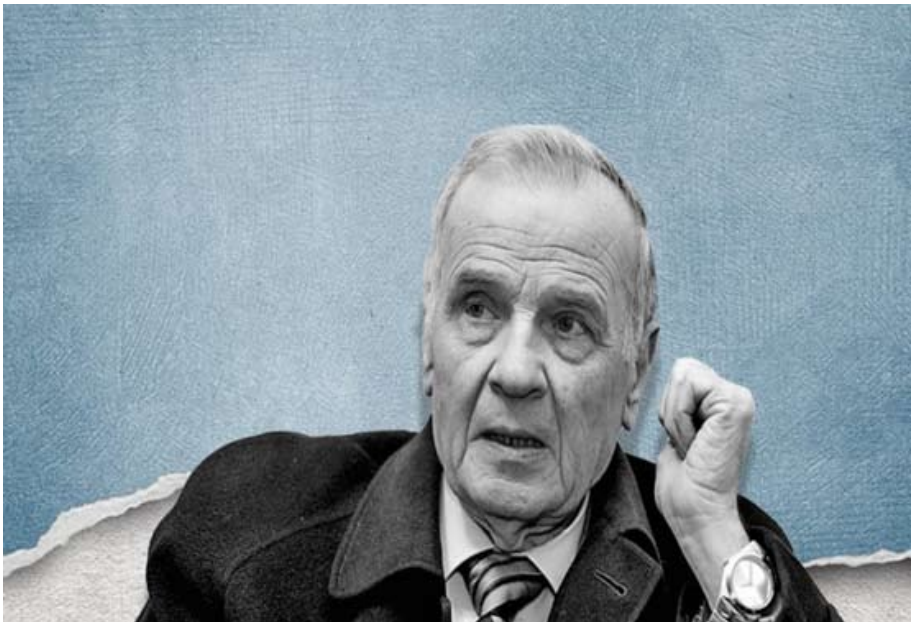

الى أن تحتشد الأسئلة:

" فهل أبصرت عينيك الآن وجهاً لليلى

ومن أنت؟ من أنت ؟

آه؟"

وتلعب الصورة الشعرية دوراً كبيراً في رسم معالم التجربة الشعرية لدى الشاعر، وأساساً من خلال بنية المجازات الشعرية والاستعارة أو من خلال شعرية " الانزياح" Deviation عن القاعدة المعيارية . ففي " كاف التشبيه وأخواتها":

" مقابرٌ تنمو كفطر التلال

وعيناك فيها

كبدرين يرتجفان من شدة الخوف."

ونلمح هنا صوت السياب في" انشودة المطر":

"عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر."

وبهذه الحرارة ، تمنح اللغة الشعرية الطازجة قصائده عناصر الصدق والدهشة والمفاجاة:

" أنا من نام منطرحاً على عتبات جسمك في النخيل

ان الريح تنشرني هناك

أنقل خطوتي كالظل أو

كتقلب الإعصار،

ربما برقتْ لآلئ من حصى الأعماق في كفي كومض النار."

وفي شعر محمد علي شمس الدين يلتحم الكوني بالارضي وبالصوفي في موجة عشق تذكرنا بمحيي الدين بن عربي:

" أنظر

هل تبصر غير سحاب
يرحل خلف سحاب
حتى آخر أيام التكوين"

لكنه، يظل أساساً شاعر الأرض والمرأة والانسان والحب والثورة، وهو يفتح عوالمه على مدن خيالية، تنام عند ذرى أشجار الأرز، وسفوح جبل عامل و قريته الواعدة " بيت حانون". ولأنه ابن الجبل وابن قريته الساحرة (بيت ياحون) في الجنوب اللبناني وتحديداً في جبل عامل، غنى للطبيعة، وارزها، واشجارها، ونسائها، كما غنى لخريفها وزيتونها وشتائها وفراشاتها. وكان غناؤه يمتزج بمسحة صوفية شفيفة، وهو ابن تراث ديني إسلامي بوصفه من سلالة مراجع علمية مشهود لها بالمعرفة والثقافة، فقد كان في طفولته يستيقظ على صوت جده وهو يؤذن اذان الفجر. وعندما تعرضت شجرة الارز، والتراب الوطني اللبناني الى التهديد والتدنيس من قبل الكيان الصهيوني، انتفض بكل قوة وعنفوان ، بالشعر والكلمة والموقف المسؤول ليذود، مع شعراء وطنه، ومع شعراء العربية في كل مكان، عن حرية لبنان وترابه ويخلق مع أقرانه شعراء الجبل والجنوب اللبناني مدرسة خاصة في شعر المقاومة اللبناني ضمت شعراء أمثال حسن عبدالله، وشوقي بزيع، وإلياس لحود، وجودت فخر الدين وغيرهم، وهي مدرسة في شعر المقاومة تقف جنباً الى جنب الى جوار شعر المقاومة الفلسطينية، كان لها الأثر في عضد النضال الوطني ضد الاحتلال الصهيوني، وفي التعبير عن موقف الشاعر اللبناني وهو يقاتل بالكلمة والفعل عدواناً غاشماً ضد الجمال والحياة والحب.

محمد علي شمس الدين، الشاعر والإنسان والموقف. لا يمكن أن يرحل بسهولة، فقد كان شاعراً معطاءً، وترك ارثاً شعرياً متنوعاً وغزيراً٠تمثل في عدد كبير من الدواوين الشعرية، فضلاً عن أعماله الشعرية الكاملة. ومن دواوينه الشعرية المهمة يمكن أن نشير الى دواوين "قصائد مهربة الى حبيبتي آسيا" عام 1975و"غيمٌ لأحلام الملك المخلوع" عام1977 و"أناديك يا ملكي وحبيبي " عام1979و"أما آن للرقص أن ينتهي؟ عام" 1992 و"النازلون على الريح" عام2013و"شيرازيات" عام 2005و"عندما تهب العاصفة" عام 2010و"ينام على الشجر الأخضر الطير" عام2012، وغيرها. لذا فهو باق بيننا بصوته وروحه ومواقفه وصوفيته وانسانيته، يعانق بمحبة الاجيال القادمة.

فلاح رحيم
القراءة الاجتماعية لرواية
"حبات الرمل ... حبات المطر"

شريف هاشم الزاملي

تدرك الدكتورة لاهاي عبد الحسين ما يعنيه اختيارها رواية (حبات الرمل.. حبات المطر) للروائي (فلاح رحيم)[1] في كتابها (من الأدب الى العلم) ضمن دراستها في (علم اجتماع القصة والرواية العراقية) من الفترة 1920– 2020[2] ما يمكن أن يضيفه هذا الاختيار من نهج إبداعي يشكل إلى جانب ما اختارته من نتاج القوة الناعمة، احتفاء بمئوية العراق ـ بانوراما الإبداع العراقي عبر واقعية شخوصه لرسم الهوية الوطنية ولتسهم في إرساء رؤى تتسلل من السرد إلى القارئ ليكون مشاركاً في اقتناص ما يبعث به من شفرات، وبما يحقق من قوة التأثير والتأثّر، إلى جانب ما في فضاء النص من معاني مفتوحة تدعوه إلى تأمّل مدياتها ودلالاتها ليكون فاعلاً بحق. و(فلاح رحيم) كاتب ومترجم وروائي عراقي درس الأدب الإنجليزي ودرّسه في جامعات عراقية وعربية. ترجم العديد من الكتب المهمة منها: البحث عن ملاذ للشعر، مقالات في الشعر الغربي الحديث (2020) ، حكاية الجند، صموئيل هاينز (2016)، الذات تصف نفسها، جوديث بتلر (2014)، قوة الدين في المجال العام، يورغن هابرماس وآخرون (2013)، الترجمة وإعادة الكتابة والتحكّم في السمعة الأدبية، أندريه فيغر (2011)، القراءات المتصارعة، بول ب أرمسترونغ (2009) ، الذاكرة في الفلسفة والأدب، ميري ورنوك (2007)، الزمان والسرد، بول ريكور ، الجزء الأول (بالاشتراك مع سعيد الغانمي) و الجزء الثاني (2006) ، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، بول ريكور (2002) ، فضيحة ، رواية ، شوساكو أندو (1991)، بحر ساركاسو الواسع ، رواية (1978، 2016).

نشر أربع روايات هي: " القنافذ في يوم ساخن" (2012)، " حبات الرمل.. حبات المطر " (2017)، "صوت الطبول من بعيد" (2020)، " الشر الأخير في الصندوق" (2021)، وله كتاب نقدي بعنوان "أزمه التنوير العراقي: دراسة في الفجوة بين المثقفين والمجتمع" (2018) ، كما ترجم إلى العربية عدداً كبيراً من الأعمال الأدبية والفكرية في الدوريات العراقية والعربية.

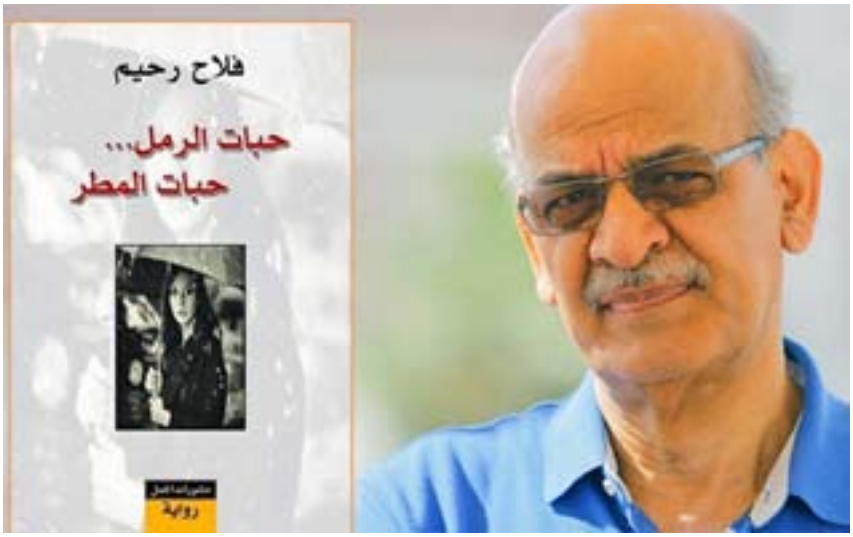

تعرض رواية (حبات الرمل.. حبات المطر) كما ترى (الباحثة) "ظروف العمل السياسي والجبهة الوطنية.. والخدمة في الجيش.. تختلط المواقف السياسية بالحب والمشاعر الإنسانيّة. بطل الرواية (سليم) شيوعي ماركسي، يميل إلى زميلته (هدى).. تحول_ بينهما_ عوامل متعددة في مقدمتها التباين الطبقي الواضح.. فهو من عائلة تقرب من الفقيرة... بينما هي من الطبقة الوسطى العليا تقيم في شارع الأميرات، حي المنصور، فيما يقيم في حي البياع الشعبي." ص417

يضاف إلى ذلك وازع سياسي يتمكّن من (سليم) حدّ التردد في إظهار ما في داخله من مشاعر "ويبقى السلوك المتردد كما ترى الباحثة_ هو الحاكم عليه على طول الرواية " ص419 إلى جانب رصدها ما يدور من حوار بين (سليم) وأبيه، وكلاهما ينطلق بعفوية ممّا يؤمن به، وقد تمكن الروائي (فلاح رحيم) من رسم صورة حيّة لما تعيشه العائلة العراقية من تناقضات تشي بما عليه الواقع السياسي آنذاك حيث تنقل (الباحثة) " تعليقاً متهكماً من والد (سليم) حول درجة التبجح التي يدعي بها النظام السياسي آنذاك بشأن الإنجازات العظيمة من بناء المدارس والجسور ومعامل الأحذية ، و يتساءل : لم لا تتباهى القنوات الإذاعية البريطانية والأمريكية بإنجازاتها كما تفعل العراقية والروسية؟ ردّ على والده وفق النظرية السائدة آنذاك: لا يمكن مقارنة مشاغل السوفييت البناءة مع مشاغل المستعمرين المشبوهة." ص420

ما الذي يمكن أن تقوله يا أبا سليم، لا لسليم فحسب بل وللعالم أجمع وأنت ترى ما يحدث في أوكرانيا؟ لقد غدت مكبّاً لقذائف وصواريخ تهوي بها مطارق روسيا، وهي ما تبقى من الاتحاد السوفيتي على مرآى ومسمع من العالم أجمع، وليس لأمريكا وبريطانيا ودول أخرى سوى التضامن مع أوكرانيا، وإن كانت ثمة إمدادات فهي

تهدف إلى إطالة أمد الحرب لا غير، في حين تواصل مطارق الروس الضرب على السندان الأوكراني.

ولحرص (الباحثة) على توثيق زمكانية الأحداث، تعمد إلى أن تتناول (الجامعة) خلال السبعينيات، تستعرض ما بين الأصدقاء الأعداء من أحداث، وفضح من بيده السلطة لتعويق مسيرة الآخر إذ تشير إلى ما تعرضه الرواية من سطوة المؤسسة التعليمية التي تمثل صوت السلطة حيث "توثّق الرواية على صعيد آخر لصولات إدارة الكلية باسم المحافظة على الأخلاق:- سرعان ما أصبحت تلك الصولات نمطاً إدارياً مألوفاً يضع الطلبة تحت مشرط الرقيب.. استهدف العميد في صولة من صولاته أربع طالبات من بينهن (هدى) وطلب منهن غسل وجوهن من المكياج." ص421 /422

وتستقرئ (الباحثة) في ما خصصته لـ (علاقات الطلبة) هواجس (سليم) المدرك كما يقول "حجم الهوة بيني وبينها من البداية "_ ثم تتساءل " أزادَ (سليم) شعوراً بالانقباض علمهُ أنّ (هدى) تنتمي الى عائلة غنية؟ وأنّ الثروة والمكانة الطبقية توفر حاجزاً؟" ص422 - 423

تتناول (الباحثة) في فقرة (كوابيس 1963) الأحداث المأساوية التي جرت للعراقيين ممن عُرفوا بانتماءاتهم الوطنية وما يلاقونه من عذاب، على لسان (مالك) إحدى شخصيات الرواية وما يذكره ليس بخافٍ على المتابعين، وإن كان لابد من ذكر ما حدّث به فليس سوى تساؤله هذا: "هل تعرف كيف قتل (حسين الرضي)[3] عُذّب لأسبوعين وعُلق بكلّاب في السقف، وذرّوا الملح في جراحه، وكسروا كل عظامه ورُمي في شتاء شباط في زنزانة باردة عارياً محروماً من الطعام والنوم، و فقئت عيناه حتى نزفتا دماً ثم سُحق بحادلة ثقيلة." ص424

ولإدراك الدكتورة لاهاي عبد الحسين ما للصحافة من دور في تشكيل وعي المواطن فقد أفردت لها حقلاً خاصاً من خلال متابعة عمل (سليم) في (طريق الشعب) منتصف السبعينيات "مكّنه من بلورة رأي يبدو الأقرب إلى واقع الحال : ".. كنت أعتقد أن الصحافة منبر محايد.. لكني أدركت تدريجيا أنها المختبر الذي تؤخذ إليه الحقائق لتخضع إلى عمليات الإعداد والتزويق والحذف والإضافة، بل وحتى التشويه المتعمد." ص425/ 426

ولم يكن للأحياء الناجين بعد معاناة سطوة السلطة وبطشها إلاّ هامش الحياة. وها هو ذا (ستار) أحد زملاء (سليم) تنقل عنه (الباحثة) "رحلة عذاب استغرقت ما يقرب العقد من الزمان مّر بها أخوه الأكبر، كان منتمياً إلى الحزب الشيوعي العراقي منذ عام 1958، سجن عام 1963 وسجن في ما بعد، وأطلق سراحه عام 1968، اعتقل بعد ذلك بعدة أشهر.. تسبب كل هذا بعذابات لا حصر لها للعائلة وبخاصه الوالدة.. كان عليها زيارته في سجن الحلة ومن ثم سجن السماوة في نقرة السلمان، توفيت الأم مبكراً.. تعرض زوجَي أختيه إلى الاستدعاء والتحقيق.. عندما خرج أخيرا من السجن كان محطماً واجماً حزيناً.. التقط (ستار) الرسالة.. زرعت في نفسه ما أسماه " كره السياسة " .. لم تتعارض هذه النزعة مع حزب البعث ما

دامت تضمن له البقاء.. الانتماء كوسيلة للخلاص". ص426/ 427

تسعى الباحثة عبر تفكيك ما اصطلح عليه بـ(الجبهة الوطنية والقومية التقدمية) برصد " الأجواء التي سادت.. اتسمت بالإخلاص من جانب الشيوعيين، والتصيّد والتجبر من جانب البعثيين .. وكيف أنها شلّت الشيوعين وشرذمت تنظيماتهم، في ما سار البعث بتخطيطاته لتكريس السلطة وتطويق الخصوم المحتملين، وفي مقدمتهم الشيوعي العراقي." ص428

ولو أجرينا معادلة رياضية طرفاها الشيوعي والبعثي وما ينتج عن خصائص كل منهما في ضوء التحالف لوجدنا أنّ

• إخلاص الشيوعيين أنتج 1) الشلل 2) التشرذم

وكلاهما يفضي الى التذمّر وخيبة الأمل.

• تجبّر البعثيين أنتج 1) تكريس السلطة 2) تطويق الخصوم

وكلاهما يفضي الى تصفية الحزب الشيوعي

ولم يغفل الروائي (فلاح رحيم) العلاقات السائدة آنذاك بين الحزبين، وما يشوب تحالفهما من أحداث أفضت إلى شرخ واضح بين صفوف الحزب الشيوعي إزاء استفزازات النظام. وقد رصدت (الباحثة) جانباً من تلك الخلافات حين " انتقد (مالك) موقف الحزب الشيوعي والأنصار لميلهما إلى التعاون مع الحكومة لتصفية "البيشمركة" فكان أن تعرض إلى العقوبة. " ص430

وبعين المؤرخ وبصيرة الباحث تواصل الدكتورة لاهاي عبد الحسين مسح الفضاءات التي تؤشر النوايا السيئة للسلطة وما تضمره من شرور في صندوقها الذي لم يفلح الشيوعيون في فك مغاليقه. وقد استحضرت (الباحثة) ما استذكره (سليم) في لقائه بـ (مالك):- خيارنا واضح البعث اصطفّ مع قوى الاشتراكية ، وتصدى للمصالح الأمريكية في العراق .. وهو بالتالي يقف معنا في خندق واحد.. ردّ مالك مذكّراً إياه بقيام المخابرات الأمريكية بتزويد البعثين في شباط 1963 بقوائم المطلوبين من الشيوعين والقاسمين.. وأنّ الحركة الشيوعية العالمية غير ملزمة بالتوقيع على كل ما يصدر من الاتحاد السوفيتي.. تذكّر أنّ فيدل كاسترو وجورج مارشيه هما يمثلان حزبين أصيلين أعلنا رفضهما للغزو السوفيتي لتشيكوسلوفاكيا.. عاد (سليم) مصححاً: لكن مارشيه نفسه أعلن تأييده القاطع لسياسة التحالفات والجبهات الوطنية.. تساءل (مالك): عّما إذا لم يكن كافياً أن يشهد العالم نهاية الليندي المأساوية؟ .. وتظهر الرواية كما تشير (الباحثة) الشعور بخيبة الأمل لدى هؤلاء الشيوعيين وشراسة البعث بتطويق شركائه بالجبهة." ص 430 /431

غالباً ما تستعين (الباحثة) بمبضع الجراح وهي تستعرض ما في الرواية من كشف عمّا في توجه السلطة من أورام خبيثة، ومنها " التوسع الحاصل في إضفاء الطابع العسكري على نشاطات الطلبة والشباب والطلائع، الخطورة في هذه النزعة قد تؤدي الى عسكرة البلد." ص433

إلى جانب سعي السلطة إلى إجهاض المشاريع الوطنية في ميدان الأدب والفنون. حدث هذا "بعد قيام (بديع) بإخراج فيلم

وثائقي عن المرأة العراقية. لم يُمنع الفلم وحصل على الإجازة من قبل مديرية الرقابة، بيد أنهم عاقبوه "لأنهم يعرفون حقيقة ميوله وهم البعثيون لا يتحرجون من التصريح بأنّ الإعلام الرسمي يجب أن يكون مغلقاً هو الآخر وحكراً على فكر الحزب القائد.. بعد نقله إلى الأرشيف - صار قليل الابتسام كثير الانسحاب.. يشعر كما لو أنه أسير في قاعة الأرشيف." ما هي إلّا أشهر قليلة ويختفي (بديع) وتبيّن أنه رتب لنفسه عقداً مع مؤسسة السينما في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية_ فكان بذلك من أوائل المنسحبين والمهاجرين" ص434 /435

(وأول الغيث قطر ثمّ ينهمر) لم يكن غيثاً بل هو ممّا يستصرخ الغوث، ولا من مغيث سوى الموت أو الهجرة وقد استنفرت (الباحثة) عدسة (المؤرخ) لرصد مؤشرات انهيار التحالف مشيرة إلى "أنّ انهيار التوافق بين القيادات الحزبية وقواعدها ينذر بانهيار جدّي على المستوى التحالف الجبهوي.. كان من الطبيعي أن يعمّ الشعور المتعاظم بالإحباط وخيبة الأمل باعتبارهما خطوة تمهيدية على طريق النهاية المحتومة." ص438 /439

بعد أن أرست الدكتورة لاهاي عبد الحسين إرهاصات واضحة لما قد يحدث لمسيرة التحالف فقد أفردت مساحة واسعة لـ (انفراط التحالف) وما رافقه من (إعدامات) تشي بـ"انفراط عقد الجبهة" أعلنت الحكومة عن "إعدام مجموعة من الجنود المكلفين بتهمة الانتماء إلى غير حزب البعث" ولم تنفع المناشدات الدولية بوقف الإعدامات بما في ذلك وساطة موسكو وبريجينيف. وإمعاناً في التعبير عن سياسة الإقصاء بادر الحزب الحاكم بإعدام مجموعة أخرى من هؤلاء العراقيين." ص439

تواصل (الباحثة) متابعتها لأساليب النظام غير الإنسانية لفرض سطوته على المتحالفين معه عبر الملاحقات وما يبعثه من شفرات "تمهيدا للإعلان الرسمي لانهيار التحالف الجبهوي من جانب الحزب الحاكم." ص430

لم يكن ما حدث قد دُبّر بليل بل في وضح النهار بدءاً من التهجم المباشر على الحزب الشيوعي بما نشر في صحيفة (الراصد) وقد أحدث ذلك الهجوم "جدلا انقسم إزاءه المتجادلون في أروقة جريدة (طريق الشعب) الى فئتين رئيسيتين فئة تدعو إلى ردّ عنيف وأخرى تدعو إلى التهدئة. بيد أنّ مجلة ألف باء الحكومية الرسمية سدّدت ضربة لا تخطئ لأنصار التهدئة، نشرت المجلة مقالة هجومية مباشرة تعرضت فيها إلى اجتماع الأحزاب الشيوعية العربية ومواقفها." ص442/443

من أجل أن تقدم (الباحثة) صورة حيّة لما يتعرض له الشيوعيون آنذاك ممن تحالفوا معهم، ذلك الحليف الذي وضعهم أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا الانتماء لحزب البعث وإمّا التصفية الجسدية والخيار صعب أمام أولئك الذين حرصوا على سيرهم النضالية من التلوث فابتكرت لهم السلطة الجائرة ما عُرف بـ(الصف الوطني) "يجري اعتقال الشخص بتهمة .. التهجم على " الحكومة أو سبّ النائب[4]، تبدأ بعدها عمليات الترويض على الإهانة والإذلال بدءاً من التوقيع على ماده (200)

.. يتعهد بها المعتقل بالامتناع عن ممارسة أيّ نشاط معادٍ .. وبناء على تعهده فإنّ مصيره الإعدام أو أن يوافق على الانتماء للبعث .. _ ويتعرض _ لكل صنوف التعذيب في حالة إصراره على الرفض " ص448

ولأنّ (الباحثة) تسعى إلى أن تكون دراستها وثيقة إدانة تستلمهما مّما وثقه الروائي (فلاح رحيم) عمّا جرى للكثيرين ممن رفضوا الانتماء لحزب البعث، حيث تلتقط "حكايات عن أشخاص تولوا قيادة الحزب في الحلة وجدت جثثهم مرمية على ضفاف النهر أو في الطرق الخارجية مع الطلب إلى أهاليهم ألا يقوموا بتأبينهم .. بيد أنّ وجبات لاحقة وقّعت على التعهد وأطلق سراحها بعد أن شاع أنّ التوقيع على التعهد نوع من (التقية). وصف (سليم) استمارة التعهد تلك في حديث مع أخته (إنعام) أنّها طريقة مصممة من قبل البعث لـ(خصي الرجال)" ص448 /449

تلاحق (الباحثة) أحلام الباحثين عن منفذ يشكل ملاذاً آمناً، وقد غدا صعباً إن لم يكن مستحيلاً فللنظام الحاكم أساليبه في سدّ تلك المنافذ من خلال "علاقاته بدول الجوار لتضييق الخناق على من رام مغادرة العراق عن طريق الهرب من منفذ (النخيب) الجنوبي في كربلاء، وإنّ هذا المنفذ لم يعد آمناً بسبب اتفاق أمني مع السعودية يقضي بإلقاء القبض على أي عراقي يُرصد هناك وتسليمه إلى السلطات العراقية." ص449

تواصل الدكتورة لاهاي عبد الحسين خُطى (سليم) حتى مشهد الصفحة الاخيرة من الرواية بالحيوية ذاتها والحماس نفسه اللذين تسيّدا فصولها، ولا بأس بالإشارة إلى ما سبق ذلك المشهد حيث كُلّف (سليم) بمأمورية أخذ (راهي عطية) إلى محكمة أبي غريب لهروبه، وفي محطة القطار في بغداد "علت أصوات قرع الطبول وأصوات ترددد: "شايف خير ومستاهله" .. أحسّ سليم بأصابع تضغط على كتفه .. أستدار فرأى ضابطاً أنيقاً، رشيقاً يمدّ يده: - نقيب حارث مصطفى .. أنا من المشاركين في الزفة جئت مع خطيبتي وهي إحدى زميلاتك في الكلية.. رأتك مقيّداً فأصابها القلق، أشار نقيب حارث ناحيتها قائلا: - إنها هدى.. هدى عبد الحميد " تختم الباحثة رصدها باستعارة وصف سليم لـ(هدى): " ذابت في الزحام كما تذوب همسه عذبة بين حشد صاخب." ص450

الهوامش

1. فلاح رحيم، حبات الرمل.. حبات المطر رواية (منشورات الجمل)2017.
2. د. لاهاي عبد الحسين، من الأدب إلى العلم: علم اجتماع القصة والرواية العراقية للفترة 1920 - 2020 (دار الشؤون الثقافية العامة، 2022).
3. (حسين الرضي) الاسم الحقيقي لسلام عادل سكرتير الحزب الشيوعي العراقي آنذاك.
4. المقصود صدام حسين الذي كان نائبا لرئيس الجمهورية آنذاك.

واستحال كل شيء الى قمر

جيورجي جوسبودينوف*
ترجمة جودت جالي*

كان كاستور ب. ذاهبا ليموت. لقد عاش تسعة وسبعين عاما وثلاثة أشهر ولم يعد يرى معنى للإستمرار. لا توجد في قراره تراجيديا أو شفقة على النفس. توفي جده عن عمر ناهز تسعة وسبعين، وأبوه غادر الحياة أيضا قبل أن يدخل في الثمانين. وجد كاستور عمره جديرا بالإحترام، مدة حياة طبيعية لكائن بشري لم يعبث بجيناته. توجب عليه أن يقوم ببعض الترتيبات الشكلية. فكر بأن الموت يجعلنا منظمين فيما كان متوجها الى (المكتب المركزي للأمنيات الأخيرة) وهو القسم المختص بإنهاء الوجود الدنيوي. إن تعبير "الأمنيات الأخيرة" يبدو وكأنه "الطلب الأخير" في بار. فكر بمسحة من الحزن بأن الناس فيما مضى كانوا يستطيعون أن يستلقوا ويموتوا ببساطة، والآن حتى الموت جُعل رسميا. لا يزال لديه خمسة وخمسون عاما للعيش على الأرض، والتأمين على حياته حسب الأصول ومزود بضمان من الموت قبل عيد ميلاده المائة وخمسة وعشرين. ذلك هو الحد الرسمي الأعلى، مع ذلك، بشكل غير رسمي، توجد عموما شائعات كثيرة بأن أناسا مهمين ومصرفيين فضائيين أثرياء كانوا يشترون لأنفسهم أعمارا الى حد ثلاثمئة عام أو أكثر.

كان كاستور مؤهلا لرفض السنين الباقية من استحقاقه، وما عليه سوى أن يقدم طلبه شخصيا، ويؤكده بعد بضعة أشهر، وعندها يتلقى الموعد الدقيق لموته الذي اتخذت الترتيبات بشأنه. الآن مرت بالضبط ثلاثة أشهر منذ أن قدم طلبه الأول. إن الالتماس الوحيد الذي قدمه الى القسم هو أن يرسلوا لإبنه رسالة يُعلمونه فيها بقراره. قالوا له " هل لديك أقارب آخرين في مجرتنا؟ يمكننا أن نرسل اليهم رسائل أيضا، فتأمينك يغطيها كلها" أجاب " كلا، ليس لدي أي أقارب آخرين في... المجرة". إن اللغة شيء خطر. كل شخص كان يتكلم بهذه التعابير الكونية التي تجعله يصاب بالغثيان. إن معرفة كونك ليس لك أحد على الأرض شيء ومعرفة كونك وحيدا في المجرة بكاملها شيء آخر تماما. كان عليه تسجيل الرسالة بنفسه وقد تطلبت منه أقل من دقيقة. فكر في الكلمات مقدما وحتى قرر بأية نبرة ستكون، ومع ذلك فإن صوته الغادر ارتفع عند النهاية بالضبط: " أظن أنه الوقت المناسب. رجاء تعال لتودعني." لم تكن هناك حاجة الى رسالة طويلة. ساعدته الفتاة التي في المكتب في ملء الأوراق. كان موقع

الإستقبال بعيدا جدا حتى بالنسبة لوسائط النقل الحديثة، ولم يكن يستطيع أبدا تذكر موقع المدار التابع للكوكب الذي ينسِّق له وقال بتعابير القرن الماضي: "بعيدا في وسط اللا مكان"، وهي صيغة ليست مفهومة حتى لفتاة صغيرة، فإبتسمت الفتاة بلطف وأجابت بأن النقل الأسرع سيتطلب حوالي أسبوعين للوصول الى العنوان. قال كاستور مبتسما: "كانت رسائل والدي تصل أسرع من ذلك. في الواقع خلال أسبوع أو نحو ذلك".

لقد خطط لكل شيء مقدما. ينقضي أسبوعان بما يسمونه التيلغرام أو أية تسمية أخرى لتصل الرسالة الى إبنه، وأسبوع يكون فيه إبنه غاضبا لأن أباه قد فقد عقله دون ريب، وأسبوع آخر يهدأ فيه ويبدأ بتردد، ثم القرار في الأسبوع الخامس، وأسبوعان آخران ليلتمس مغادرة طارئة ويرتب أموره قبل السفرة. ثم يصل الأرض، وسيكون قد انقضى شهر ونصف تقريبا. لكن انقضت الأشهر الثلاثة ولا يوجد ما يبشر بوصول ولده حتى الآن. كان كاستور ب. يدقق مع القسم يوميا في الأيام العديدة المنصرمة غير أن الموظفة المحبوبة لا تجيب حين يسألها سوى بهزة من كتفيها، كتفين بناتيين متعاطفين كما هما دائما.

اليوم هو آخر يوم لكاستور ب. تبقت لديه بضع ساعات أخر ليتجول خلالها في شوارع المدينة. كان لا بد أن يكون الموسم ربيعا وفقا للتقويم، وفعلا، تغطت أشجار الكستناء مثل كعكات الكريم، وشجيرات السنط البيض تتمايل مع الريح، والخضرة غمرت الشوارع، ولكنه ليس شيئا ذا بال إزاء أوقات الربيع التي تذكّرها، فمع أن الأزهار وفيرة إلا أنها بلا عطر. لا زال كاستور يتذكر كيف كانت رائحة الأشياء، وتذكر أيضا كل محاولاته الفاشلة لوصف

عطر السنط لإبنه، المولود في عالم بلا عطور. لا توجد وسيلة، على كل حال، لوصف رائحة من دون مقارنتها بأخرى. نعم، السنط تبعث رائحة كرائحة الليلك، مع أنها أكثر رقة، غير أن الليلك لم تعد لها رائحة هي الأخرى، ولم يعد يوجد نحل يحوم حول الأزهار. لقد مضى زمن طويل منذ أن انقرض النحل البايولوجي. لقد بدأ يختفي اختفاء تكتنفه الأسرار منذ أربعين عاما. بعض الناس اعتقدوا بأن إرسالات خلايا التلفون أربكت وسائل تواصل النحل نفسها، وآخرون قالوا بأن السبب فيروس عدواني جديد. إن إنقراض النحل كان علامة أخرى على أن الأشياء لا تسير كما يرام. التكنولوجيا تتطور أسرع فأسرع، ولكنها لا تزال محدودة في وسائلها لترميم ما ألحقت به من ضرر، وإن المحاولات على صعيد التلقيح الصناعي العالمي الجديد، والتعديل الجيني لذباب المنزل في محاولة لتحويله الى أنواع جديدة من النحل، تتجه الى كارثة كلية، هي عبارة عن خلق صدوع جديدة في السلسلة. لقد أمضى كاستور ب. عمرا يحاول النضال ضد هذه المشاريع المجنونة في مرحلة مبكرة من شبابه. في بداية القرن بدأ يعمل في التلسكوب الأكبر في القرن والبالغ قطره إثنين وأربعين مترا، حتى أنه إكتشف في مكان قصي في الفضاء سنة 2011 الثقب الأسود الأصغر في الكون، والى وقت قريب إحتفظ بقصاصات الصحيفة التي تتحدث عن نجاحاته بكل عناوينها الرئيسية المثيرة. يوجد نوع من التهكم حول استخدام التلسكوب الأكبر في الإتحاد الأوربي لإكتشاف الثقب الأسود الأصغر. ثم قرر أن الوظيفة خالية من الأحداث المثيرة ومملة الى حد بعيد، فإنتمى الى مجموعة من العلماء الخضر. كانوا يحاولون إثبات أن الوقود الحيوي ليس بديلا عن مصدر الطاقة، وكانوا أول من أطلق تحذيرات بأن إنقراض النحل سيؤدي الى كارثة تعايشية، فلم يعرهم أحد إهتماما. كل شيء حوله أكد سلسلة حالات الفشل التي ميزت حياته. كان العالم يتطور في إتجاه نقيض لما أمل له. نظر الى الأعلى: حتى السماء تبدو جرحا خيط خياطة غير ملائمة بعد عملية جراحية.. البقع الصفر الهائلة نتجت عن محاولات فاشلة لرقع الثقوب في طبقات الأوزون بوساطة حقن جزيئات الكبريت في الغلاف الجوي الأعلى. تلك كانت آخر معركة خسرها، جهده الأخير لرفع السلاح، مثبتا أن طبقة الأوزون ستكون حتى أخف بعد هذه المعالجة. هو يعرف الآن أنه على صواب، وهذا جعله أكثر بؤسا.

لقد آن الأوان. بقيت لديه ثلاث ساعات أخرى فقط على الأرض، فإن كان سيكتب أية رسائل وداعية، عليه أن يكتبها الآن. طبعا، لا أحد كتب على ورق منذ سنين، وقد كانت بادرة ذكاء منه أن يحتفظ بقلم وإضمامة ورق غير مستعملة، فلقد إدخر عن قصد هذه المهمة، أو الشعيرة بالأحرى، حتى الدقيقة الأخيرة. لا يزال يأمل بإمكانية أن يصل إبنه. قرر أن يبدأ برسالة الى أبيه. لقد مضى على الوقت المناسب لتوديع أبيه توديعا لائقا أكثر من خمسين عاما. تردد كاستور بخصوص شكل الخطاب، ثم كتب "أبي.." أبهجه

صوت خربشة الرصاص الثقيل على الورق، وفجأة انثالت الكلمات، كما لو كانت دائما بانتظار قلم رصاص وورقة لتنبثق. أخبر والده كيف تطور العالم وكم هو سعيد الحظ لأنه تدبر أمر تجنب رؤيته. لقد كان أبوه واحدا من آخر البستانيين الأصلاء، أحب التحدث مع الأشجار، وكان له نبرة واحدة مع شجرة التفاح وشجرة الكرز، ونبرة أخرى لشجرة الإجاص وشجرة الجوز، وكان يذهب الى خلايا النحل بلا قناع، بكل هدوء، ويتحدث مع نحله كذلك. ما يحدث الآن كان سيكون نهاية عالمه الشخصي. كتب كاستور ب. يقول: "لم أستطع إنقاذ الحديقة، والنحل ذهب، ولكن شجرة الجوز العجوز لا تزال حية". في الأخير كتب بأنه قرر، وهنا أمسك عن الكتابة طويلا من أجل الكلمة المناسبة، ثم كتب "... أن أذهب. كل شيء على ما يرام فلا تقلق. حتى إبني عاد. ليس مثلي أنا الذي لم أتدبر العودة من أجلك في ساعاتك الأخيرة. سامحني... إبنك المخلص لك. كاستور ب. س. قريبا سنتمكن من أن نلتقي على قدر ما نحب من الوقت، إلا إذا دمروا الآخرة أيضا".

شعر كاستور بالإرتياح فلقد أدرك بأنه قضى وقتا في كتابة هذه الرسالة أطول من أي وقت قضاه في التحدث مع أبيه عندما كان على قيد الحياة، أما رسالته الى إبنه فقد كان البدء بها أكثر صعوبة. حاول وحاول، مزق الورقة، ثم بدأها من جديد. لم يرد أن يكون فيها أي ألم أو حزن، وفي النهاية إستقر على التالي، مفاجئا حتى نفسه " بما أني فشلت في كل شيء حاولته أولعت في السنوات القليلة الماضية بالنظرية الجزيئية والهيولي. لاحظت الغيوم والأنهار، الأشجار ونباتات السرخس، ما دام يوجد منها ما يمكن رؤيته. أردت عبر علم هندسة الطبيعة أن أرى كيف أن القليل الذي نجا هنا على الأرض يمكن أن يتطور. أنت تعلم بأني عكسك لم أؤمن تماما بالفضاء، أو استعماره. إنه مجدب ومظلم وبارد، ولكن الأمر أصبح سواء هنا. ما نماه جدي وأبي في حديقتيهما- ما أحاول وصفه- ذهب الآن، وعلم هندسة الطبيعة لا معنى له من دونه. هذا قد يغضبك، ولكني لا زلت أرى أننا متهورون جدا في إندفاعنا الى الفضاء الخارجي. لسنا مهيئين تماما. في الماضي البعيد عندما كان البدو يجوبون الصحارى إعتادوا على أن يرتاحوا في أوقات متقاربة، ليس ليريحوا جمالهم فقط بل ليكون لأرواحهم الوقت لتلحق بهم، فسرعة الأرواح مختلفة، أنظر فقط كم من الأرواح الضائعة والمتأخرة التي فاتتها القافلة لا تزال تجوب في صحراء الفضاء. يمكنني سماعهم يبكون. أنا أستلقي على ظهري ليلا وأراقب القمر، حيث سأكون خلال بضع ساعات. أتدري ما هي مادة الفضاء الأساسية؟ من أي شيء صنع؟ لقد صنع من التوحد، والتوحد مادة طيارة، تتمدد لتملأ المنطقة حولها. جدي، جدك، عاش في بيت بناه بنفسه، وعمل في حديقته، وأبعد مكان ذهب اليه هو الغابة القريبة من قريته، وهكذا فتوحده بقدر بيته وحديقته الصغيرة. توحد أبي كان بحجم الشقة والمدينة التي انتقل اليها. كان جدي معتادا على القول بأن أبي "هرب" الى المدينة، ثم "هربت"

أنا الى بلد آخر، والآن أنت نفسك هربت الى مكان ما في الفضاء. كنت أفكر الليلة كيف يبدو توحدك، هل له الأبعاد التي للكون نفسه؟ هل هو أخف وأكثر كثافة؟ ما هي كتلته؟ كيف تؤثر فيه الجاذبية؟ في الماضي كان التوحد عادة أكثر تركيزا، أصغر، يمكنك ترويضه، وتربت عليه كما تربت على قطة. أنا الآن أجد من المستحيل مجاراة أبعاده الكونية الجديدة. لن أستطيع الآن أن أنهي "بحثي في علم هندسة التوحد.. الجزيئي"، لا أستطيع أن أضعه في معادلة، لا أستطيع أن أحسبه وقد طعنت في السن الآن، تعرف، بدأت أشكو، متحولا الى أبي وجدي، وقد آن الأوان لأعود اليهما. لا تكره نفسك لأنك وصلت متأخرا جدا، سيكون كافيا بالنسبة لي أن أعرف أنك في طريقك. أوه.. قبل أن أنسى، عندما تأتي لتستلم هذه الرسائل من القسم أولِ اهتمامك الى الفتاة اللطيفة التي تسلمها اليك. تحدث اليها، أطلب منها أن تخرج معك لتشربا شيئا في ذكراي. نحن نعرف بعضنا بعضا، إنها شخصية طيبة مهذبة".

ربت كاستور ب. بيده على الورقة المكتوبة بدقة وطواها. لقد ودع كل الناس الذين يهتم لأمرهم في الكون. مشى الى المكتب وأودع الرسائل. كان يراقب الناس يتدفقون بالإتجاه المعاكس في أول المساء.. بعيدا عنه. مشى متخطيا بعض الأنجيلينا جولي والبراد بيت الذين بدأوا يشيخون، سريعا وبشكل يتعذر إصلاحه، نسخ رخيصة، ربما نسخ مقرصنة من خلايا ثنائيات كبرت لتغازل نزوات آخرين. والآن حكم عليهم طوال حياتهم أن يرتدوا هذه الأجساد التي بطلت موضتها منذ سنوات. شكرا لله لأن الفتاة التي في القسم تشبه نفسها. قبل أن يدخل، وقف كاستور ب. خارجا لبعض الوقت، يراقب من طرف عينه كبسولة الفضاء المنفردة التي ستأخذه قريبا الى المقبرة الجديدة على القمر. فيما كانت تأخذ رسائل التوديع منه عانقته الفتاة فجأة للحظة. كان ذلك التصرف منها مخالف للقوانين بالتأكيد. قال محاولا عدم الإنفجار باكيا كالطفل "قطعا سيأتي في يوم ما، لقد آن الأوان". قالت الفتاة "أعرف". بدأ الغسق يحل وأخذ اللمعان الفسفوري، الذي عرفه كاستور ب. منذ أن كان طفلا، يدنو أكثر فأكثر، وإستحال كل شيء الى قمر.

• جورجي جوسبودينوف روائي وقاص وشاعر وكاتب سيناريو ومسرحيات بلغاري. فازت روايته الأولى بالجائزة الوطنية وعرف عالميا بروايته (رواية طبيعية)، كما فازت (فيزياء الحزن) بثلاث جوائز. ولد سنة 1968 ويقيم في صوفيا.

• مترجم عراقي له العديد من الكتب المترجمة.

مطبوعات وصلتنا :

• لطفي حاتم ، التوسع الرأسمالي واليسار الديمقراطي - دار الرواد المزدهرة - بغداد 2022.
• جاسم محمد علي الساعدي، العدالة الاجتماعية واشكالية التطبيق - دار الرواد المزدهرة - بغداد 2022
• امير الحلاج (جدار مر) شعر، منشورات اتحاد الأدباء - بغداد 2021.
• محمود الخياط (دالية العنب الذهبي) قصص، منشورات اتحاد الأدباء- بغداد 2021.
• صباح هرمز (قراءة تأويلية في روايات احمد خلف) نقد، منشورات اتحاد الأدباء بغداد 2022 ,
• احمد الشطري (مواويل الفتى السومري) شعر، منشورات اتحاد الأدباء- بغداد 2022.
• خضير فليح الزيد (يوتيوب) رواية ، منشورات اتحاد الادباء - بغداد 2022.
• عيسى مسلم جاسم (أشياء اخرى) قصص قصيرة، نصوص - منشورات اتحاد الأدباء - بغداد 2022.
• احمد الناجي (بواكير النهضة النسوية في العراق) دراسات ، منشورات اتحاد الأدباء - بغداد 2022.
• ناهدة جاسم جابر (التين الأسمر) شعر، منشورات اتحاد الأدباء - بغداد 2022 .